

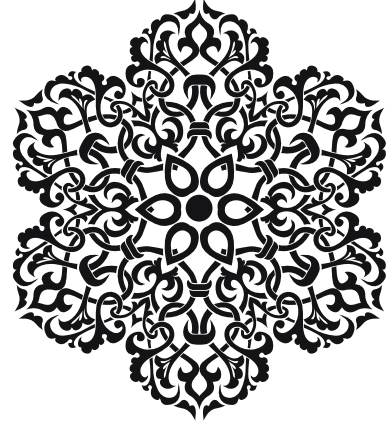
الأمن

وحاجة البشرية إليه

في عبادتها لربها، ونُمو اقتصادها
وطُرق المحافظة عليه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
1429هـ / 2009م



مكة السلام
للإنتاج الإعلامي

للاتصال: 0794 379 711
المراسلة: info.ussalam@gmail.com

سلسلة: إصلاح الفرد والمجتمع (رقم 01).

قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه «إياكم والفتنة، فلا تهمّوا بها، فإنّها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال» سير أعلام النبلاء (148/3-149).

الأمن

وحاجة البشرية إليه

في عبادتها لربّها، ونموّ اقتصادها
وطرق المحافظة عليه

نسخة منقحة ومزودة

بتقديم فضيلة الشيخ:

على بن حسن بن عليّ بن عبد الحميد الحلبيّ الأثريّ

تأليف:

أبي عبد الباري عبد الحميد أحمد العربيّ الجزائريّ.
كان الله في عونّه.

مكة السّلام
للإنتاج الإسلاميّ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم فضيلة الشيخ:

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ؛ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ؛ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ -وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ-.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد شرفني طالب العلم النبوي، الأخ الفاضل المُجِدُّ: عبد الحميد العربي -حفظه الله ونفع به- بالنظر في كتابه «الأمن وحاجة البشرية إليه؛ في عبادتها لربها، ونمو اقتصادها، وطرق المحافظة عليه»، وكتابة مقدمة له.

فجزاه الله خيراً، وزاده فضلاً وبراً..

ولقد طالعتُ مواطنَ عدَّةٍ -كثيرة- من هذا الكتاب المفيد؛ فرأيتُه قائماً على منهجية شرعية علمية -أولاً-، وعلى تحقيق المصالح الدنيوية والدينية -ثانياً-.

وهذان مقصدان مهمان غاليان؛ قلَّ من يتنبه إليهما، أو يجمع الناس عليهما -والله المستعان-.

ومثل هذا -الكتاب- في تأصيل هذه المنهجية، وتحصيل تلك المصالح -:

كتابهُ الآخر -نفع الله به-: «دعوة إلى الحكمة والتَّعَقُّل» -وهو نافع مفيد- أيضاً.

فجزى الله أخانا الفاضل على جهده المبارك، ونفع به البلاد والعباد؛ إنَّه -سبحانه- برٌّ كريمٌ جواد.

وأخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَكُتِبَ

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري

ضَحَى يَوْمَ الْأَحَدِ

ليومين بقيا من شهر رمضان سنة 1429هـ

عمَّان - الأردن/مدينة طارِق - حيّ الشهيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا،
وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ.
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران: ١٠٢.
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ النساء: ١.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١.
أما بعد: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ،
وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

توضيحٌ لا بد منه:

لقد أصدرتُ ملخصًا لطيفًا لكتابنا هذا⁽¹⁾ قبل أن ييدي الشعبُ الجزائري المسلم برأيه في الصُّلح الذي طرحه حاكمُ البلاد -أيده الله بالحق- لجمع كلمة المسلمين، وتطهير المجتمع من عوامل الدمار، ورفع الضَّغائن عنهم، بعد ما عصفت بهم الفتن، ومزقت روابطهم الإحن، وطمعت فيهم دُؤْل الشرِّ بعلّة محاربة الإرهاب، ونشر الديمقراطية على تصورهم الغربي الكافر.

(1) كان اسمُ الكتاب سابقًا (فَتَحَ الْعَلِيمُ الرَّحْمَنَ فِيمَا فِي الصُّلْحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قُوَّةٍ وَأَمَانٍ) ثم غيّرته إلى (الأمن وحاجة البشرية إليه...) لاحتوائها على مادةٍ علميةٍ كبيرة تُعالج قضايا أمنية معاصرة، تحتاج إليها الأمة في عصر الهرج والمرج، وأصدرت الملخص في حينه نصرَةً لمبدأ الصُّلح والحوار الذي أراه سبيلًا شرعيًا لتضييق الخلاف، وفَهْم منهجية المخالف، وتجفيف منابع العنف والتطرف، وكشف مخططات دعاة الإقصاء والتغريب، والدَّفْع بدفة الاقتصاد نحو الأحسن والأسلم، ولم أصدره والله الحمد والمِنَّة رداءً وردءً للديمقراطية الغربية كما سعت بعض الأطراف إلى إظهاره، والله تعالى يعلم المصلح من المفسد.

كما إنني أشهد الله وملائكته، وكلّ من وقف على هذا السِّفر من الإنس والجن: أنني أبغض المنكرات الصادرة من الحكام والمحكومين، وأعوذ بالله من أن أجادل عن حُكّام لا يحكمون بشريعة الله، أو أحاج عن أقوام لا يرجون الله وقارًا، لأن هذا الوصف ليس من صفات طالب العلم الرزين الذي يسير على منهج أهل الحديث والأثر، كما بيّن ذلك العلامة الشوكاني في جزئه أدب الطلب (ص106)، ولكنني زبرت ما سبكت في هذا الكتاب نصرَةً لمنهج أهل الحديث الأبرار، وتبرئةً له مما ألصق به عنوة من عار، ونُسب إليه قسرا عبر وسائل الإعلام من غلو وتطرف وتشدد مقيت وشنار، رغبةً في إرضاء ربّ الأرباب، ودفاعاً عن أئمة السُّنة أساطين الإسلام أولي الألباب، وكلّ هذا جريا وراء الأجور من الباري جل وعلا لأنال بعونه تعالى تجارة لن تبور، فالنفس الشريفة دائما ترغب في اقتناص شوارد الأجور، والله تعالى ناصرني فنعم المولى ونعم النصير.

وبادرتُ بعون الله إلى إخراج الملخص في ذلك الوقت لأغذي عقولَ بعض الناس التي ارتابت في مسألة الصلح بين المسلمين بضوابطه الشرعية، وأزيل عنها شيئاً من الغشاوة، وألفت انتباهها إلى قيمة الصلح وعلو منزلته عند الله تعالى، وأنه ضرورة ملحة في عهد نخر الخلاف المفتعل هيبة الأمة الإسلامية، واستنزف طاقاتها، وأذهب بريحها، وأحدث فيها فجوات عدة تسرب من خلالها العفن إلى صرحها المهزوز، وصيره إلى كتلة نار ملتهبة، قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الأنفال: ٤٦.

وكما هو عمل كل بشر فقد ظهر في الملخص بعض السقط، والأخطاء المطبعية، استغلها بعض المتحجرين، والملوثين بفكر التمرد والمعارضة والعصيان المدني، وشوشوا بها علينا بالباطل سامحهم الله^(١)، ولو كانوا أصحاب حجا، وعقول راجحة لصححوا ما رأوه من خطأ، وساهموا في توزيع الجزء، ليعم به النفع، ويقل به الشر.

وها أنا أفي بوعدِي وأصدرُ الجزء الأول من السلسلة الشاملة التي عالجتُ فيها قضايا منهجية معاصرة، وقد أطلقت عليها اسم "إصلاح الفرد والمجتمع"، والله أسأل أن يكون هذا الجزء الذي بادرت بإخراجه خاليا من الخطأ والزلل، وصراطا مستقيما لمن أراد طريق النجاة والخلاص من الفتن، أهديه إلى كل مخلص ومشفق على أمته، وحكيم في تعامله مع القضايا الشائكة، وبصير بمنهج أهل الحديث في باب استفتاء الحقوق واسترجاعها

(١) وأقول لهذا الصنف من الناس كما قال الشاعر:

وجدت الحلم ينصرني على من.....أسلّ لحربه طبة الحُسام
ولي كلم كآن اللفظ منها..... يرش السمع منه بالسهم
ولكنني أكفكفها بحلم..... يلاث البرد منه على شمام
ولست أعيّد من حنق عليه.....مخاطبة لتجديد الخصام
ويقصر في الحقيقة كل شيء.....تُنيت جميعه غير الكلام.

إذا غُصبت، ومدركٌ لعلم المصالح والمفاسد، وعارف بفقهِ المآلات، وخبيرٌ
بخطورة ما يحاك لهذه الأمة في الظلام، وما يخطط لها في الخفاء كي تكون
لقمة سائغة في أيدي دُولِ الشرِّ، فإن أصبْتُ فمنه تعالى وحده لا شريك له،
وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان، وأنا إذ أعترف
بقصوري فيما أعتمد عن الغاية، وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية، فأسأل
الناظر في الكتاب ألاّ يعتمد العنت، ولا يقصد من إذا رأى حسنا ستره،
وعيبا أظهره ونشره، وليتأمل به عين الإنصاف لا الانحراف والانجراف، فمن
طلب عيبا وكدَّ وجدَّ وجده، ومن افتقد زلل أخيه بعين الرضا فقد فَقَدَ،
فرحم الله امرأً قهر هواه، وأطاع الإنصاف ونواه، وعذرنا في خطأ إن كان منّا،
وزلل صدر عتّا، فالمرء غير معصوم، والنسيان في الإنسان غير معدوم، كما
قال شهاب الدين الحموي، وإياه مولاي أسأل التوفيق لما يُرضيه، والهداية
إلى ما يحب ويزلف إليه، إنّه تعالى جواد كريم، ورؤوف رحيم.

والحمدُ لله ربّ العلمين.

وَكَتَبَهُ: أَبُو عَبْدِ الْبَارِي عَبْدِ الْحَمِيدِ أَحْمَدُ الْعَرَبِيُّ الْجَزَائِرِيُّ.

في الجزائر الغراء، دار السّلم والسّلام: سنة 1427 من هجرته ﷺ

مدخلٌ في حبِّ المسلم لوطنه المسلم⁽¹⁾

إنَّ حبَّ الوطن غريزةٌ متأصلةٌ في النفوس السليمة، وفطرةٌ جُبل عليها الخلق، تجعل المرء العاقل يستريح حين يعيش فيه، ويحن إليه عندما يغيب عنه، ويدافع عنه إذا هاجمه عدو صائل، ويغضب له إذا انتقصه المبطلون، ويصاب بالحزن والأسى حين يرى نيران الفتن تمزق أطرافه، والأفكار الفاسدة تلوث عقول أبنائه، والإرهاب الأعمى يقوض بنيانه، وينخر ويدمر اقتصاده، والطفيليون تحت غطاء المنصب يبتزون أمواله، ويعدلون باقتصاده عن مساره الشرعي والوطني إلى فيافي الرشوة وقفار الفقر، ويتألم حين يجد القوانين الوضعية والجائرة والخاطئة تنافس الشريعة الغراء وتزاحمها، وتضر بمآل الفرد في عاجل أمره ويوم معاده، وحملات اليهود والنصارى المسمومة تُشِين سمعته، وتطعن في ثوابته، وتسعى إلى غرس بذور الفتن في ربوعه، كما هو الشأن في الشرق الأوسط والعراق الجريح.

فقد أخرج الإمام الترمذي، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في "الشعب"، والمقدسي في "المختارة" بسندٍ صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في حق مكة عند هجرته منها: (ما أطيبك من بلدة وأحبك إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنت غيرك)⁽²⁾.

(1) ينظر كتابُ زيد بن عبد الكريم الزيد بعنوان: (حبُّ الوطن من المنظور الشرعي)، بتقديم سماحة المفتي العام عبد العزيز آل الشيخ والشيخ صالح السدلان حفظهما الله تعالى، وبحثٌ للأخ الفاضل جمل فريحان، كما أنصح بالاستماع إلى شريط (حبُّ الوطن) للشيخ الفاضل والأخ الكريم عبد السلام البرجس العبد الكريم رحمه الله تعالى.

(2) انظر صحيح الجامع للعلامة الألباني رحمه الله (برقم 5536).

ولمّا كان حبُّ الوطن غريزةً نافعةً في الإنسان دعا النبي ﷺ ربّه أن يرزقه حبَّ المدينة لما هاجر إليها، فقد أخرج الشيخان⁽¹⁾ من حديث عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: (اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكّة أو أشدّ)، ويظهر حبّ الإنسان لوطنه⁽²⁾، والشوق إلى العيش في أحضانه؛ حين

(1) البخاري (برقم 1889)، ومسلم (برقم 1376).

(2) إنّ كثيراً من الأحزاب إلا من رحم ربي، -إسلامية كانت أو علمانية-؛ سعت بقصد أو بغير قصد وأحلاهما مرّ -من خلال مشاريعها المخرومة- إلى طمس وإماتة الغريزة الطيبة التي خلقها الله في العباد اتجاه أوطانهم، فنمت في عقول بعض الشّباب فكرة التمرد، والمعارضة من أجل المعارضة، والمخالفة من أجل الظهور، وغرست فيهم الحسّ بالغربة في الوطن الأم، والعزلة الشعورية، والتنگر لكل ما هو أصيل، فتجد الشاب الغارق في أفكار حزب من الأحزاب يمر على أقوام قائمين على إفساد مشروع حضاري يعود نفعه على الجميع، وكلّف الدولة الملايين من الدولارات، أو يمر على جمع من الناس يطوفون بقبر ويذبحون عند عتبه القرايين؛ فيسلم عليهم؛ وقد يقول لهم بلهجة أهل البلد: (الله يعينكم)؛ ولا تتحرك له شعرة من خُبث ما يصنع القوم، ولا يفكر بالاتصال بالجهات المسؤولة عن قمع أمثال هؤلاء، فوالله لو ترك الأحزاب الناس على فطرتهم السليمة لكانت كافية إن شاء الله في حماية الوطن من الشّرك، والإلحاد، والبدعة، والأفكار المتطرفة، والإرهاب، والتنصير، وفكر الاستئصال، والعنف الأعمى، والجريمة المنظمة، وترويج المخدرات، وغيرها من الأعمال السيئة والباطلة.

ثم ننظر بمقابلة فاحصٍ ونتساءل: هل لبعض الأحزاب السياسية جهدٌ في رفع مستوى ذكاء أبناء الوطن، وتربيتهم على خُلُق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترويض أذهانهم على سلوك التعايش في الوطن الواحد، وتنمية الحسّ الأمني لديهم، أو (الشرطة المجتمعية)، والذي معناه التحسس والشعور بكل شيء يخل بالأمن ويدعو إلى الخوف، إذ الفرد مسئول عن أمن بلده، كما هو مسئول عن أمن نفسه وماله وأهل؟.

وهل أقنعوا الناس بالنظرية التي تقول: إنّ الوطن سفينة عظيمة تشق أمواجاً متلاطمة في عصر العولمة، والتكتلات العالمية، والهجمات الصليبية، فتقاسم الأدوار فيه حكماً وتسييراً لا يبيح التصرّف في الثوابت، ومقومات الوطن من دين ولغة وانتماء، أو إحداث ثلثة فيه بإثارة الفتن، أو ترويج الأفكار الانفصالية من تمرد وخروج وعصيان دموي، إن كانوا صادقين في وطنيتهم وقد ضرب نبيّ المرحمة والملحمة ﷺ مثلاً فقال كما أخرج

يغيب عنه ويقدم عليه ساكنٌ من ربوعه، حديث العهد بأحواله؛ فإنه يسأله عن وضع الوطن، ويشرع في التماس أخباره، فهذا نبينا ﷺ سأل أصيل الغفاري عن مكة لما قدم عليه المدينة، فقد أخرج الأزرقى في (أخبار مكة) عن ابن شهاب قال: قدم أصيل الغفاري قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبي ﷺ فدخل على عائشة رضي الله عنها فقالت له: يا أصيل! كيف عهدت مكة؟ قال: عهدها قد أخصب جنابها، وابتضت بطحاؤها، قالت: أقم حتى يأتيك النبي ﷺ فلم يلبث أن دخل النبي ﷺ، فقال له: (يا أصيل! كيف عهدت مكة؟) قال: والله عهدها قد أخصب جنابها، وابتضت بطحاؤها، وأغدق إذخرها، وأسلت ثمامها، وأمّش سلمها، فقال ﷺ: (حسبك يا أصيل لا تحزننا).

= الإمام البخاري في صحيحه (برقم 2493) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا).

فإذا أردنا النجاة، والسلامة للسفينة، والقائمين عليها وما حملت، فعلينا جميعا سداً أي ثلماً يصيب كيانها، ومن سؤلت له نفسه العبث بقوائم السفينة ضرب على يده كائناً من كان.

وهل أطلق بعض رؤوس الأحزاب العنان لسواعدهم في جانب التضامن، والتكافل الاجتماعي، ورفع البؤس عن وجوه المعوزين في المناسبات وغير المناسبات، وهل... وهل...؟ والجواب يكون بالنفي، بل لا نكاد نجد لهم حساً أو ركزاً في أوساط الأمة، ولا ظهوراً في ساحتها إلا عند حملة انتخابية يكررون نفس العبارات التي استهلكت معانيها وصارت من حديث الشوارع، ليزيدوا المجتمع فرقة إلى فرقته، وجهلاً إلى جهلهم والله المستعان!.

قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى كما في عيون البصائر (2/291): (أوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نجم بالشرّ ناجمها، وهجم -ليفتك بالخير والعلم- هاجمها، وسجم على الوطن بالملح الأجاج ساجمها، إن هذه الأحزاب كالميزاب؛ جمع الماء كدرا وفرقه هدرا، فلا الزّلال جمع، ولا الأرض نفع).

وأخرجه باختصار أبو الفتح الأزدي في كتابه (المخزون في علم الحديث)، وابن ماكولا في (الإكمال)، وفيه قال رسول الله ﷺ (ويها يا أصيل! دع القلوب تقرر قرارها).

ومما يدلُّ على مشروعية حبِّ الوطن -كما قرره الأئمة الأعلام- الحديثُ الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه⁽¹⁾، وأحمد، وغيرهما من مسند أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر فأبصر درجات المدينة أوضع ناقتة، وإن كانت دابة حركها) قال أبو عبد الله: زاد الحارث بن عمير عن حميد: (حرَّكها من حبِّها).

وقوله: (أوضع ناقتة): يقال: وضع البعير، أي: أسرع في مشيه، وأوضعه راكبه، أي: حمّله على السير السريع.

قال الحافظ ابن حجر⁽²⁾، والعيني في (عمدة القارئ): (وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حبِّ الوطن والحنين إليه).

وقال العيني في قوله: (حرَّكها من حبِّها)؛ أي (حرك دابته بسبب حبِّ المدينة، وهذا التعليق وصله الإمام أحمد).

وفي الحديث عند أحمد بسند صحيح عن علي رضي الله عنه قال: (لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها، فاجتويناها، وأصابنا بها وعكٌ وكان النبي ﷺ يتخبَّر عن بدر).

قال الحافظ ابن عبد البر في الاستذكار⁽³⁾: (وفيه بيان ما عليه أكثرُ النَّاس من حنينهم إلى أوطانهم، وتلهفهم على فراق بلدانهم التي كان مولدهم بها ومنشأهم فيها).

(1) (برقم 1802).

(2) الفتح (783/3).

(3) (515/9 ط/مؤسسة النداء).

إنَّ الوطنيةَ صفةٌ قائمةٌ بكلِّ حريصٍ على وطنه، وهي: العاطفة المنضبطة بالشَّرع الحكيم والعقل السليم التي تُعبّر عن ولاء المرء لبلده، والمقصود هنا أن يكون ولاء المرء المسلم لبلده من أجل كلمة التوحيد الظاهرة، وشرائع الدين المطبقة من صلاة وصوم وزكاة، وإن كان يعتري وطنه بعضُ النَّقص، وظهرت فيه بعض الكبائر؛ اجتهد بالعلم والحكمة في تكميل النَّقص، ورفع الجهل عن أبنائه، وتحذير أبناء الأمة من أضرار البدع والمعاصي على اقتصادها وأخلاقها وقيمها، مجنباً وطنه كُلَّ أسباب الضَّعف والفرقة، مراعيًا مقصد الشَّرع من جلب المصالح ودفع المفاسد، بعيداً عن أسلوب التهيج والعصيان المدني، بحجة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ذكر ذلك البيهقي في (المحاسن والمساوئ): (لولا حبُّ الوطن لخرب البلد السوء)، وفي رواية: (عمر الله البلدان بحب الأوطان)، وصدق الشاعر حين قال:

وَكُنَّا أَلْفَنَاهَا وَلَمْ تَكُنْ مَأْلَفًا وَقَدْ *** يُؤَلَّفُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ بِالْحَسَنِ
كَمَا تُولَّفُ الْأَرْضُ الَّتِي لَمْ يَصِلْ *** بِهَا هَوَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلَا كَأَنَّهَا وَطَنٌ.

وقد جاء في الحِكم: تربة الصِّبا تغرس في النفوس حرمة، كما تغرس الولادة في القلب رِقة.

قلت: فهلا عقل هذا المثل دعاة الإرهاب والإقصاء⁽¹⁾ الذين يدمرون أوطانهم بالشبه والظنون الكاذبة.

(1) إنَّ علاج الغلوِّ والفساد، والوقوف على الانحراف الفكري يجب أن يكون جذرياً وشاملاً، وبالطُّرق الشرعية وفق الأنظمة المرعية، فلا يُدفع الباطل، ولا يرد الإرهاب إلا بالحقِّ المبين كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، ويقول جلَّ وعز: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخِّتُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِي﴾، ولقول النبي ﷺ من حديث جابر في صحيح مسلم كتاب الطب: (لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله عز وجل)، وقال =

فالوطنية إذا هي: قيامُ الفرد المسلم بحقوق وطنه المشروعة في الإسلام بدافع الشرع والفطرة.

ومن لوازم محبة الوطن، أن يُشارك الجميع في بنائه، وتعليم أبنائه، وتوجيههم الوجهة الشرعية المستقاة من الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

فالمُعلم مسؤولٌ عن التّعليم والتّوجيه في ميدان عمله، سواء كان يعمل في المرحلة الابتدائية، أو في غيرها، ومُؤكّل بالإبداع في تطوير البرامج التعليمية، ومُثابِر في تنمية ملكة الطلاب، وتحسين ذكائهم.

وطلبة العلم الشرعي عليهم مسؤولية ثقيلة في نشر العلم الصحيح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعلم والحلم، والموعظة الحسنة، وتوجيه الأمة الوجهة الصحيحة، ووعظهم بالحسنى التي هي أحسن وأقوم.

وأئمة المساجد مطالبون أولاً: برفع مستواهم العلمي حتى يتسنى لهم تربية الجيل تربية روحية متينة، عمودها الكتاب والسنة على فهم السلف، فإنني وللأسف الشديد أصلي أحياناً وراء بعض أئمة المساجد فأجد الإمام الخطيب في وادٍ، والمصلين هائمين في وادٍ آخر، وآلف خطبته سيئة للغاية لا تحمل علماً ولا هدفاً، وأجده ضعيفاً في حفظ القرآن، وهزلياً في اللغة

= شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنة (77/3): (...وليس لأحد أن يردّ بدعة ببدعة، ولا يقابل باطلاً بباطل)؛ ومن رام علاج الإرهاب والفساد المنهجي بغلو آخر أنكى منه، وأشد وطأة على كبد الأمة؛ فإنّه يكون قد وضع القواعد والأعمدة لمنهج جديد، سماته الطمس والرّمس والرّفس لكل مخالف، كما هو الشأن عند أقوام هداهم الله، وقد جاء في حديث أبي ذر الذي حسّنه علامة الشام رحمه الله في الصحيحة (برقم 2046)، أنّ النبي ﷺ قال: (لا يُجْتَنَى مِنَ الشُّوكِ الْعَنْبُ)، ومنهج الإقصائيين يولد عنفاً آخر في أوساط الأمة؛ يعسرُ معه ضبط الأمور، وتنوير العقول، ويعقدُ عملية الإصلاح على المخلصين من أبناء الأمة، الذين يسعون إلى تنظيف السّاحة بالعلم بالحق، والرحمة بالخلق، مُتّصِفِينَ بالحكمة والموعظة والحسنة، ومتحلّين بالضّر على جور المخالف.

العربية، وغائباً عن قضايا أمته الهامة، لا يفرق بين حديث صحيح وآخر ضعيف، وناشطاً في إيقاد نار الفتنة بين طلاب العلم وكبار السن، وغارقاً في البدع وبعض الشكوكيات، وأجده يتقوّث من كتابة التمايم البدعية والتدليس على الناس، وهذه الحالة المؤلمة والمزرية لا تخدم الأمة، ولا ترفع عنها الغمة، بل تزيد ارتكاساً في الباطل، وبعداً عن جادة الصواب، فعلى أئمة المساجد- وفقهم الله إلى نفع المسلمين- أن يُنمّوا مادتهم العلمية بالمشاورة على قراءة كتب السلف في جميع الفنون، وأن يجتهدوا في مزاحمة العلماء بالركب إذا سنحت لهم الفرصة؛ إذا أرادوا رفع الجهل عن أنفسهم وأبناء أمتهم، وبناء أوطانهم بناء متيناً.

وأصحاب القلم في الصحف والمجلات، ورؤاؤ التآليف وصنّاع الكتابة، لهم وظيفة كبرى، وهامة في تعليم الأمة، وحمايتها من الأفكار الوافدة والبائرة، والآفات السامة، ويجب أن يكونوا سباقين إلى عقول أبناء الأمة، قبل أن تغزى في عُقر دارها، فيصقلونها بأنصع المعارف، وأرقى العلوم، من خلال نشر الكتاب النافع، والشريط العلمي، والمجلة الرزينة، وإنني قد فتشت في وطني الحبيب الجزائر عن مجلة علمية، تُعنى بمآثر السلف في التوحيد والفقه والتربية، وتربط أبناء الأمة بتاريخها المشرق، وتقوم بجمع البحوث العلمية النافعة، وتفتح المجال للعصاميين من طلبة العلم الشرعي لتدوين بحوثهم الهادفة؛ فلم أهتد إلى وجودها⁽¹⁾، في عهد

(1) لقد التقيتُ بالشيخ محمد باي بالعالم القبلي الساهلي التواتي الجزائري في مدينة ورقلة، وهو إمام مسجد وقائم على مدرسة بأولف ولاية أدرار، وتبادلنا الحديث عن جهود علماء جنوب الجزائر في نشر العلم ومقاومة الاستعمار الفرنسي، فأفادني بأسماء عديدة عن مشايخ نبلاء لهم مواقف مشرفة في بثّ السنّة ومقارعة البدعة على قصور عندهم لقلّة معرفتهم بمنهج أهل الحديث، ولشحوح المراجع العلمية، وأطلعني على بعض مؤلفاته بالتعريف بهم، وحينها قلت: لو كان لطلاب العلم مجلةٌ لسهل عليهم جمع جهود هؤلاء العلماء، ونشرها على أبناء الجزائر، ليستفيدوا من مسيرة أسلافهم في نشر العلم =

كثرت فيه وسائل الفساد، وتعددت المجالات التي تبث الخلط والخبث والخرط في أوساط الأمة، والله تعالى المستعان.

ولا أنسى جهد التاجر ورجل الأعمال، إذ المال له نصيبٌ بالغٌ في بناء الأوطان، وعِزّة أهله⁽¹⁾، ونشر الكلمة الطيبة، وذلك بالمساهمة في طبع الكتب النافعة وتوزيعها على الفقراء والمساكين، وبالاكتفاء بطلبة العلم النجباء وتفريغهم للبحث والدراسة والدعوة إلى الله، وبجلب مختلف الصناعات النافعة للوطن، وبناء المساجد والمعاهد على مختلف تخصصاتها، والمدارس لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم السنة، وإنشاء المساحات الخضراء، والحدائق الخلابة، التي تكون نقطة تنفس للمواطن

= ومقاومة الباطل، وبعد ما تفارقنا وقفت للشيخ محمد باي على كلمة ذكرها في مقدمة جزئه، (الغصن الداني في ترجمة وحياة عبد الرحمن بن عمر التتلائي)، فأحببت ذكرها تأييدا لما أنا في صدده، فقال وفقه الله إلى طاعته: (لما كانت معرفة تراجم العلماء الأعلام من أجل المهمات، ومن أنبل الغايات، وكانت الأمة التي تجهل تاريخ أمجادها وعلمائها وأعلامها أمة متأخرة علما وفكرا وثقافة...).

قلت: صدق حفظه الله، فكثير من أبنائنا يجهلون تاريخ أمجاد أمتنا المجيد في جميع شؤون الحياة، ولهذا ذاب بعضهم في حضارة الغرب، وفقد الصنف الآخر كثيرا من مقوماته الإسلامية، وصار همه الأسمى تقليد السفلة من الكفار في الرقص والغناء واللباس، وأرى أن واجب تبصير الأبناء بتراث الأجداد النافع والصحيح يعود إلى القائمين على وزارة الثقافة، والله تعالى يعلم المصلح من المفسد.

كتبت هذه الحاشية قبل أن يقوم بعض إخواننا الأفاضل في الجزائر بإصدار مجلة "الإصلاح" -أسعد الله بها أهل الجزائر، وجعلها للخير أهلا- سالكين بها طريق أهل العلم الكرام في تبصير الأمة بواجبها اتجاه ربّها سبحانه وتعالى، فإلهي أسأل أن يوفق القائمين عليها إلى كلّ خير، وأن يجعلهم في خدمة الإسلام والمسلمين، وأن يكون جهدهم نواة لتوالي المجالات النافعة والمليئة بالعلم والمعرفة، وما ذلك على الله بعزيز.

(1) قال سفيان الثوري إن ضبط الرواية عنه رواد بن الجراح العسقلاني: (كان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن).

بعد أسبوع من الجهد والعمل والمثابرة، وهذه المشاريع قد لمست آثارها الإيجابية حين تواجدي بدولة الإمارات العربية المتحدة، وغيرها من المشاريع الخيرية النافعة والمصرّح بها.

وأما رجال الأمن باختلاف أقسامهم، وتنوع وحداتهم، جواً وبراً وبحراً، فعليهم يُعوّل المجتمع بعد الله تعالى في حفظ الأمن والاستقرار، وازدهار الوطن وبنائه، فهم حُرّاس العقيدة، وحراس الفضيلة، وحماة للوطن من كلّ عابث وحاقد وحاسد، ودرعه ضدّ أهل الباطل، وقاعدته المتينة لبث الأمن والسكينة في أنفس المواطنين؛ فالله الله يا رجال الأمن في أن يُؤتَى الإسلام من قبلكم، فقد عرفنا لكم مواقف عدة؛ تُشكرون عليها، وتسجل في سجلكم الحافل بالإنجازات الكبرى، وقد أخبر النبي ﷺ أن النار لا تمسّ عينا باتت تحرس في سبيل الله.

وأختم قائلاً: الله أسأل أن يحمي وطني الجزائر من جميع الفتن والمحن والإحن، وأن يرزق أهله العلم النافع والحلم والإيمان وراحة البال، إنّه جواد كريم حليم عليم.

ولي وطنٌ لا يرى مثله *** يُقرّ بذلك لي من عرف.

وقد قيل في الأوطان أشعار أذكر منها ما وقفت عليه الآن، وقد ذكر بعضها ابنُ عبد البر في الاستذكار، ومنها ما قال الرماح بن ميادة:

ألا ليت شعري هل أبيت ليلةً *** بحرّة ليلي حيث ربتني أهلي
بلاد بها نيطت عليّ تمائمي *** وقطعن عني حين أدركني عقلي
وقال الآخر:

أحبّ بلاد الله ما بين منيح *** إليّ وسلمى أن تصوب سحابها
بلاد بها حلّ الشباب تمائمي *** وأول أرض مسّ جلدي ترابها.

باب

نِعْمَةُ سلامة الفطرة، ووجوب وقايتها من الأفكار الهدامة، والمذاهب الضالة،
كفكر الخوارج ودعاة الإرهاب على مصطلح العصر، وفكر رواد التغريب وأهل
الشُرور من العلمانيين والشيوعيين.

إنَّ الله تعالى خلق الخلق على الفطرة السليمة، وهي الحنيفية المتضمنة
لكمال حبّه والخضوع له، وكمال طاعته وحده دون غيره، وهذا من الحقّ
الذي خلقت له، كما قال جلّ جلاله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي
فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ أَلَيْسَ أَلَدِيئُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٣٠.

قال الشيخ السّعدي رحمه الله في تفسير آية الروم: (فإنّ جميع أحكام
الشّرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلّهم الميل إليها،
فوضع في قلوبهم محبة الحقّ وإيثار الحقّ، وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج
عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها..).

وأخرج الإمامان؛ البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما إلى أبي
هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال: (كلّ مولود يولد على الفطرة)^(١).

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: (إنّ ربّي
علمني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في هذا اليوم، كلّ مال نحلته عبادي حلال، وإنّي
خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم)^(٢).

(١) راجع شرح ابن قيّم الجوزيّة لهذا الحديث في كتابه شفاء العليل (٢/٧٧٥ تحقيق عمر
الحفيان، ط/البيكان).

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم في صحيحه.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله رادا على المفسدين للفطرة، من أمثال ابن سينا وضربه من الجهمية: (فإن الله تعالى نصب على الحق الأدلة والأعلام الفارقة بين الحق والنور، وبين الباطل والظلام، وجعل فطر عباده مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفتها، ولولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق، لم يكن النظر والاستدلال ولا الخطاب والكلام، كما أنه سبحانه جعل الأبدان مستعدة للاغتذاء بالطعام والشراب، ولولا ذلك لما أمكن تغذيتها وتربيتها، وكما أن في الأبدان قوة تفرق بين الغذاء الملائم والمنافي، ففي القلوب قوة تفرق بين الحق والباطل أعظم من ذلك)⁽¹⁾.

وقال كذلك رحمه الله تعالى: (والله سبحانه تفضل على بني آدم بأمرين؛ هما أصل السعادة: (أحدهما): أن كل مولود يولد على الفطرة، كما في الصحيحين، ولمسلم عن عياض بن حمار مرفوعا: (إني خلقت عبادي حنفاء)، الحديث، فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت محبة لله، تعبد لا تشرك به شيئا، ولكن يفسدها من يزين لها من شياطين الإنس والجن... (الثاني): إن الله تعالى هدى الناس هداية عامة، بما جعل فيهم من العقل، وبما أنزل إليهم من الكتاب، وأرسل إليهم من الرسل...)⁽²⁾.

وقال كذلك رحمه الله: (وفطر العباد مجبولة على محبته، لكن منهم من فسدت فطرته)⁽³⁾.

وقال أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى إتباعه، فإن الحق محبوب في الفطرة، وهو أحب إليها، وأجل فيها، وألذ عندها من الباطل الذي لا حقيقة له، فإن الفطرة لا تحب ذلك)⁽⁴⁾.

(1) درء التعارض (5/62 ط محمد رشاد سالم).

(2) مجموع الفتاوى (8/205).

(3) درء التعارض (6/67).

(4) مجموع الفتاوى (16/338).

إِنَّ الْفِطْرَةَ السَّالِمَةَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ؛ يَزِيدُهَا الشَّرْعُ الْحَكِيمُ تَأْيِيدًا وَقُوَّةً وَثَبَاتًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحِمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هود: ١٧.

قال الإمام ابن كثير في تفسير آية سورة هود: (وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشرعية من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ ﴿بِالْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ الْمَسَائِلَ الْمَهْمَةَ، ودلائلها الظاهرة، فيتيقن تلك البينة،﴾ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ؛ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح...).

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: (ولابد لهذه الفطرة والخلقة -وهي صفة الخلقة- من قوت وغذاء يمدّها بنظير ما فيها مما فُطِرَ عليه علما وعملا؛ ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملّة بالشرعية المنزلة^(١)).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنّه أهلّ أن يُعبد، وإن لم يُرسل إليهم رسولا، ولم ينزل عليهم كتابا، ولو لم يخلق جنة أو نارا، عَلِمُوا أنّه لا شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه، وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك،

(١) مجموع الفتاوى (١٤٦/١٠).

وتكميله، وتفضيله، وزيادته حسنا إلى حسنه، فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا، وتوافقا وظهر أنهما من مشكاة واحدة، فعبدوه وأحبوه ومجّدوه وحمدوه بداعي الفطرة وداعي الشرع وداعي العقل...⁽¹⁾.

أقول وبالله التوفيق بعد نقل كلام أئمة الإسلام في منزلة الفطرة السليمة:

إنّ الواجب على من أراد لنفسه السلامة من كلّ داءٍ وعاهةٍ الحذرُ كلّ الحذر من الأسباب التي تصده عن قبول الحق والانقياد له؛ فإن الحفاظ على نقاوة الفطرة من كل خادش، التي هي الشاهد على البينة التي جاء بها النبي ﷺ مكسبٌ عظيم للمسلم، وعلامةُ فوزه ونجاحه في الدنيا، لأنّ العبد إذا بقي مطبوعا على قصد الحق فإنّه بإذن الله تعالى سيؤثره على غيره من الهواجس البشرية التي لا دليل يدل على صدقها ونفعها للإنسانية.

قال أبو محمد بن حزم رحمه الله: (أفضل نعم الله على العبد أن يطبعه على العدل وحبّه، وعلى الحق وإيثاره)⁽²⁾.

وقال ابنُ قيّم الجوزية رحمه الله: (فإنّ الكمال الإنساني مدارّه على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِذْ هُمْ وَأَسْحَقَ وَيَعْقُوبُ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ ص: ٤٥، فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه)⁽³⁾.

(1) مفتاح دار السعادة (ص 423).

(2) جزء مداواة النفوس (ص 31).

(3) الجواب الكافي (ص 139).

وإنني لاحظت بعد سبر وتأمل أن كثيرا من شبابنا المساكين؛ -الذين كانوا على فطرة سليمة، وطبع قابلٍ لحمل الحق ونصرتة، وهمة عديمة النظير في طلب العلم الشرعي وما يوازيه من الكوني، وتطلع مُشرق لبناء أوطانهم، ورفع الجهل عنها-، حين خالطوا أهل الشُّبهات والهواجس، وسلّموا سمعهم لكل مُتكلم ومدّلس، وأضحوا عاكفين على شرائط الفيديو للأحداث الأفغانية الزائفة والملفقة، والمعارك الشيشانية والخاصة بإقليمهم والآنية، والفتن العراقية الدامية، والمكسوة بلباس الطائفية التتنة، وغدوا من المتصفحين للمجالات الهالكة في طرحها، ومواقع التكفيريين والروافض الأنجاس، والإباحيين الأرجاس على شبكة الإنترنت العالمية، ويسهرون على مطاعة كتب أهل الفكر المنحرف، ككتب سيد قطب المصري⁽¹⁾، وأبي

(1) يقول هذا الرجل غفر الله له، -وهو يُعدُّ رأس الخوارج الجدد ومنظرهم الروحي في العصر الحديث- عن المجتمعات الإسلامية في كتابه ظلال القرآن (4/2122): «إنّه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم، قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقهاء الإسلاميين»، ويقول كذلك: كما في ظلال القرآن (3/1634): «إنّ المسلمين اليوم لا يجاهدون، ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون»، ويقول كذلك: كما في الظلال (4/2009): «إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم»، ويقول كما في كتابه العدالة الاجتماعية (ص:250): «وحيث نستعرض وجه الأرض كله اليوم على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين والإسلام لا نرى لهذا الدين وجوداً، إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن أفراد الله - سبحانه - بالحاكمة في حياة البشر ويجب أن نقرر هذه الحقيقة الأليمة، وأن نجهر بها، وألاً نخشى خيبة الأمل التي تحدثها في قلوب الكثيرين الذين يحبون أن يستيقنوا كيف يكونون مسلمين ف هؤلاء في حقهم أن يستيقنوا كيف يكونون مسلمين». وقال في تفسيره (3/1451)، حاثاً شباب الأمة على الخروج والفتنة: «إنّه لا مندوحة للمسلمين أو أعضاء الحزب الإسلامي عن الشروع في مهمتهم، بإحداث الانقلاب المشهود، والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها»، وقال أيضاً في ظلال القرآن (2/1057): «لقد استدار الزمان كهَيْئَتِهِ يوم جاء هذا الدين إلى البشرية، وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه تنزل القرآن على رسول الله ﷺ...، لقد استدار الزمان كهَيْئَتِهِ =

قتادة الفلسطيني، وأبي بصير الخارجي، وأبي محمد المقدسي الأردني، ومصطفى شكري المصري، وعمر عبد الرحمن المصري، وكتب الشيعة الضلال، وكلّ ثوريٍ ثائر وضيق الصدر على أُمته الضعيفة، والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضاً⁽¹⁾، حتى ولو ظهر لهؤلاء الشباب المساكين من يدّعي النبوة مع اعترافهم بأنّ رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، أو من يدّعي الربوبية لوجدت على ذلك أتباعاً وأشياعاً والله المستعان، ولما أضحى حال الشباب كما عرفت فسد طبعهم، وتغير مزاجهم، وقلصت أنفسهم عن طلب الحق، وتغيرت فطرتهم، وقفت فيهم الغيرة على الأوطان إلا من رحم الرحمن،

= يوم جاء هذا الدين إلى البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله، وإنّ ظل فرق منها يردد على المآذن لا إله إلا الله، دون أن يدرك مدلولها...، البشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات لا إله إلا الله، بلا مدلول ولا واقع... وهؤلاء أثقل إثمًا وأشدّ عذاباً يوم القيامة، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد من بعد ما تبين لهم الهدى، ومن بعد أن كانوا في دين الله). فهل يجوز للمفكرين والجهات الرسمية بعد هذا النقل الموجز أن ينشروا كتب هذا الرجل أو يروجوا لها في المعارض الدولية؟!

(1) قد يقول مُعزّزٌ به مسكين هده الله إلى السّنة: (أنا لا أعتقد صحة ما يصنع الثوار ودعاة الجهاد المزعوم والبدعي في أوطانهم من هرج، إنما أسلّي نفسي بالوقوف على أعمالهم، وحتى لو كنت معهم منغمساً في صفوفهم فإنني لا أشارك في قتلٍ أو ذبح أو تدمير). فإنني أعظ هذا الصنف من النّاس بما أخرج الإمام عبد الرزاق في المصنف (361/11) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة أنّه اجتمع هو ومسلم بن يسار، وكان مسلم خرج مع ابن الأشعث، فذكروا ذلك، فقال مسلم بن يسار: قد خرجت معه فوالله ما سللتُ سيفاً، ولا رميتُ بسهم، ولا طعنتُ برمح، فقال له أبو قلابة: لكن قد رآك رجلٌ واقفاً فقال: هذا مسلم بن يسار واقف للقتال، فرمى بسهمه، وطعن برمحه، وضرب بسيفه، قال: فبكى مسلم، قال أبو قلابة: حتى تمنيت أنّي لم أقل شيئاً! اهـ. قلت: فهلا استفاد أبناؤنا من نصيحة أبي قلابة لمسلم بن يسار، ومن ندم مسلم على صنّعه ووقفته مع سلامة نيته؟.

ولربّما جهل الفتى سُبُل الهدى.....والشمس ساطعة لها أنوار.

وصاروا ولا حول ولا قوة إلا بالله كالشاة العائرة يتململون بين الحق والباطل، وأمسوا بعد ما تلوث فطرهم بفكر دعاة الخروج والعصيان المدني يغمزون في علماء أهل الحديث والأثر بعبارات خفيّة وسامة وجارحة، ويُجهدون أنفسهم كلّ الجُهد في جمع عرْفِج أهل الباطل والأهواء في أهل الحق ليسقطوا هيبتهم، ويشوشون على أنصارهم من طلاب العلم النجباء بالأضمات والأباطيل، بل؛ وكأنّهم حُقِنوا بمصل البغض والحقْد على أهل الحديث والأثر وحُكّامهم المسلمين، وجُنِّدوا لمحاربة كلّ حكيم وعاقل يخاف على ثوابت أُمته أن يُعبث بها، أو أن تصير في أيدي أهل الشُّرور والفتن يوظفونها في خدمة إبليس وأعوانه، والله العاصم من كيد أهل الضلال.

وصدق ابنُ قَيِّم الجوزية رحمه الله حين قال: (إنَّ العبدَ إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله، أكسبه ذلك تحريفا للحقّ عن مواضعه)⁽¹⁾.

ولهذا يجب على شباب الأُمَّة الإسلامية جميعاً أن يتجنّبوا عوامل فساد الفطرة، وأن يبتعدوا عن بُؤر أهل الأهواء من الخوارج والروافض وأذئابهم، وأن يرتووا من العلم الشرعي الصّافي من الشوائب والعلائق، والمغذي للفطرة السليمة، والمأخوذ من مشكاة النبوة على فهم السلف الأخيار، كي يتهدّب سلوكُهم للسّير على طريق العبودية بإذن الله تعالى، ويتضح حالُهم المشرق للموالي والمعادي، وتقوى هممهم لبناء أوطانهم على أساس العلم النافع والعمل الصالح، وأمارّة ذلك التّأدّب بآداب الإسلام، والوقوف مع الحق وتحكيّمه ظاهراً وباطناً، والمسير معه حيث سار بهم ركائبه، والاعتدال والاتزان في الأقوال والأفعال والأحوال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فمتابعة الآثار فيها الاعتدال والائتلاف والتوسط الذي هو أفضل الأمور)⁽²⁾.

(1) إغاثة اللهفان (55/1).

(2) القواعد النورانية (ص49/ط: دار الفتح الشارقة).

وأما والعياذ بالله إذا كان حال الشباب الخلط في التلقي، والتغذي بكل ما يجدونه من خبيث وفساد، والاحتكاك بالملوث والأجرب، فإن الأمر سيؤول بهم إلى فساد الفطرة والحال والطبع، والوقوع في الكدر، والاتصاف بالتلون، وفقدان الصفاء، والغيرة على الوطن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الاقتضاء بعد ما بين خطورة التشبه بالمجرمين في أحوالهم وأعيادهم: (...والشرائع هي غذاء القلوب وقوتها كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ويرويه مرفوعا: (إن كل آدب يحب أن تؤتى مآدبته وإن مآدبة الله هي القرآن) ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من الطعام حاجته استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكله وإن أكل منه إلا بكراهة وتجشم، وربما ضرّه أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهيمته وهيمته إلى المشروع، فإنه تعظم محبته له، ومنفعته به، ويتم دينه، ويكمل إسلامه، ولذا تجد من أكثر سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد⁽¹⁾ ونحوها لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه الاهتمام ونظير هذا كثير⁽²⁾ اهـ.

(1) كما هو حال الرافضة الأنجاس، وبعض الجهلة من غلاة الصوفية.

(2) اقتضاء الصراط المستقيم (1/485 ط الرشد).

قلت: ومن اعتاد سماع دروس دعاة السياسة باسم الإسلام كره دروس أهل الحديث، ومن ألف قراءة كتب أهل الرأي صعب عليه الصبر على دراسة البخاري ومسلم والسنن =

وقال رحمه الله في درء التعارض بعد ما بين أن بيان الرسول ﷺ لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي (فإن الغذاء لا ينفعه - أي المريض - مع وجود الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء...) (1).

وقد حذر السلف الكرام من مجالسة أهل الأهواء والأفكار الهدامة: فقد قال أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي: (لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلونهم، فإنني لا آمن أن يغمسوكم في الضلالة، أو يلبسوا عليكم في الدين بعض ما لبس عليهم) (2).

وعن عمر بن عبد العزيز قال: (من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل) (3).

إنّ اعتياد بعض شبابنا -هداهم الله- على مجالسة أهل الباطل والاحتكاك بهم، -والاختلاط بأصحاب الفكر المنحرف عن الحق على الدوام، مع مجاراتهم على سلوكهم النازل، والخوف من الردّ عليهم لكسب جانب من أتباعهم وأنصارهم، والاعتداد بالنفس ورفعها إلى مقام العصمة والبعد عن التأثير، مع الأخلاط التي تحملها بسبب القرب من أهل الضلال، أضف إلى ذلك خوائها من العلم الشرعي الواقعي من الشبه، مع أن النفوس تتأسى بما تشاهده من أحوال أبناء الجنس كما قال ابن رجب رحمه الله-؛

= الأربعة، ومن أكثر السماع لمشايخ الطرق، ورؤوس أهل الرضا عسر عليه الجلوس في حلقة علمية يدرّس فيها كتاب أصول السنة لابن أبي زمنين المالكي، وهكذا.
(1) درء التعارض (20/1).

(2) إسناده صحيح أخرجه الآجري في الشريعة (1/435 برقم 114)، والدارمي في سننه (برقم 405 تحقيق حسين الداراني)، وابن سعد في الطبقات (9/184 ط/ الخانجي)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (برقم 243)، وغيرهم من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة.

(3) إسناده صحيح أخرجه الآجري في الشريعة (برقم 116) وغيره.

مفسدةٌ جلية لفطرتهم، ومظنةٌ للتلون والكدر، والتنقل من حال إلى حال أسوء منه، والله الحافظ من داء أهل الأهواء.

وَضَعُ صَيَّرَ نظرَهم إلى أمتهم سوداء وقاتمة، وحينها أمسى الشباب والعياذ بالله يعيون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس، وأعينهم تطرف على الأجذاع، لا يُتقنون إلا القدح وإظهار العيوب، وغدا شعارهم هلك الناس.. هلك الناس، بل قد يدخلهم الفكر المنحرف في أمراض نفسية خطيرة يصعب الخروج منها⁽¹⁾، وما نراه في سلوك كثير من الشباب من طيش واضطراب في الأقوال والأفعال والأحوال إلا بسبب مخالطتهم لأصحاب الأفكار الهدامة التي أفسدت فطرتهم وغيرتها، وجعلت على قلوبهم الرّان، والله المستعان والواقي من شرّ أفكار أصحاب الفتن والنيران.

قال العلامة أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي (م386) في مقدمة رسالته العظيمة: (واعلم أنّ خير القلوب: أوعاها للخير، وأرجى القلوب ما لم يسبق الشرّ إليه).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضرّ من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتّى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد)⁽²⁾.

(1) لقد أظهرت الدراسات الحديثة أن كثيرا من الشباب الذين يعانون من انفصام في الشخصية، وأمراض عقلية صاروا صيدا سهلا في أيدي الجماعات الإرهابية على مختلف أطرافها وتوجهاتها وأهدافها، يُوظفونهم في عمليات انتحارية، تحت القاعدة التي تقول: "الخلاص من الدنيا بطريق سهل ومضمون!"، فإله أسأل أن يوفق ولاية أمورنا لإنقاذ هذه الشريحة من أيد دعاة الخروج والتمرد.

(2) مدارج السالكين (489/1).

إنَّ القربَ من أهل الأهواء يحبَّب للمسلم الوقوف على كتبهم، ويزين له العكوف على قراءتها والاعتناء بمادتها المزجاة، وهذه الحالة التعليمية والتربوية تحجب النور عن البصيرة، وتدخل المقدم عليها بحار الحيرة، وتفسد فطرته، وتُمتيت فيه الغيرة على الحق.

قال ابن العطار: قال النووي رحمه الله: (وخطر لي الاشتغال بعلم الطبِّ، فاشتريت القانون لابن سينا، وعزمت على الاشتغال فيه، فأظلم عليَّ قلبي، وبقيت أياما لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت في أمري ومن أين دخل عليَّ الداخل، فألهمني الله تعالى أن سببه اشتغالي بالطب، فبعت في الحال الكتاب المذكور، وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بالطب، فاستنار قلبي، ورجع إلي حالي، وعدت إلى ما كنت عليه أوَّلاً⁽¹⁾).

قلت: هذا حال النووي الفقيه حين قرأ كتب ابن سينا المليئة بالضلال، وعفن الإسماعيلية والقرامطة الباطنية، فكيف يكون حال شبابنا المساكين حين يعكفون على كتب سيد قطب وضربه من المنحرفين، وأشرطة ابن لادن وأيمن الظواهري المصري الضال، وكتب الرافضة، وأشكالهم من المشبوهين؟، فاللهم سلِّم سلِّم.

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله في الرسالة التبوكية: (ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين هم في الناس أموات، فإنهم

(1) انظر المنهل العذب للسخاوي (ص42)، والمنهل السوي للسيوطي (ص35).

قال العلامة الذهبي في التاريخ (232/29): (وقد كان ابن سينا آية في الذكاء، وهو رأس الفلاسفة الإسلاميين الذين مشوا خلف العقول وخالفوا الرسول)، وقال في السير (535/17): (هو رأس الفلسفة الإسلامية لم يأت بعد الفرابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة).

يقطعون عليه طريقه، فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة، وأوفق له من هذه المفارقة⁽¹⁾.

وأختم هذا الباب الموجز الذي حاولت فيه بيان منزلة سلامة الفطرة من الأخلاط في الإسلام، وأنها الشاهد على الحق الذي جاء به سيد المرسلين ﷺ بدعاء المصطفى ﷺ الذي في صحيح مسلم: (اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر).

والله تعالى يعلم المصلح من المفسد.

(1) الرسالة التبوكية (ص 86).

باب :

عِظَم دَمِ الْمُسْلِمِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَحَرْمَةُ إِرَاقَتِهِ بِالْبَاطِلِ ، وَعَصْمَةُ دِمَاءِ الْمَعَاهِدِينَ
وَالْمُسْتَأْمِنِينَ⁽¹⁾.

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ وَعَاقِلٍ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا قَرَّرَهُ
الإسلام وأكَّده: حفظ الأنفس، والنهي عن إزهاقها بغير حق ثابت.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾
الإسراء:33.

وجعل جلّ وعلا من ضروب الفساد في الأرض إهلاك الحرث
والنسل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ البقرة: ٢٠٥.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا
خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ٩٢.

(1) انظر صحيح الترغيب والترهيب للعلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى
(628/2 ط: مكتبة المعارف)، ولم نذكر بعض النصوص أوردها المنذري وصححها
الألباني رحمه الله، لأنها ليست على شرطنا.

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره: (هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن؛ أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مُناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضياتها محبته وموالاته وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟، وهذا يصدقه قوله ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله) اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٩٣.

وقضى الله تعالى أن من قتل نفساً واحدة بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً، فكيف يكون حال من كان سبباً في هلاك قري وأهل بيوت بأكملها؟.

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَلِّتُنِي أُعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ المائدة: ٢٧ - ٣٢.

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه أولٌ من سنّ القتل)⁽¹⁾.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها، وصلّوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله)⁽²⁾.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كلُّ ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يقتل المؤمن متعمداً، أو الرجل يموت كافراً)⁽³⁾.

وله شاهد أخرجه الإمام أبو داود (برقم 4269 ط/عوامة) من طريق مؤمل بن الفضل الحراني، حدثنا محمد بن شعيب عن خالد بن دهقان قال: كنا في غزوة في القسطنطينية بذُلُقِيّة، فأقبل رجل من أهل فلسطين من أشرفهم وخيارهم، يعرفون ذلك له، يقال له: هانئ بن كلثوم بن شريك

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 3335).

(2) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 392) من طريق ابن المبارك، عن حميد الطويل، عن أنس به.

(3) صحيح لغيره: أخرجه الإمام النسائي في الكبرى (برقم 3432)، وفي المجتبى (93/7) برقم 3955، والإمام أحمد في المسند (99/4)، والمزّي في تهذيب الكمال (155/34) من طريق أحمد، والحاكم (351/4)، من طريق صفوان بن عيسى، قال أخبرنا ثور بن يزيد، عن أبي عون، عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية -وكان قليل الحديث عن رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: به.

قلت: أبو عون؛ هو الأنصاري الشامي الأعور روى عنه جمع، وذكره ابن حبان في الثقات، ووثقه العجلي، وباقي رجاله ثقات.

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (856/19-857-858)، وفي مسند الشاميين (برقم 1892) من طريق أبي عون به.

الكناني، فسَلَّم على عبد الله بن أبي زكريا، وكان يعرف له حقّه، قال لنا خالد: وحدثنا عبد الله بن أبي زكريا قال: سمعت أم الدرداء تقول: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كُلّ ذنب عسى الله أن يغفره، إلا من مات مشركا، أو قتل مؤمنا متعمدا)⁽¹⁾.

فقال هانئ بن كَثُوم: سمعت محمد بن الربيع يحدث عن عبادة بن الصامت، أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا فَاغْتَبَطَ بِقَتْلِهِ، لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)⁽²⁾.

-
- (1) وأخرجه ابن حبان (318/13 برقم 5980) من طريق هشام بن عمار، قال: حدثنا صدقة بن خالد، قال: حدثنا خالد بن دهقان، قال: حدثنا عبد الله بن أبي زكريا به. وأخرجه الحاكم في المستدرک (351/4)، والبيهقي (21/8) من طريقين عن محمد بن المبارك الدمشقي، عن صدقة بن خالد، عن خالد بن دهقان به. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. انظر للفائدة الفقهية الصحيحة (برقم 511).
- (2) صحيح: أخرجه أبو داود (برقم 4269 ط/عوامة) وغيره، انظر صحيح الجامع (برقم: 6454).

وأخرج الإمام أبو داود (برقم 4270) عن عبد الرحمن بن عمرو الدمشقي، عن محمد بن المبارك، أخبرنا صدقة بن خالد، أو غيره قال: قال خالد بن دهقان: سألت يحيى بن يحيى العَسَّاني عن قوله: "فاغتبط بقتله" قال: (الذين يقتلون في الفتنة، فيقتل أحدهم فيرى أنه على هدى لا يستغفر الله! يعني من ذلك).

فاغتبط بالغين المعجزة وهي من الغبطة والسرور والفرح، لأن القاتل يفرح بقتل خصمه، فإذا كان المقتول مؤمنا وسُرَّ بقتله -كما هو حال كثير من الجماعات الإسلامية القتالية، حيث يأمر القاتل منهم المرتد على منهجهم الفاسد بالنطق بالشهادتين! وبلهجة أهل الجزائر "شهد على نفسك" ثم يقتله بعد ذلك والعياذ بالله من سخطه وغضبه- فإذا كان الحال كما وصفت كان القاتل داخلا في الوعيد الوارد في نص الحديث، وأن الله تعالى لا يقبل منه نفلا ولا فرضا، ولا جهادا، فكيف يطمع من هذه مكانته عند الله أن يقيم دولة وحضارة تهيمن على الأمم القائمة، وتعيد للمسلمين كرامتهم؟! الله أسأل أن يعصمنا من الضلال وسوء الخاتمة.

=

ومن طريق محمد بن شعيب قال: قال لنا خالد -وهو بن دهقان-: ثم حدثنا ابن أبي زكرياء، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يزال المؤمن مُعْتَقًا صَالِحًا ما لم يُصَب دما حراما، فإذا أصاب دما حراما بَلَّح).

ومعنى مُعْتَقًا: أي خفيف الظهر من التبعية، سريع المشي، مسرع في طاعته، ومنبسط في عمله.

ومعنى بَلَّح: انقطع عن السير من شدة الإعياء، يريد وقوعه في الهلاك بإصابة الدم الحرام، وهكذا حال من يزعمون الجهاد في ديار المسلمين، فقد انقطع بهم السير، صاروا يتربصون مكانهم، على ما اقترفوه في حق أنفسهم من شر، وما جروه إلى المسلمين من بلاء وشدة وضيق.

فائدة وتوضيح لا بد منه:

وأما قوله ﷺ (كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا الرَّجُلُ يَقْتُلَ الْمُؤْمِنَ مَتَعَمَدًا) فقد أجاب عنه العلماء بأجوبة، منها:

أنه محمول على من فعل ذلك مستحلاً له بلا تأويل، مع علمه بتحريمه، فإنه يصير باستحلاله لما حرمه الله كافرًا، والكافر مخلد في النار بلا ريب.

ومنها: أنه ورد مورد الزجر والتغليظ، وحقيقته غير مرادة.

ولكن هذا كما يقول أبو عبيد القاسم بن سلام: (من أقطع ما تُؤَوَّل على رسول الله ﷺ وأصحابه، أن جعلوا الخبر عن الله وعن دينه وعيِّداً لا

= وأما اعتبط بالمهملة فقال الإمام أبو داود كما في نسخة عون المعبود (276/11) ونسخة مختصر المنذري (152/6): (فاعتبط؛ يضْبُ دَمُهُ صَبًا).

قلت: كما هو الحال في العراق الجريح، فإن دماء الأبرياء التي أزهقت بالباطل، وتحت مظلة الديمقراطية وتحرير الإنسان أوشكت أن تغير لون مياه الفرات!

حقيقة له، وهذا يؤول إلى إبطال العقاب، لأنه إن أمكن ذلك في واحد منها كان ممكناً في العقوبات كلها⁽¹⁾.

ومنها: أنه يستحق هذا الجزاء لشناعة جرمه، وهذا جزاؤه لو أراد الله أن يجازيه بما يكافئ جرمه، ولكنه تكرم على عباده الموحدين، فأخبر أنهم يخرجون من النار بتوحيدهم، وأنه لا يُخلد في النار من مات موحداً.

وقد رجّح ابن حجر هذا الجواب الأخير، فقال: (وأولى ما حمل عليه هذا الحديث ونحوه من أحاديث الوعيد، أن المعنى المذكور جزاء من فعل ذلك، إلا أن يتجاوز الله تعالى عنه)⁽²⁾.

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء: ١١٦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٤٨ فيبين أن ما دون الشرك من الكبائر، ومنها القتل بغير حق، لا يخلد صاحبه في النار، بل هو تحت مشيئة الله تعالى، فإن شاء غفر له، وإن شاء عذبه ثم يكون مآله إلى الجنة، ويؤيده حديث عبادة بن الصامت، فإن النبي ﷺ بعد أن بايعهم على ترك القتل والزنا وغيرهما قال: (فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه)⁽³⁾.

ويؤيده قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم أكمل المائة، ولما هاجر إلى القرية الصالحة، أدركه الموت بين القريتين فقبضته ملائكة الرحمة، والقصة في الصحيحين.

(1) الإيمان لأبي عبيد بتحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله (ص 88).

(2) فتح الباري (10 / 248).

(3) أخرجه الإمام البخاري (برقم 6873) والإمام مسلم (برقم 1709) واللفظ لمسلم.

وهذا ما رجحه ابن قَيِّم الجوزية أيضًا، حيث أورد أقوال العلماء في المسألة ثم قال: (وقالت فرقة سابعة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر، فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سببٌ للعقوبة ومقتضى لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين)⁽¹⁾.

وعن جابر رضي الله عنه قال: لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه، فاجتوا المدينة فمرض، فجزع، فأخذ مشاقص له فقطع بها براحمه فشخت يده حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه، فرآه وهيئته حسنة، ورآه مغطيًا يديه، فقال له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ فقال: مالي أراك مغطيًا يديك؟ قال: قيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت.

فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ (اللهم وليديه فاغفر)⁽²⁾.

وهذا الحديث يدل على تحريم قتل الإنسان نفسه، وعظم عقوبته في الآخرة، كما يدل على أن من قتل نفسه غير مستحل لذلك، فإنه لا يعد كافرًا، ولذلك بَوَّب عليه النووي بقوله: (باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر)، ثم قال في شرح الحديث: (فيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة: أن

(1) مدارج السالكين (396/1-397)، انظر نحوه شرح النووي على صحيح مسلم (83/17)، 159/18.

(2) رواه مسلم (برقم 116) من طريق حجاج الصواف، عن أبي زبير، عن جابر به.

من قتل نفسه، أو ارتكب معصية غيرها، ومات من غير توبة، فليس بكافر، ولا يقطع له بالنار، بل هو في حكم المشيئة.. وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليد قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار⁽¹⁾.

وبعد هذا التوضيح الموجز أعود إلى سرد النصوص التي تحرم إزهاق دم المسلم بغير حق فأقول:

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده، لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا)⁽²⁾.

وعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى به بين الناس في الدماء)⁽³⁾.

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: (هذا تعظيم لأمر الدماء، فإن البداءة تكون بالأهم فالأهم، وهي حقيقة بذلك، فإن الذنوب تعظم بحسب عظم المفسدة الواقعة بها، أو بحسب فوات المصالح المتعلقة بعدمها، وهدم البنية الإنسانية من أعظم المفسدات، ولا ينبغي أن يكون بعد الكفر بالله تعالى أعظم منه)⁽⁴⁾.

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: (يجيء الرجل آخذا بيد الرجل، فيقول: يا رب هذا قتلني، فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي، ويجيء الرجل آخذا بيد الرجل، فيقول: إن هذا

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (131/2 - 132).

(2) صحيح أخرجه النسائي في الكبرى (برقم 3435)، والترمذي في جامعه (برقم 1395).

(3) أخرجه الإمام البخاري (برقم 6533)، ومسلم (برقم 1678).

(4) شرح عمدة الأحكام (274/4).

قتلني، فيقول الله له: لِمَ قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لفلان، فيقول: فإنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه⁽¹⁾.

وعن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن لقي الله لا يشرك به شيئاً، ولم يتندّ بدم حرام؛ دخل الجنة)⁽²⁾.

(1) صحيح: أخرجه النسائي في الكبرى (برقم: 3446)، انظر الصحيحة للعلامة الألباني رحمه الله (برقم 2698).

(2) أخرجه ابن ماجه (برقم 2618)، والإمام أحمد (4/152)، والحاكم (4/351) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الرحمن بن عائذ عن عقبة الجهني به. قال البوصيري: (هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عائذ الأزدي سمعه من عقبة بن عامر، فقد قيل: إن روايته عنه مرسلة). قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في الصحيحة (6/1020): (كذا قال، وما علمتُ ذكر ذلك أحدٌ قبله). قلت والله تعالى أعلم: لقد سبق البوصيري حافظان إلى ذكر الوساطة بين عبد الرحمن بن عائذ وعقبة.

قال الإمام البخاري في التاريخ الكبير (5/324 برقم 1029): (...وروى ابن أبي خالد عن عبد الرحمن بن عائذ عن رجل عن عقبة بن عامر...).

وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (5/270 برقم 1278): (عبد الرحمن بن عائذ الأزدي الكندي، ويقال الثمالي، كنيته أبو عبد الله، روى عن النبي ﷺ مرسلًا، ولا صحبة له، هو من التابعين، روى عن عمر مرسلًا، وعن علي مرسلًا، وعن غضيف ابن الحارث، وروى عن رجل عن عقبة بن عامر...).

فقول العلامة الألباني رحمه الله أن الأمر التبس على البوصيري فجعل معاذ بن جبل بدل عقبة بعيد. والناظر في أمر ابن عائذ وعقبة رضي الله عنه لا يستبعد السماع، فعبد الرحمن بن عائذ قديم المولد، ولعله ولد في حياة النبي ﷺ، ولذلك عده بعض أهل العلم من الصحابة، وهو من علماء الشام الكبار.

روى ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (5/270) بإسناده إلى يحيى بن جابر قال: وكان عبد الرحمن بن عائذ من حملة العلم يطلبه من أصحاب النبي ﷺ، وأصحاب أصحابه).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : (لن يزال المؤمنُ في فسحة من دينه، ما لم يصب دما حراماً)⁽¹⁾.

وعن إسحاق بن سعيد قال: سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمر قال: (إن من ورطات الأمور، التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها، سفك الدّم الحرام بغير حلّه)⁽²⁾.

وعن واقد بن محمد قال: سمعت أبي قال: قال عبد الله [أي ابن عمر]: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: (ألا، أي شهر تعلمونه أعظم حرمة)، قالوا: ألا شهرنا هذا، قال: (ألا، أي بلد تعلمونه أعظم حرمة) قالوا: بلدنا هذا، قال: (ألا، أي يوم تعلمونه أعظم حرمة)، قالوا: ألا يومنا هذا، قال: (فإن الله تبارك وتعالى قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت)، ثلاثاً،

= وأما عقبة بن عامر فقد نزل الشام، وشهد صفين مع معاوية، وتولى له، وبقي حياً إلى أواخر خلافة معاوية إذ توفي رضي الله عنه سنة (58هـ).

وتابع وكيعاً يزيد بن هارون، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده (148/4) من طريق يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الرحمن، رجل من أهل الشام قال: انطلق عقبة بن عامر الجهني إلى المسجد الأقصى، ليصلي فيه، فاتّبعه ناس، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: ضحبتك رسول الله ﷺ، أحببنا أن نسير معك ونسلم عليك، قال: انزلوا فصلوا، فزلوا فصلوا وصلوا معه، فقال حين سلم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ليس من عبد يلقي الله لا يشرك به شيئاً، لم يتندّ بدم حرام، إلا دخل الجنة من أي أبواب الجنة شاء)، وله شاهد أخرجه الطبراني في الكبير (برقم 11192) إلى ابن عباس مرفوعاً: (من لقي الله لا يشرك به شيئاً، ولا يقتل نفساً، لقي الله وهو خفيف الظهر)، وإسناده ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة.

(1) أخرجه الإمام البخاري رحمه الله (برقم 6862).

(2) صحيح البخاري (برقم 6863).

كُلّ ذلك يجيئونه: ألا، نعم، قال: (ويحكم، أو ويلكم، لا تَرْجُئْ بعدي كفّاراً، يضربُ بعضكم رقاب بعض)⁽¹⁾.

وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قتل معاهداً في غير كنهه، حرم الله عليه الجنة)⁽²⁾.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في الداء والدواء: (هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان في عهده وأمانه؛ فكيف عقوبة قاتل عبده المؤمن؟ وإذا كانت المرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً، فرآها النبي ﷺ في النار والهرة تخذشها في وجهها وصدرها، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم)⁽³⁾.

وقال جندب بن عبد الله رضي الله: (إنّ أول ما يَنْتِن من الإنسان بطنه، وفمن استطاع أن لا يأكل إلاّ طيباً فليُفعل، ومن استطاع أن لا يحال بينه وبين الجنة بملء كفه من دم أهرأقه فليُفعل)⁽⁴⁾.

قال الحافظ في الفتح بعد أن ذكر له طريقاً مرفوعاً عند الطبراني: (وهذا لو لم يرد مصرّحاً برفعه لكان في حكم المرفوع، لأنّه لا يقال بالرأي، هو وعيد شديد لقتل المسلم بغير حق)⁽⁵⁾.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الأصل أنّ دم الآدمي معصوم، لا يقتل إلاّ بالحق، وليس القتلُ للكفر من الأمر الذي اتفقت عليه الشرائع)⁽⁶⁾.

(1) أخرجه البخاري (برقم 6785)، ومسلم (برقم 66 مختصراً).

(2) صحيح: أخرجه أبو داود، انظر صحيح الجامع (برقم: 6456).

(3) الداء والدواء (ص 229 تحقيق: علي الحلبي).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه (برقم 7152) من طريق الجريري، عن طريف أبي تيمية قال:

شهدت صفوان وجندبا وأصحابه وهو يوصيهم به.

(5) الفتح (162/13 ط: دار الفحاء)، انظر مختصر البخاري (286/4) للألباني.

(6) الضارم المسلول (210/1).

وقال كذلك رحمه الله: (وقتل الأدمي من أكبر الكبائر بعد الكفر، فلا يباح قتله إلا لمصلحة راجحة، وهو أن يُدفع بقتله شرٌ أعظم من قتله، فإذا لم يكن في وجود هذا الشر لم يكن قتله، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا يَغْيَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ المائدة: ٣٢، فلم يباح القتل إلا قوداً، أو لفساد البغاة وسعيهم في الأرض بالفساد، مثل: فتنة المسلم عن دينه، وقطع الطريق، وأما ذنبه الذي يختص به ولا يتعدى ضرره إلى غيره؛ فهذا لا يُسمى فساداً^(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (..أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتي هي أحسن، وليس هو داخلاً فيمن أمر الله بقتاله)^(٢).

وقال كذلك رحمه الله: (لا يجوز قتله -المستأمن- بمجرد الكفر، فإن الأمان يعصم دم الحربي ويصير مستأمناً)^(٣).

إن سياسة الإسلام الحربية^(٤)، وتشريعاته الجهادية وحضارته الإنسانية مخالفة لما عليه أعداء الدين من الكفار، والفرق الضالة من الخوارج والتكفيريين، فهي سياسة شعارها ودثارها السلم والمسالمة، كما هو موضح في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ على فهم أهل الحديث الأبرار، وإذا حاربت فللدفاع عن نفسها أو عن دعوتها حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين

(١) قاعدة مختصرة في قتال الكفار (ص 204).

(٢) الجواب الصحيح (219/2 ط/ دار العاصمة).

(٣) الضارم المسلول (182/2).

(٤) انظر مقدمة كتاب قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم وتحريم قتلهم لمجرد الكفر لشيخ الإسلام بتقديم الدكتور عبد العزيز بن عبد الله آل الحمد (ص 9-10) مع شيء من التصرف.

كله لله، فهي لا تقاتل إلا المقاتل، فلا تقاتل من لم يقاتل من الشيوخ، والرهبان والأجراء، والنساء، والصبيان، ونحوهم ممن لم ينصب نفسه للقتال⁽¹⁾.

(1) قلت: قد يتمسك التكفيريون وزعماء الجهاد البدعي على تقعيد الخوارج والمعتزلة بحديث الصعب بن جثامة في قتل الصبيان والنسوان دون فهم له وفقه، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه (برقم 3012)، ومسلم في صحيحه (برقم 1745) من طريق الزهري عن عبيد الله، عن عبد الله بن عباس، عن المصعب بن جثامة قال: سئل النبي ﷺ عن الذراري من المشركين؟ يبيتون فيصيبون من نسائهم وذرائعهم فقال ﷺ: (هم منهم). قال الحافظ في شرح حديث بن جثامة: (...وقال مالك والأوزاعي: لا يجوز قتل النساء والصبيان بحال حتى لو تترس أهل الحرب بالنساء والصبيان، أو تحصنوا بحصن أو سفينة، وجعلوا معهم النساء والصبيان لم يجز رميهم ولا تحريقهم). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم (ص 104): (وهذا لا يناقض نهية عن قتل النساء والصبيان، فإن هذا إذا أصيبوا بغير تعمّد لهم، وذاك إذا تعمّدوا، فإنهم ليسوا كصبيان المسلمين وذريّتهم، ولا كأهل العهد، فإنّ لهؤلاء عصمة مضمونة ومؤمنة بالآيمان والأمان، ونساء أهل الحرب وصبيانهم ليس لهم عصمة مضمونة، ولكن لا يحل قتلهم عمداً، إذا كانوا ليسوا من أهل القتال. وإذا قتلوا في الحصار والبيات، فليس على المسلمين أن يدعوا ما أمروا به من الجهاد لئلا يُصاب مثل هؤلاء). قال الدكتور عبد العزيز آل حمد محقق كتاب (قاعدة مختصرة) في تعليقه على كلام شيخ الإسلام السابق: «كلام النبي ﷺ»، وكلام شيخ الإسلام هنا ينصبّ فيما لو حاصر المسلمون الكفار فقط في حالة الحرب، أما أن يُقاس كلاهما ويُحمّل على تجويز شنّ الحرب على معسكر المسلمين في بلاد المسلمين، واستحلال الخروج على إمام المسلمين، وكذلك استهداف المباني المدنية، أو السكنية، أو التجارية، مما يكون فيها جملة من المسلمين أو بعضهم، أو فيها جملة من المعاهدين - ممن لم يثبت له قتال بيد أو لسان - وتشبيه ذلك بمسألة التترس؛ فهذا من القياس الفاسد، والرأي الكاسد، ومن الضلال المبين الذي يعلمه كل منصف متبع للحق، قال ابن عبد البر بعد أن ورد هذا الحديث في كتابه الاستذكار (25/5): (حديث الصعب بن جثامة وما كان مثله من التبيت والغارة، فليس فيه ذكر مسلم يتترس به، وقول مالك أصح ما قيل في ذلك، لتحريم دم المسلم تحريماً مطلقاً لم يخص به موضعاً من موضع).

قلت: وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه (برقم 3022-4038) من طريق يحيى بن أبي زائدة، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: (بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجلاً من الأنصار (وفي رواية: عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عتبة في ناس معهم)، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه -وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم- فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلقٌ ومتلطفٌ للبواب، لعلني أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجةً، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، [فكمنتُ في مربوط حمارٍ عند باب الحصن]، فلما دخل الناس؛ أغلق الباب، [ثم إنهم فقدوا حماراً لهم، فخرجوا بقبس يطلبونه، فخرجتُ فيمن خرج، أريهم أنني اطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا، ودخلتُ، وأغلقوا باب الحصن ليلاً]، ثم علّق الأغاليق (وفي رواية: المفاتيح)، على وتِد (وفي رواية: في كوة حيث أراها، فلما ناموا)؛ قال: فقمْتُ إلى الأقاليم (وفي رواية: المفاتيح)، فأخذتها، ففتحت الباب، [قال: قلت: إن نذَرَ بي القوم؛ انطلقت على مهل]، وكان أبو رافع يُسمّرُ عنده، وكان في علائي له، فلما ذهب عنه أهلُ سمره (وفي رواية: فتعشوا عند أبي رافع، وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة)؛ صعدتُ إليه [في سُلّم]، فجعلتُ كلما فتحتُ باباً أغلقتُ عليّ من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي؛ لم يخلصوا إليّ حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مُظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت؟ فقلت: أبا رافع! فقال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكنث غير بعيد، ثم دخلتُ إليه [كأني مغيث]، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟! [وغيرتُ صوتي] فقال: [مالك] لأمالك الويل! [قلت: ما شأنك؟ قال: لا أدري من دخل عليّ؟] إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثختته، ولم أقتله، [فصاح، وقام أهله، قال: ثم جئت، وغيرتُ صوتي كهيئة مغيث، فإذا هو مستلق على ظهره]، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه، حتى أخذ في ظهره (وفي رواية: قرع، (وفي أخرى: سمعت صوت) العظم) فعرفت أنني قتلتته.... انظر مختصر صحيح الإمام العلامة البخاري، للعلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني (59/3 كتاب المغازي برقم 1712).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (6/188 حديث رقم 3022): (...وإنما ناداه ليتحقق أنه هو، لئلا يقتل غيره ممن لا غرض له إذ ذاك في قتله....).

قارن أيها القارئ الكريم بين صنيع الصحابة في إنجاز مهمة نبوية دقيقة، لا يتعدى ضررها إلى من لا يحق قتله، وبين صنيع المغرر بهم الذين ينطلقون في مهمة بدعية شيطانية فيسحقون ويمحقون ويقتلون كل من جاء في سيرهم ولو كان من أتقى الناس لله وأخشاهم له. تنبيه هام:

قال تعالى ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الفتح: ٢٥.

قال العلامة القرطبي في تفسيره لهذه الآية بعد ما بين قول مالك في منع رمي الكفار إذا كانوا مترسين بالمسلمين: (قلت: قد يجوز الترس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعية، فمعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس، ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة، ومعنى كونها قطعية: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً، قال علماؤنا: وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها، لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً، فإما بأيدي العدو فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدو على كل المسلمين، وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون، ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه، لأنه تلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كعدم، والله أعلم) اهـ.

وأنا أسأل المغرر بهم الذين يفجرون أنفسهم في وسط المسلمين في الجزائر الحبيبة: أين المصلحة الضرورية الكلية القطعية في صنيعكم حين تقدمون على قطع أشلاء المسلمين إربا إرباً؟ وأين النصر الذي عاد على الإسلام والمسلمين في الجزائر والمغرب العربي، أو غيرها من الأقاليم الإسلامية من جراء أحزمتهم الناسفة وسيارتهم المفخخة؟ اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

وهي سياسة لا تقوم على الإفساد في الأرض، والإبادة الجماعية، والتفجيرات العشوائية، فلا تهدم مسكننا، ولا تدمر عمراننا، ولا تقطع شجرة، ولا تحرق بيتا إلا لمصلحة راجحة يراها حاكم البلاد المسلم الذي له الأمر والنهي.

وهي سياسة تقوم على النظر في جلب المصالح ودرء المفاسد، وعلى النظر في حال المسلمين من قُوة وضعف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها)⁽¹⁾.

وعن عبد الله بن عباس؛ أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله، إننا كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال ﷺ: (إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم)، فلما حوّل الله إلى المدينة أمر بالقتال فكفّوا فأنزل الله عزّ وجل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾⁽²⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف؛ فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)⁽³⁾.

إن سياسة الإسلام الحكيمة مبنية على المشورة وبعد النظر⁽⁴⁾، وبعيدة

(1) مجموع الفتاوى (265/1).

(2) صحيح الإسناد أخرجه الإمام النسائي في الكبرى (برقم 4279-11047) من طريق الحسين بن واقد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة به.

(3) الصارم المسلول (413/2).

(4) انظر الأوسط لابن المنذر (308/11).

عن التهور والنهابر، والتعرض لأعداء الدين بالمبارزة في حال هي أحوج ما تكون إلى علاج قضاياها الشائكة والمتشابكة، وترميم البيت من الداخل، ومن هذا المبدأ فإنه لا يجوز لأي جهةٍ مُقاومةٍ لليهود أو غيرهم من الكفار المقاتلين؛ -شيعية رافضية كانت المُقاومة أو سنية طاهرة- الانفراد بالقرار في مبارزة العدو تحت أي غطاء كان، إلا بعد مشاورة حاكم البلاد، والجهات التي لها علاقة مباشرة بالقضية، وإلا تفلتت الأمور من أيدي المسلمين، وأضحت المقاومة محنة للدول الإسلامية.

قال تعالى في سورة النور [62]: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾

قال العلامة القرطبي رحمه الله في جامعه: (واختلف في الأمر الجامع ما هو؛ فقيل: المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سنة في الدين، أو لترهيب عدوً باجتماعهم للحروب؛ قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩، فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور في ذلك، والإمام الذي يُترقّب إذنه هو إمام الإمرة، فلا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، فإن ذهب بإذنه ارتفع عنه الظن السيئ).

ثم ذكر رحمه الله أقوالاً أخرى في معنى الآية منها: طلب إذن الخطيب يوم الجمعة لأجل الانصراف، ثم قال رحمه الله:

(والصحيح الأول لتناوله جميع الأقوال، واختار ابن العربي ما ذكره في نزول الآية عن مالك وابن إسحاق، أن ذلك مخصوص بالحرب، قال: والذي يُبين ذلك أمران:

أحدهما: قوله في الآية الأخرى ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾، وذلك أن المنافقين كانوا يتلوذون ويخرجون عن الجماعة ويتركون رسول الله ﷺ، فأمر الله جميعهم بألا يخرج أحد منهم حتى يأذن له رسول الله ﷺ، وبذلك يتبين إيمانه.

الثاني: قوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾؛ وأي إذن في الحديث والإمام يخطب، وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه، وقد قال: ﴿فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؛ فبين بذلك أنه مخصص بالحرب⁽¹⁾.

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: (وإن كان أمرا قد تنازع فيه المسلمون، فينبغي أن يستخرج من كل منهم رأيه ووجه رأيه، فأى الآراء كان أشبه بكتاب الله وسنة رسوله عمل به، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾).

وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء، وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس، فعلى كل منهما أن يتحرى بما يقوله ويفعله طاعة الله ورسوله، واتباع كتاب الله، ومتى أمكن في الحوادث المشككة معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب؛ وإن لم يكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضي علمه ودينه، هذا أقوى الأقوال⁽²⁾ اهـ.

(1) الجامع لأحكام القرآن (294/12 ط: دار الكتب العلمية).

(2) (387/28-388).

وقال الشيخ العلامة السعدي في تفسير آية آل عمران: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره: منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

منها: أن فيها تسميحا لخواطبرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقل.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ أولم يتم له مطلوب فليس بملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلا وأغزرهم علما وأفضلهم رأيا ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، فكيف بغيره؟ ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾؛ أي على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: اعتمد على حول الله وقوته متبرئا من حولك وقوتك، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾؛ عليه، اللاجئين إليه) اهـ.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: (الغزو غزوان: فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، واجتنب

الفساد، كان نوؤه ونبؤه كله أجر، وأما من غزا فخرا ورياء وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض، فإنه لم يرجع بالكفاف⁽¹⁾.

وقد روى الإمام مالك الحديث في موطنه⁽²⁾ كتاب الجهاد موقوفا على معاذ، وهو أشبه إن شاء الله.

قال العلامة حافظ المغرب أبو عمر يوسف بن عبد البر في الاستذكار: (هذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ بإسناد حسن، [ثم ذكره بسنده إلى النبي ﷺ]، وقال في شرحه: [وأما طاعة الإمام فواجبة في كل ما يأمر به، إلا أن تكون معصية بيّنة لا شك فيها، ولا ينبغي أن يبارز العدو، ولا يخرج في سارية عن عسكره إلا بإذنه]⁽³⁾).

وجاء في المسائل التي حلف عليها الإمام أحمد، والتي قام بجمعها أبو الحسين بن القاضي أبي يعلى في جزء مفرد قامت بطبعه دار العاصمة (برقم 3): (وسئل (أي الإمام أحمد) يكون الرجل في الجهاد بين الصنفين؛ يبارز علجا بغير إذن الإمام؟ فقال: لا والله).

قال صاحب مختصر (زاد المستقنع) موسى بن أحمد بن موسى الحجاوي المقدسي (م 968 هـ): (ولا يجوز الغزو إلا بإذنه إلا أن يفجأهم عدو يخافون كلبه).

(1) رواه الإمام أحمد (234/5)، وأبو داود (برقم 2515)، والنسائي في الكبرى (برقم 8730)، وفي المجتبى (49/6 - 155/7)، والطبراني في الكبير (91/20)، وفي مسند الشاميين (برقم 1159)، والبيهقي (168/9)، وابن أبي عاصم في الجهاد (برقم 133)، وأبو نعيم في الحلية (220/5) وقال عنه: "غريب من حديث خالد، عن أبي بحرية"، وحسنه العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في الصحيحة (برقم 1990).

(2) الموطأ (366/2) رقم 997.

(3) الاستذكار (298/5 - 299) رقم 1221 ط: مؤسسة النداء.

وقال الزركشي: (لا يجوز الخروج إلى العدو إلا بإذن الأمير، إذ أمرُ الحربِ موكولٌ إليه، وهو أعلم بكثرة العدو وقلته ومكانه، فاتبع رأيه في ذلك، إلا أن يتعذر استئذانه كطلوع عدو غالب عليهم بغتة، ويخافون شره إن استأذنه، فإنَّ إذنه إذا يسقط ارتكاباً في المفسدتين لدفع أعلاهما)⁽¹⁾.

وقال العلامة محمد بن صالح العثيمين في الشرح الممتع (25/8): (أي: لا يجوز غزو الجيش إلا بإذن الإمام مهما كان الأمر، لأن المخاطب بالغزو والجهاد هم ولأهـ الأمور⁽²⁾)، وليس أفراد الناس، فأفراد الناس تبع

(1) شرح الزركشي على متن الخرقى (450/6).

(2) ربما يتفلسف خارجي ويقول: إنَّ الإذن في محاربة الكفار يؤخذ من الإمام العام، والذي هو مفقود اليوم، ونحن لا نقر بشرعية الحكام القائمين على تسيير شؤون دولهم، ولا نرى لهم سلطة على المسلمين، ولهذا ما نقوم به من باب الاضطرار لمحاربة أعداء الله حتى يرزقنا الله الإمام الأعظم!

الجواب: إنَّ الذي عليه المحققون من أهل السنة والجماعة؛ أهل الحديث والأثر أنه يجب على الشُّعوب الإسلامية أن تقر ببيعة الحاكم المسلم الذي له الأمر والنهي في إقليمهم، وهي حالة ضرورة، وأنه لا يستقيم حال المسلمين إلا بهذا الأمر.

قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (115/1): (النبى ﷺ أمر بطاعة الأئمة الموجودين المعلومين الذين لهم سلطان يقدرون به على سياسة الناس، لا بطاعة معدوم ولا مجهول ولا من ليس له سلطان، ولا قدرة على شيء أصلاً).

وقال كذلك في مجموع الفتاوى (175/34-176): (والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحد، والباقيون نوابه، فإذا فرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها، وعجز من الباقين، أو غير ذلك فكان لها عدة أئمة: لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود، ويستوفي الحقوق).

وقال العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني في سبل السلام (72/7 ط: ابن الجوزي) في شرح قوله ﷺ: (من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، ومات؛ فميتته جاهلية): قوله: (عن الطاعة) أي طاعة الخليفة الذي وقع الإجماع عليه، وكأنَّ المراد خليفة أي قطر من الأقطار، إذ لم يجتمع الناس على خليفة في جميع البلاد الإسلامية من

أثناء الدولة العباسية، بل استقل أهل كل إقليم بقائم بأمرهم، إذ لو حُمل الحديث على خليفة اجتمع عليه أهل الإسلام؛ لقلَّت فائدته...).اهـ.

وقال العلامة الشوكاني في السيل الجرار (512/4): (وأما بعد انتشار الإسلام، واتساع رقعته، وتباعد أطرافه؛ فمعلوم أنه قد صار في كل قطر - أو أقطار - الولاية إلى إمام أو سلطان، وفي القطر الآخر كذلك، ولا ينعقد لبعضهم أمر ولا نهى في قطر الآخر، أو أقطاره التي رجعت إلى ولايته، فلا بأس بتعدد الأئمة والسلاطين، ويجب الطاعة لكل واحد منهم بعد البيعة له على أهل القطر الذي ينفذ فيه أوامره ونواهيه، وكذلك صاحب القطر الآخر، فإذا قام من ينازعه في القطر الذي ثبتت فيه ولايته، وبإيعه أهله؛ كان الحكم فيه: أن يُقتل إذا لم يتب، ولا تجب على أهل القطر الآخر طاعته، ولا الدخول تحت ولايته؛ لتباعد الأقطار، فإنه قد لا يبلغ إلى ما تباعد منها خبر إمامها أو سلطانها، ولا يُدرى من قام منهم أو مات، فالتكاليف بالطاعة - والحال هذا - تكليف بما لا يطاق، وهذا معلوم لكل من له اطلاع على أحوال العباد والبلاد. فاعرف هذا، فإنه المناسب للقواعد الشرعية، والمطابق لما تدلت عليه الأدلة، ودُعُ عنك ما يقال في مخالفته؛ فإن الفرق بين ما كانت عليه الولاية الإسلامية في أول الإسلام، وما هي عليه الآن؛ أوضح من شمس النهار، ومن أنكر هذا؛ فهو مباهت لا يستحق أن يُخاطب بالحجة؛ لأنه لا يعقلها...).

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب كما في كتاب (معاملة الحكام في ضوء السنة والكتاب ص 24): (الأئمة مجمعون من كل مذهب على أن من تغلب على بلد له حكم الإمام في جميع الأشياء، و لولا هذا ما استقامت الدنيا، لأنَّ الناس من زمن طويل قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا ما اجتمعوا على إمام واحد، ولا يعرفون أحداً من العلماء ذكر أن شيئاً من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم.

وقال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في الشرح الممتع (12/8-13): (فإذا تأمر إنسان على جهة ما صار بمنزلة الإمام العام، وصار قوله نافذاً، وأمره مطاعاً، ومن عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه والأئمة الإسلامية بدأت تتفرق، فابن الزبير في الحجاز، وابن مروان في الشام، والمختار بن عبيد في العراق، فتفرقت الأئمة، = وما زال أئمة الإسلام يدينون بالولاء والطاعة لمن تأمر على ناحيتهم، وإن لم تكن له الخلافة العامة، وبهذا نعرف ضلال ناشئة نشأت تقول: إنه لا إمام للمسلمين اليوم، فلا بيعة لأحد، نسأل الله العافية، ولا أدري أيريد هؤلاء أن تكون الأمور فوضى ليس للناس قائد يقودهم؟ أم يريدون أن يقال كل إنسان أمير نفسه؟ هؤلاء إذا ماتوا من غير بيعة فإنهم

لأهل الحل والعقد، فلا يجوز لأحد أن يغزو دون إذن الإمام إلا على سبيل الدفاع، وإذا فاجأهم عدو يخافون قلبه، فحيثئذ لهم أن يدافعوا عن أنفسهم لتعين القتال إذا).

ومعنى كَلَبَهُ: أي شرّه ووثبته.

يموتون ميتة جاهلية، لأن عمل المسلمين منذ أزمنة متطاولة على أن من استولى على ناحية من النواحي وصار له الكلمة العليا فيها فهو إمام فيها، وقد نصّ على ذلك العلماء مثل صاحب سبل السلام وقال: (إن هذا لا يمكن الآن تحقيقه) وهذا هو الواقع الآن، فالبلاد التي في ناحية واحدة تجدهم يجعلون انتخابات ويحصل صراع على السلطة، ورشاوى وبيع للذمم إلى غير ذلك، فإذا كان أهل البلد الواحد لا يستطيعون أن يولوا عليهم واحدا إلا بمثل هذه الانتخابات المزيفة فكيف بالمسلمين عموما؟ هذا لا يمكن).

باب:

الإسلام دين الرحمة والتسامح، والعفو عن الناس⁽¹⁾.

من طالع سيرة المصطفى محمد ﷺ وجد أنه أشفق الناس، كيف لا وقد قال في شأنه جلّ شأنه في سورة الأنبياء [107]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى في سورة التوبة [128]: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد صح عنه ﷺ أنه قال: (أنا نبي الرحمة)، وفي رواية أخرى: (أنا رحمة مهداة)، وقال ﷺ كما في صحيح مسلم: (إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة)، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: (أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة)، فوجب على من رضي به رسولا أن يسلك منهجه في رحمة الخلق والشفقة عليهم، فهو ﷺ أسوتنا الحسنة لقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

والرحمة أمرٌ فطري جُبل عليه الخلق من البشر والبهائم والطيور⁽²⁾، ولولا هذه الرحمة والشفقة لصعبت الحياة على المخلوقات، ولا سيما الضعفاء منهم.

(1) يرجع للتوسع في هذا الباب كتاب: (الأربعون في الشفقة والرحمة) لمؤلفه عطاء الله بن عبد الغفار السندي.

(2) قلت: حين أقف على بعض المواقف البشعة لبعض أفراد الجماعة المسلحة بالجزائر؛ وأن عنصرا من عناصرها قام بقتل والديه لأنهما قبلتا تزويج ابنتيهما من شرطي؛ أصاب بالذهول والدهشة!، وأقول: أي وحشية وصل إليها القوم؟، وبأي فقه يتعاملون مع الخلق؟

فعن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزء واحد، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه)⁽¹⁾.

ومن رواية سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم يئس من الجنة).

وهذه الرحمة التي يتعايش بها الخلق جميعاً جزء من مائة جزء كما جاء مصرحاً بها في النص السابق، وبهذه الرحمة يتعاطف المسلمون، وبها يتراحمون، وبها يتصالحون، وبها يشفقون على الذمي والمعاهد والمستأمن، وبها يتنازلون عن بعض حقوقهم لتحقيق المصلحة العظمى من وحدة الصف، وجمع الكلمة، والقضاء على منابع الفتن، والرفع من شأن الوطن المسلم.

واعلموا أن أجر القائم برحمة الخلق كبير عند الله تعالى، فهنيئاً لمن دعا البرية إلى مشروع التراحم بين المسلمين، وأحيا مبادئ الحوار بين

= وهل تزويج مسلمة من كافر على تقعيدهم الباطل، وفقههم العاطل يوجب القتل؟، وهل يحق للفرع أن يقتص من الأصل وسبب الوجود؟ والعجيب في الأمر أن هذه المخازي يفتخر بها القوم ويرسمونها على مجلاتهم لتبقى شاهدة على قسوة قلوبهم، وهباء عقولهم، وبعدهم عن سماحة الإسلام، وأصوله العظيمة، والله العاصم من مذهب أهل الأهواء.

سئل شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (178/24) عن امرأة متزوجة برجل كامل ولها أولاد، فتعلقت بشخص من الأطراف أقامت معه على الفجور، فهل يجوز لأولادها قتلها سرا؟ فأجاب: (الحمد لله، الواجب على أولادها وعصبتها أن يمنعوها من المحرمات، فإن لم تمتنع إلا بالحبس حبسوها، وإن احتاجت إلى القيد قيدوها، وما ينبغي للولد أن يضرب أمه، وأما برها فليس لهم أن يمنعوها برها، ولا يجوز لهم مقاطعتها بحيث تتمكن بذلك من السوء، بل يمنعوها بحسب قدرتهم، وإن احتاجت إلى رزق وكسوة رزقوها وكسوها، ولا يجوز لهم إقامة الحد عليها بقتل ولا غيره، وعليهم الإثم في ذلك).

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 6000) ومسلم (برقم 2752).

المتخالفين والمتخاصمين، وعرف الخلق بحقوقهم وواجباتهم، ونشر فيهم بذرة الخير والوفاء، فقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث سهل بن سعد أنه قال: (إنَّ لله تبارك وتعالى خزائن الخير، مفاتيحها الرجال، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر..)⁽¹⁾.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: جاءني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمت ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منها ثمرة، ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها فاستطعمها ابتهاها فشقت الثمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعتُ لرسول الله ﷺ فقال: (إنَّ الله قد أوجب لها بها الجنة، وأعتقها بها من النار)⁽²⁾.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أنَّ النبي ﷺ قال: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، الرحمة شجرة من الرحمن، من وصلها وصلته ومن قطعها بترته)⁽³⁾.

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يرحم الله من لا يرحم الناس)⁽⁴⁾.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن صبياً رفع في حجر النبي ﷺ ونفسه تققع، ففاضت عينا النبي ﷺ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: (هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرّحماء)⁽¹⁾.

(1) إسناده حسن بمجموع طرقه، وله شاهد من حديث أنس؛ أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (برقم 305/ط الجوابرة)، انظر الصحيحة للعلامة الألباني رحمه الله (برقم 1332).

(2) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (برقم 2630 كتاب البر والصلة، باب: فضل الإحسان إلى البنات).

(3) إسناده صحيح أخرجه الإمام أحمد والترمذي، انظر الصحيحة (برقم 925).

(4) رواه البخاري (برقم 7376)، ومسلم (برقم 2319).

(5) أخرجه الإمام البخاري (برقم 1284-5655)، ومسلم (923).

وعن عياض بن حمار أنّ نبي الله ﷺ قال: (أهل الجنة ثلاثة؛ ذو سلطان مقسط موقّق، ورجل رحيم، ورقيق القلب لكلّ ذي قربة)⁽¹⁾.

وقد أخرج الحافظ البيهقي بإسناد جيد في كتابه العظيم شعب الإيمان (210/20 برقم 10571) قصة بليغة، فيها عظة لكلّ من استهان بمنزلة الرحمة ولو كانت مع البهائم، ورفعة حميدة لمن عاد إليها وتحلى بها، وتقرّب إلى الله بتحقيقها، فأخرج بسنده رحمه الله إلى إبراهيم بن أدهم قال: بلغه أنّه كان في بني إسرائيل رجل ذبح عجلاً بين يدي أمّه فأيس الله يده، فبينما هو ذات يوم جالس إذا بفرخ قد سقط من وكره، وهو يتصبص إلى أبويه، وأبواه يتصبصان إليه، فأخذه وردّه إلى وكره رحمة له، فرحمه الله برحمته له وردّ عليه يده بما صنع).

إنّ الرحمة في الإنسان رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، والنعمة على المحتاج، والحنوّ على المسكين، وهي كذا عاملٌ للتخلص من جميع أنواع الآفات والأمراض، من حقد، وحسد، وكره، وبغضاء، وحبٍ للانتقام، ومطالبة بالثأر على طريقة أهل الجاهلية، ومن وقف على سيرة النبي ﷺ بصورة علمية وإخلاص خلّص نفسه من هذه الشرور، ورباها على معالي الأمور، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه⁽²⁾ بسنده إلى أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال ﷺ: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إنّ الله عزّ وجلّ قد سمع قول قومك لك، وما

(1) صحيح أخرجه الإمام أحمد، وأصله في صحيح مسلم.

(2) (برقم 3231 كتاب بدء الخلق).

ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً).

رحمة، وأمل، وعفو، وانسراح صدر،... هذا هو منهج الأنبياء في الصبر على الخلق ولو كانوا مشركين، والرحمة بهم، مليء بالأمل وبُعد النظر، وببعد عن حب الانتقام، والرغبة في الإبادة الجماعية.

فأين من ضاق أفقهم هداهم الله، وقست قلوبهم فصارت كالحجارة أو أشد قسوة حين كفّروا أبناء المسلمين بالكبائر و ما توهموه أنه من نقوض الإسلام، ثم ذبحوهم وقتلوهم من فقه هذا الحديث العظيم؟.

وأين الذين أبادوا قرى وبيوتا بالشبه والأهواء؟

وأين الذين اتخذوا التفجيرات الجماعية في ديار المسلمين وسيلة من وسائل الجهاد؟ وإذا سئلوا عن الأبرياء من المسلمين الذين لا ناقة لهم ولا جمل بأي ذنب مزقت أشلاؤهم؟، قالوا: يبعثون يوم القيامة على نياتهم!، والله المستعان.

وأين دعاة الإقصاء والتغريب باسم الوطنية، والهيمنة على الأخضر واليابس من أنوار هذا الحديث الشريف، ومن مبدأ التراحم والتواد، وتجاوز الخلافات المفتعلة، والافتناع بأن الجزائر الغراء حررها الجميع وسينيتها الجميع ويعيش فيها الجميع، في جوّ من التوافق والتناصر، والتحاور بالعلم والحكمة، بعيدا عن سياسة فرض الرأي الاجتهادي بقوة الكرسي والمنصب، وإسكات أفواه أهل الحق من منطلق العنصرية، والنظرة الأحادية من غير فقه، ولا فهم ولا وعي ولا رويّة؟.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه⁽¹⁾ بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: (دعوه؛ وأهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه⁽²⁾ بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ تلا قوله عزَّ وجلَّ في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنِّهْنَّ أَضَلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعِنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فرفع يديه وقال: (اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي) وبكى، فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله عزَّ وجلَّ: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إِنَّا سَنُضِيقُكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ).

قال الحافظ النووي في شرح مسلم: (هذا حديث مشتمل على أنواع من الفوائد منها: بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته واعتناؤه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم...).

إِنَّ شَفَقَةَ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ تَتَوَقَّفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ أَصَابَتْ كُلَّ ذَاتِ كَبَدٍ رَطْبَةٍ، وَدَلَّتْ بِأَوْضَحِ عِبَارَةٍ أَنَّهُ ﷺ بُعِثَ بِالسَّمَاةِ وَالرَّحْمَةِ.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمِيحَةٍ)⁽³⁾.

(1) (برقم 6128 كتاب الأدب، باب: قول النبي ﷺ "يسروا ولا تعسروا").

(2) (برقم 202 كتاب الإيمان، باب: دعاء النبي ﷺ لِأُمَّتِهِ وَبِكَائِهِ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ).

(3) (إسناده حسن؛ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (116/6). وله شواهد من حديث أبي أمامة، وجابر، وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين).

وعن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم، فأسرّ إليّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحبّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفاً أو حائش نخل، قال: فدخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا جملٌ، فلما رأى النبي ﷺ حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت، فقال: (من ربّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟) فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسول الله، قال ﷺ: (أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه)⁽¹⁾.

وعن سهل بن الحنظلية قال: مرّ رسول الله ﷺ ببغير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: (اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة)⁽²⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي بطريق، فاشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر، فملأ خفّه، فأمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له)⁽³⁾.

وأخرجه البخاري (برقم 6009) من طريق آخر عن أبي هريرة: قالوا يا رسول الله ﷺ، وإنّ لنا في البهائم أجراً؟ فقال ﷺ: (في كل ذات كبد رطبة أجر).

ومن النكت المليحة أنّ الإمام أبا داود السجستاني صاحب السنن أورد حديث عبد الله بن جعفر، وحديث سهل، وحديث أبي هريرة، في كتاب الجهاد من سننه، فقها وفهما منه رحمه الله أنّ الجهاد الذي شرعه الله في كتابه وبينه الرسول ﷺ في سنته بابّ من أبواب الرحمة لكل ذي كبد رطبة،

(1) صحيح أخرجه أبو داود في سننه (برقم 2542) ومسلم دون ذكر قصة الجمل.

(2) أخرجه أبو داود في سننه (برقم 2541) بإسناد صحيح.

(3) أخرجه البخاري (برقم 172-2363-2466)، ومسلم مطولاً (برقم 2244).

ووسيلة شرعية لتوسيع رقعة الإسلام والذب عنه، وأصل عظيم لإخراج البشرية من ظلمات الشرك والأهواء إلى نور الإسلام وسماحته، وليس كما يتصوره جمعٌ من البشر ممن امتلأت قلوبهم بالشبه والحقد على الخلق؛ أن الإسلام مجرد قتل، وذبح، وقطع للرؤوس بالفؤوس!، وتفجير لديار المسلمين؛ واعتداء على المعاهدين والمستأمنين؛ من غير سياسة شرعية حكيمة، وأهداف صالحة سطرها العلماء الأبرار، ونفذها ولادة الأمور الأخيار.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ يوم خيبر: (لأعطين الراية غدا رجلا يفتح على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)، فبات الناس ليلتهم: أيهم يُعطى، فغدوا كلهم يرجوه، فقال ﷺ: (أين علي؟) فقبل يشتكي عينيه، فبصق في عينيه ودعا له فبرأ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال [علي] أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي بك رجلا خيرا لك من أن يكون لك حمر النعم)⁽¹⁾.

وفي حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عند مسلم (برقم 2405)؛ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: (لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه)، قال عمر بن خطاب: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، فتساورت لها رجاء أن أدعى لها، قال: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فأعطاه إياها وقال: (امش، ولا تلتفت، حتى يفتح الله عليك)، قال: فسار علي شيئا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ قال ﷺ: (قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله).

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم 3009)، والإمام مسلم (برقم 2406).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح عند قوله ﷺ (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً): (يؤخذ منه أنّ تألّف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله).

إنّ الجهادَ الكريمَ عبادةٌ شرع لدعوة الخلق إلى شهادة أن لا إله إلا الله كما جاء في الحديث (ثم ادعوهم إلى الإسلام)، وتحذيرهم من مضار ومهالك الشرك كما مرّ بيانه وليس القتل غايةً من غاياته الأسمى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فالمقصود بالجهاد أن لا يعبد أحدٌ إلا الله، فلا يدعو غيره، ولا يصلي لغيره، ولا يسجد لغيره، ولا يعتمر ولا يحج إلا إلى بيته، ولا يذبح القرابين إلا له، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يتقى إلا إياه..⁽¹⁾).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (وقتل الآدمي من أكبر الكبائر بعد الكفر، فلا يباح قتله إلا لمصلحة راجحة، وهو أن يُدفع بقتله شرٌّ أعظم من قتله، فإذا لم يكن في وجود هذا الشرِّ لم يكن قتله، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

(1) مجموع الفتاوى (368/35).

قلت: ومن عجائب الأمور أن القائمين على مشروع الجهاد البدعي للقضاء على البشرية في بعض الديار الإسلامية هداهم الله إلى الحق جعلوا من مبادئهم السامية غلق المساجد، وتهديد الأئمة بالقتل إذا هم صلوا بالناس أو خطبوا فيهم، وملاحقة دعاة أهل الحديث والأثر وعدهم أخطر صنف على مشروعهم الوهمي، ولم نسمع عنهم أنهم هدموا القباب والأوثان التي يذبح عندها القرابين، ويطاف بها، وتعبّد من دون الله، أو أنهم وزعوا كتاباً أو شريطاً يخرج البشرية من براثن الشرك والبدعة إلى نور التوحيد والسنة - وفاقداً الشيء لا يعطيه -، ولهذا من تأمل في حالهم أدرك أنّه كلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، وازدادوا اعوجاجاً، ومروجا عن الحق، وبعداً عن الهدى الذي جاء به النبي ﷺ، وازداد أمرهم وضوحاً لكل من كان مغتراً بهم، ومُبتهجاً بصنيعهم، ودعاويهم الجوفاء، وإن غيروا أسماء تنظيماتهم وألقابهم في كلّ عام مرة أو مرتين، وفي نفس الوقت ازداد أهل السنة والحديث بمخالفتهم ومحاربة منهجهم البدعي ابتهاجاً وسروراً، وقربة إلى الله تعالى.

فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿المائدة: ٣٢﴾ فلم يبح القتل إلا قوداً، أو لفساد البغاة وسعيهم في الأرض بالفساد، مثل: فتنه المسلم عن دينه، وقطع الطريق، وأما ذنبه الذي يختص به ولا يتعدى ضرره إلى غيره؛ فهذا لا يُسمى فساداً⁽¹⁾.

وقال كذلك شيخ الإسلام في تعريف الفساد في الأرض: (الفساد نوعان: لازم وهو مصدر فسد يفسد فساداً، ومتعد وهو اسم مصدر أفسد يفسد إفساداً، وهذا إنما يقال لمن أفسد غيره، لأنه لو كان الفساد في نفسه فقط لم يقل: سعى في الأرض فساداً، وإنما يقال في الأرض لما انفصل عن الإنسان)⁽²⁾.

قلت: إن العناصر التي تنادي بالجهاد المقدس على مفهومها الفلسفي في الديار الإسلامية؛ والتي اتخذت من الجبال والمغارات قلعة لها، ومن فكر ابن لادن وأتباعه الملوئين بالشبه، والقانطين من رحمة الله منهجاً وطريقاً تحقق به الكرامة للبشرية، وتطهر به الأرض من رؤوس الطواغيت على مفهومهم؛ لا تفرق بين الفساد والإفساد في الأرض، ولهذا انطلق هذا النوع من الخلق في إبادة البشرية من فساد منهجهم العقدي، وبوار تصورهم للقضايا العادلة، وسوء إنزالهم للأحكام الشرعية على الخلق؛ كالحكم على الفرد بالردة والكفر لمجرد ارتدائه للهندام العسكري؛ إلى الإفساد في الأرض، وإثارة الفتن، وإزهاق أرواح الأبرياء الذين لا ناقة لهم ولا جمل في اتخاذ القرار وتغيير الأحوال، كما هو مشاهد وملحوظ في كثير من الدول الإسلامية، والله العاصم من لهيب أهل نار الفتن.

(1) قاعدة مختصرة في قتال الكفار (ص204).

(2) الصّارم المسلول (734/3)، ويأتي بسط مسألة (هل يقتل الكافر بسبب المقاتلة أم الكفر) في جزئي (الفواصل الجياد بين الجهاد والإفساد)، يسر الله ظهوره بمثّه وكرمه.

إنّ سفهاء الأحلام، وحدثاء الأسنان -هداهم الله إلى الحق- لا لشوكة الفلاسفة الأشرار كسروا، ولا لحصون الكفار فتحوا، ولا لراية الإسلام الطاهرة رفعوا ونصروا، بل مساكين! يسرون بلا راية ولا دراية، مع جهل مطبق بأحكام الشريعة في باب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، بلهاء! يعدّون التعرض لشرطي مُسلم خرج من المسجد بالقتل، ولعجوز طاعنة في السن تسوق قطيعا من الغنم بالذبح؛ الجهاد الشريف!! الذي يحرر الأوطان، ويُعيد الخلافة الراشدة، ويزلزل ديوان الأمريكان!.

وقد قيل:

لكلّ داءٍ دواءٌ يستطبُّ به*** إلاّ الحماقة أُعيت من يداويها.

ولو كان المغررُ بهم ومَن وراءهم أصحابَ عقول⁽¹⁾ ناضجة لأدركوا

أن انقسامهم على أنفسهم في الغابات والكهوف إلى فرق متناحرة، يكفر بعضها بعضا، ويقتل بعضها بعضا؛ وانتقالهم من اسم إلى اسم، وخطة سيئة إلى خطة أسوأ من الأولى؛ دليل ساطع على أن المنهج الذي يسلكونه في نصرة الإسلام ليس هو من عند الله تعالى، وأنّ الأعمال التي ارتكبوها في حقّ من حكموا عليهم بالردة ظلما وزورا، لم يتتفع منها الإسلام

(1) قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في مفتاح دار السعادة (384/1 ط: الشيخ علي الحلبي): (والعقل عقلان: عقل غريزة، وهو أب العلم، ومُريّيه، ومُثْمِرُهُ، وعقلٌ مُكتسَبٌ مستفادٌ: وهو وَلَدُ العلم، وثمرته، ونتيجته، فإذا اجتمعا في العبد؛ فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، واستقام له أمره، وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب، وإذا فقدهما؛ فالحيوان البهيم أحسن حالا منه، وإذا انفردا؛ نقص الرجل بنقصان أحدهما...). وأحسبُ أنّ دُعاة الخروج على الحاكم الجائر قد فقدوا العقلين، وإلا لما سلكوا طريقا لا يُبقي مكتسبا، ولا يجلب مفقودا أو متأملا!.

وجاء في درر السلوك لأبي الحسن الماوردي (ص74 ط: دار الوطن) أن بعض البلغاء قال: (من حقّ العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربّما زلّ، والعقل الفرد ربّما ضل).

والمسلمون قدر شعرة، بل؛ لو كان عندهم مسكة من عقل لأبصروا أن الطريق المظلم الذي يسرون عليه من نتاج عقولهم الفاسدة، وفتاوى المشبوهين الكاسدة، وهو حكم بغير ما أنزل الله عينه الذي يحاربون الحكومات الإسلامية من أجله، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

فالله أسأل أن يُعيد للشباب المغرر بهم عقولهم، وأن يرزقهم التوبة النصوح، وأن يُنقذهم من شباك أهل الأهواء الذين يتاجرون بمصيرهم، ويتلاعبون بعقائدهم تحت شبهات عمياء، وشعارات جوفاء بعيدة عن المعقول والحقيقة، وأن يوفقهم للعلم النافع الذي به يبيدون شبهات أهل الأهواء، وبه يستظهرون بكتاب الله على كل ما سواه، ويفارقون المستظهرين على كتاب الله من المبتدعة والخوارج المخدولين الأتقياء.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله بعد ما بين أصناف حملة العلم: (بخلاف الراسخ في العلم، لو وَرَدَتْ عليه الشُّبه بعدد أمواج البحر ما أزالته يقينه، ولا قدحَتْ فيه شكًّا، لأنَّه قد رسخ في العلم، فلا تستفزُّه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردّها حرّس العلم وجيشه مغلوله مغلوبة).

والشبهة: واردٌ يرد على القلب، يحول بينه وبين انكشاف الحق له، فمتى باشر القلب حقيقة العلم؛ لم تؤثر تلك الشبهة فيه، بل يقوى علمه ويقينه بردها، ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه؛ قدحَتْ فيه الشكُّ بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها، حتى يصير شاكًّا مرتابًا.

والقلب يتوارده جيشان من الباطل: جيش شهوات الغي، وجيش شُبُهات الباطل، فأئِما قلب صغى إليها وركن إليها؛ تشربها، وامتلأ بها، فينضح لسانه وجوارحه بموجِبها، فإن أشرب شبهات الباطل؛ تفجّرت على

لسانه الشكوك والشبهات والإيرادات، فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه⁽¹⁾.

وقال ابن تيمية رحمه الله لابن قيم الجوزية حين أورد عليه بعض الأمراض التي تتوارد على القلب: (لا تجعل قلبك للإرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها، ولا تستقر فيها، فیراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا إذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات)، قال ابن قيم الجوزية: (فما أعلم أنني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك)⁽²⁾.

فاعلموا يا من غرر بهم أن رؤوس الخوارج يكسون بدعهم ونحلهم بلباس الجهاد، وهم في حقيقة الأمر ينطوون على مقالات أهل الفساد، فلا تغتروا بظاهر الألفاظ، ولا تنجروا وراء الأماني الخاوية، وصدق من قال:

تقول هذا جنى النحل تمدحه*** وإن تشأ قلت ذا قيء الزناير

مدحا وذمًا وما جاوزت وصفهما*** والحق قد يعتريه سوء التعبير

(1) مفتاح دار السعادة (1/442 ط: دار ابن عفان).

(2) مفتاح دار السعادة (1/443 ط: دار ابن عفان).

باب:

المكان يفضل غيره بتوحيد الله تعالى وظهور الأمن⁽¹⁾ فيه.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ الْفَرَائِضَ وَحَرَّمَ الْمَحْرَمَاتِ، وَأَوْجَبَ الْحَقُوقَ رِعَايَةً لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَإِعْمَارًا لِلْبِلَادِ، وَجَعَلَ الشَّرِيعَةَ الْغَرَاءَ غِذَاءً لِحِفْظِ حَيَاتِهِمْ مِنَ التَّلَفِ وَالضِّيَاعِ، وَدَوَاءً لِدَفْعِ أَدْوَائِهِمْ وَأَمْرَاضِهِمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشَّبَهَاتِ، وَأَقَامَ جَلًّا وَعِزًّا دَعْوَةَ الرَّسْلِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ عَلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بِخُضُوعٍ وَخُشُوعٍ وَطَمَآنِينَةٍ وَانْقِيَادٍ مَعَ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ النحل: ٣٦.

قال العلامة السَّعْدِيُّ رحمه الله في تفسير آية النحل: (يخبر الله تعالى أَنَّ حِجَّتَهُ قَامَتْ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ إِلَّا وَبَعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا، وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى دَعْوَةِ وَاحِدَةٍ وَدِينٍ وَاحِدٍ؛ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ).

إِنَّ الشَّرِيعَةَ الْغَرَاءَ مَقَّتَتْ مَا يَصْرِفُ الْقُلُوبَ عَنْ خَالِقِهَا وَرَازِقِهَا؛ فَحَذَّرَتْ مِنَ الشَّرِكِ بِكُلِّ أَنْوَاعِهِ؛ مِنْ تَشْيِيدِ الْقُبَابِ وَالطَّوَافِ بِهَا، وَالنَّذْرِ لَهَا،

(1) الأمن ضد الخوف، وهو عدم وقوع مكروه في الزمن الآتي، وقد عرفه الراغب في المفردات: طمأنينة النفس، وزوال الخوف....).

أما في الاصطلاح: (فهو نتاج محصلة مجموعة من الإجراءات التربوية والوقائية والعقابية التي تتخذها الدولة لصيانة الوطن واستتبابه داخليا وخارجيا انطلاقا من المبادئ التي تدين بها الأمة ولا تتعارض أو تتناقض مع المقاصد والمصالح المعتبرة) انظر كتاب: لمحات في تنمية الحس الأمني إعداد اللواء: علي بن فايز الجحني (ص: 7).

والذبح عند عتبتها، ومن الغلوّ في الصالحين والأموات وإعطائهم حق الخالق تبارك وتعالى من التصرف في الكون؛ من نفع، وضرّ، ورزق، ومنع، ورفع، وخفض، وغيرها من أوصاف الخالق جلّ جلاله التي صرفت للمخلوقين ظلماً وعدواناً.

وغلّظت من الذهاب إلى الكهنة والسحرة والمشعبذين والعرفّين، ونهت عن البدع بكل أصنافها وإن رآها بعض الناس حسنة، فالبدع كلّها ضلال لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (كلّ بدعة ضلالة).

وحذّرت من المذاهب الضالة والمنحرفة؛ كمذهب الخوارج، والرافضة، والمرجئة، والمعتزلة، والصوفية الغلاة، وما تشعب عنهم من فرق وسبل، وزجرت عن الوقوع في أجيج الأفكار الهدّامة من اشتراكية مزداكية قدرة التي جعلت الباجات باجا واحداً بعد ما فرق بينهم العليم الحكيم بعدله، أو شيوعية ملحدة وشحيحة قتورة، أو عرقية جاهلية مبتورة، ونهت عن الأغلوطات وبثّ الشائعات، وعدّتها من شرار العلم، وما أكثرها في هذا الزمان الذي كثر فيه التلويس والتدليس، وأوضحت في نصوصها الساطعة أنّ كلّ من تصدر وتكلم باسم الشريعة في باب الجهاد، أو تعليم الخلق، أو الدعوة إلى الواحد الأحد، وهو ليس من أهل الصنعة والدراية؛ فهو من شرّ الناس، لا يُملّي على الخلق إلا الخُلابيس ووسواس الخنّاس.

قال العلامة ابن قيّم الجوزية ناقلاً عن شيخه الهمام ابن تيمية رحمه الله: (كما أنّ خير الناس الأنبياء؛ فشرّ الناس من تشبّه بهم من الكذّابين وادّعى أنّه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم -الأنبياء-: العلماء، والشهداء، والمتصدّقون، والمخلصون، وشرّ الناس من تشبّه بهم يُوهّم أنّه منهم وليس منهم)⁽¹⁾.

(1) الداء والدواء (ص 55 ط/علي الحلبي).

ودعت شريعة رب الأرض والسّماء إلى تثبيت الأمن في ربوع الأُمّة، وشرّعت أصولاً لدعم ركائزه وتثبيتها، وجعلت الأمن طريقاً معبداً لعباد ربّ البريات في أحضانه، وحذرت من الفتن وما يترتب عليها من خوف وقلق وانتكاسات، فكانت دعوة الأنبياء منصبة إلى تحقيق الأمن في نفوس البشرية بدعوتهم إلى توحيد الباري جلّ جلاله، وبتضرعهم لله تعالى لإبقاء الأمن في ربوع المعمورة.

فهذا خليل الرحمن ﷺ كان أوّل تضرّعاته لربّه جلّ وعلا أن يبسط الأمنَ على مهوى أفئدة المسلمين المؤمنين بالله وبيوم الميقات، فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة: ١٢٦ فاستجاب الله دعاءه، وجعل بكة أمنة شرعاً وقدرًا، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ آل عمران: ٩٧، والمتأمل في دعاء إبراهيم الخليل ﷺ يجد أنه جمع فيه بين الأمن والرزق، وهما قوام بقاء الجنس البشري، فلا يزدهر اقتصادٌ في أرضٍ إلا بتوفر الأمن وانتشاره بين الناس، فهلاًّ عقل المفسدون في الأرض هذه الحقيقة الهامة، وسعوا جاهدين إلى توفير الأمن والمحافظة على دعائمه إن أرادوا أن يعيشوا حياة هنيئة ومطمئنة، تسودها العبادة لله تعالى، والعلم النافع والعمل الصالح.

والله تعالى فضّل البيت الحرام بما أحلّ فيه من الأمن والاستقرار، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ البقرة: ١٢٥. أي؛ أمناً من كلّ عدوّ، وأمناً أن يُحمل فيه السلاح، وأهله آمنون في أنفسهم وأموالهم، لا يُسبون، ولا تنتهك أعراضهم، ولا تختطف ذريتهم.

فالمكان يفضل غيره من الأمكنة لما يودع الله فيه من الأمن والسكينة، ليتمكن الخلق من عبادة ربهم في جوٍّ من الراحة والوقار، ولكي يتسنى لهم عمارة الأرض وبناءها، وإحياءها بالنور الذي أنزله الله على نبيه ﷺ، وهذا

هو المقصد الذي يسمو إليه حاكم البلاد أيده الله وسدد خطاه، ورزقه البطانة الصالحة التي تأمره بالبر وعن الشرّ تنهاه، من دعوته إلى المصالحة الوطنية بين أبناء الجزائر⁽¹⁾.

(1) إنّ المصالحة الوطنية، والصّالح الذي دعا إليه حاكم البلاد حفظه الله، والمصلحون من أهل الوطن، وتبناه الشّعب الجزائري المسلم بأغلبية ساحقة، مشروعٌ بلا ريب ولا نزاع ولا اضطراب، على غرار ما تُروّج له بعض الجهات من الشكوك والظنون، وعلى خلاف قول بعض النّاس أنّ في المصالحة تعطيلاً للحدود، وإقراراً لمنهج الخوارج؛ وتسترا على أصحاب الجرائم الجماعية، وإهداراً لحقوق الإنسان، وحكماً بغير ما أنزل الله، وتكريساً لمبادئ الديمقراطية الكافرة، فهذا شيء غير وارد في أصل الصّالح الذي نحن في صدد تحرير أبوابه بشيء من الإيجاز، ولم يقل به أحدٌ من العقلاء، ولم يرد تأييده في جزئنا ولو بأدنى إشارة، بل؛ الحدود معطلة قبل المصالحة بأحقاب، ولعلها لا تطبق بعد المصالحة إلا أن يشاء الله، ومنهج الخوارج كلاب النار منبوذ وباطل إلى قيام الساعة، وأن الحكم لله تعالى في الشّؤون كلها لقوله جلّ وعلا في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ يَوْمََ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ ولقوله سبحانه وتعالى من نفس السّورة: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ ولقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أُوْبَابٍ مُّتَفَرِّقَةً وَمَا أُغْنِي عَنْكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ولقوله تعالى من نفس السّورة: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وأن الديمقراطية الشمطاء والانتخابات العمياء ليست ميزانا منضبطا لمعرفة الحق، وتقديم الصالح، ودرء المفساد وجلب المصالح، وأن العودة في القضايا المصيرية والحوادث النازلة إلى أهل الفضل من العلماء، وأن أبناء الأمة من الشعب تبع لهم فيها؛ وغاية ما في الأمر أن حاكم البلاد حفظه الله أراد وضع حدٍّ لمأساة عفنة، وشائكة، ومتشابكة الأطراف، ومشبوهة الأهداف؛ بمشروع شرعي لا يدّعي فيه الكمال، وهي المصالحة بين الدولة المسلمة =

= والمتمثلة في مؤسساتها الثابتة وبين المغرّر بهم والمتأولين الذين اتخذوا العمل المسلح وسيلة لقيام دولة الإسلام على تصورهم الخاطيء، أو لاسترجاع ما كسبه من بوابة الديمقراطية في التسعينات، وهذا المشروع الذي طرحه حاكم البلاد لا يناع فيه إلا أخرق، ولا يرفضه إلا بليد ضيق النظر والصدر، لا تهّمه مصلحة الأمة، وسمعة الإسلام في خضم الصراعات الدولية، والتهم المتسلسلة للأمة الإسلامية. وقد جاء تأييدي لمشروع حاكم البلاد على ما فيه من نقص من باب التعاون على البر والتقوى، والتناصر لتقليل الشر ما أمكن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في سياق كلامه على نوعي التعامل مع الولاية من مجموع الفتاوى (283/28-284): (الأول: تعاون على البر والتقوى: من الجهاد، وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وإعطاء المستحقين، فهذا مما أمر الله به ورسوله ﷺ ومن أمسك عنه خشية أن يكون من أعوان الظلمة؛ فقد ترك فرضاً على الأعيان، أو على الكفاية، متوهماً أنه متورع، وما أكثر ما يشتهب الجبن والفشل والورع، إذ كل منهما كف وإمساك... [إلى أن قال رحمه الله]: فإن مدار الشريعة على قوله تعالى ﴿فَأَنْقُُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ المفسر لقوله: ﴿أَنْقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ ؛ وعلى قول النبي ﷺ (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) أخرجاه في الصحيحين، وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع المفسدين مع احتمال أدناهما: هو المشروع).

وقال رحمه الله في منهاج السنة (118/6) تحقيق محمد رشاد سالم): (فالأقل ظلمًا ينبغي أن يعاون على الأكثر ظلمًا، فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومعرفة خير الخيرين، وشر الشرين، حتى يُقدّم عند التزام خير الخيرين، ويُدفع شر الشرين، ومعلوم أن شر الكفار، والمرتدين، والخوارج: أعظم من شر الظالم).

وأما ما يتعلق بتفاصيل المصالحة الدقيقة، وكيفية استيفاء الحقوق فهذا أمر يعود إلى ولي أمر البلاد ومن اصطفاهم من أهل الحل والعقد من علماء الشريعة والقانون، والله ولي التوفيق. تنبيه لا بد منه: قد تحفظ بعض رجال القانون وحقوق الإنسان من مشروع المصالحة وقالوا: ينبغي أولاً؛ تحديد المسؤول عن أسباب الأزمة التي عصفت بالبلاد، وأن المصالحة لا تكون إلا بالمكاشفة والمصارحة، وعلى معطياتها تكون المصالحة، وذلك حتى لا تتكرر المأساة مرة أخرى، ونضع حداً نهائياً للفوضى التي عصفت بالديار. =

- دعوة جريئة؛ لو يدرك الخلق مزاياها وأهدافها لأتوا لنصرتها ولو حبوا، لما تضمنته من خير وسعادة للبشرية، ومن حقن للدماء وجمع للكلمة.

- دعوة تضم بين أكنافها الإخاء، والتعاون على البر والتقوى.

= أقول وبالله التوفيق: لقد نظرت في مراجع بعض رجال القانون فوجدتهم يقيسون محنة الجزائر على بعض الحروب الأهلية والعرقية التي مزقت بعض الدول، كما هو الحال في جنوب إفريقيا، وعليها سنوا ميثاق المصالحة والحقيقة، وقد اعترف كثير من البيض بجرائمهم في حق السود، إلا أن نلسن منديلا قد حثَّ المظلومين إلى تجاوز الخلاف، وبناء دولة قوية يسودها القانون، وكذلك ما حدث في أمريكا اللاتينية؛ كدولتي البرازيل، والبيرو، وهذه الأخيرة التي عاصمتها ليما قد مرت بها إحن، نجم عنها آلاف من المفقودين والقتلى، وكانت رحي الحرب تدور بين حركة الدرب المضيء، وسلطة مكافحة الإرهاب، وبلدة سوكوس شاهدة على حجم الدمار الذي أصاب الشعب البيروفي، ولكن الذي فات بعض رجال القانون أن ما دار في هاتين الدولتين ودول أخرى نصرانية يختلف جذريا عن محنة الجزائر المسلمة، سواء من حيث طبيعتها، أو أسبابها، ودوافعها، ولهذا لا يعقل أن نقيس الجزائر المسلمة على البيرو النصرانية مع تباين العلل، واختلاف الأسباب.

هذا أولا، وثانيا: لا يمكن أن يبقى الشعب الجزائري المسلم في دوامة تقاذف التهم، والبحث عن الجاني الأول، ودماء المسلمين تسيل كشلال منهمر، ونار الفتنة تعربد من تحت أقدامهم، والدولة بمؤسساتها سائرة إلى الهاوية، والدول العظمى الكافرة تتربص بها الدوائر، والطفيليون يبتزون أموال الأمة، و...

وعليه: فالعقل الفطن يسعى أولا: إلى حقن دماء المسلمين، وإطفاء نار الفتنة بشتى الأساليب الصالحة، ولو مع شيء من التنازل عن الحقوق، مكسوة بالتسامح والرحمة، وفي نفس الوقت يُعدّ مشروعا متكاملا لمنع من تكرار ما حدث، ويجتهد في دراسة الأسباب التي دفعت بأبناء الأمة إلى التساقط في أحضان دعاة الغلو والخروج، وزجت بهم إلى اعتناق فكر رؤوس الاستئصال وصناعة الإرهاب، مع البحث عن الحلول الناجعة لمعالجة هذه الظواهر الخطيرة بالاستعانة بالله ثم بعلماء الأمة، ومفكراتها، والمصلحين من أبنائها، والله تعالى يتولى الصالحين من عباده.

- دعوة تسمو إلى أن تجعل دولة من دُول الإسلام واحدة من واحات الأمن والسكينة، من زارها لم يبع عنها حولا.
- دعوة فيها قهْرُ لأعداء الله الذين يتسللون للأذى من ثقب الفتن التي تعربد من تحت أقدام المسلمين إلى صرح الأمة المتين، وقطع لألستهم الحداد التي لوثت منزلة الإسلام وسمعة المسلمين.
- دعوة فيها تبرئة للإسلام من جُرم الإرهاب والتطرف والغلو⁽¹⁾، الذي يسعى الغربُ بكل قواه للإصاقه بديننا الحنيف.
- دعوة تطوي صفحات من الحُزن مخلوطة بالدمع والدماء، والتي عاش إبّانها الشعب الجزائري برمته أحلك أيامه وساعاته.
- دعوة نفوّت على الطفيليين للتلاعب بمكاسب الأمة، واستنزاف خيراتها في مشاريع وهمية وخيالية، مستغلين ضعف الأمة بسبب ضياع الأمن وغياب الرقابة.
- دعوة تكشف عوار الظلم والجور، وخلط المفاهيم باسم محاربة الإرهاب؛ فقد رأينا المرء يحارب، ويهان إما لشكله أو للباسه، أو لاستعماله السواك!، والله المستعان.
- دعوة تُعمّد في أكنافها الجروح، وتواسى فيها المشاعر، ويجبر فيها الكسر.
- دعوة تتيح المجال للتنافس في نشر الفضيلة والخير، بإنشاء الجمعيات الخيرية، والمدارس الشرعية، وإقامة الدورات العلمية لتطهير عقول أبناء الأمة من الأفكار الفاسدة، والمناهج الكاسدة، والعاقبة للمتقين.

(1) وقد وضحت براءة الإسلام من الغلو والتنطع في كتابي: (الإذاعةُ في أن التنطع والغلو والخروج على أئمة الجور محرمٌ في ميزان أهل السُّنة والجماعة) يسّر الله ظهوره.

- دعوة تمكن المُغزّر بهم والمتأولين من استعمال عقولهم، ومراجعة حساباتهم، واللجوء إلى الله بصدق ليدلهم على سبيل الرشاد⁽¹⁾، والقيام لله

(1) إنّ الذكاء والفطنة السياسية لا يسعفان وحدهما الرجل يا من غُرّر بهم على معرفة طريق الهداية، وإدراك سبيل الحق، ومور الخروج من المسائل المختلف فيها، فلا بد إذا من طلب الهداية من هادي الحيارى، والحاكم فيما اختلف فيه الناس، ولهذا كان يقول النبي ﷺ في غزوة الأحزاب: (لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدقنا، ولا صلينا)، وهو قول المنعم عليهم في الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، فمن خفي عليه الحق، والتبست عليه الأمور يتوقف حتى يُبين الله له طريق النجاة والخلاص، ولا يستمر في طريق الظلام، كُلُّمَا جَدَّ فِيهِ، وَأَسْرَعَ فِيهِ الْخَطَى ابْتَعَدَ عَنْ نَقْطَةِ الْخُلَاصِ وَمَحَوْر الْعُودَةِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الصفدية (295/1): (وقد يشكل الشيء ويشتهبه أمره في الابتداء، فإذا حصل الاستعانة بالله، واستهداؤه ودعاؤه والافتقار إليه، أو سلوك الطريق الذي أمر بسلوكها؛ هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى (39/4): (وحقيقة الأمر؛ أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى، طالب سائل، فبذكر الله والافتقار إليه يهديه ويدلّه، كما قال: (يا عبادي كلّم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم).

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى (118/5): (فإذا افتقر العبد إلى الله، وأدمن النظر في كلام الله، وكلام رسوله، وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين انفتح له طريق الهدى). وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله في مدارج السالكين (505/1-506 منزلة الحزن): (...فإن الصادق يتحرى في سلوكه كله أحب الطرق إلى الله، فإنه سالك به وإليه، فيعترضه طريقان، لا يدري أيهما أَرْضَى لله وأحب إليه، فمنهم من يُحكّم العلم بجهد استدلّأ، فإن عجز فتقليدًا، فإن عجز عنهما سكن ينتظر ما يحكم له به القدر، ويُخلي بطنه من المقاصد جملة.

ومنهم: من يُلقي الكلّ على شيخه، إن كان له شيخ. ومنهم: من يلجأ إلى الاستخارة والدعاء، ثم ينتظر ما يجري به القدر. وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم في طلب الأرضى علمًا ومعرفة، فإن أعجزهم قنعوا بالظن الغالب، فإن تساوى عندهم الأمران؛ قدموا أرجحهما مصلحة.

= ولترجيح المصالح رُتِبَ متفاوتة: فتارة تترجح بعموم النفع، وتارة تترجح بزيادة الإيمان، وتارة تترجح بمخالفة النفس، وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها، وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن في غيرها، فهذه خمس جهات من الترجيح، قلَّ أن يُغَدَم واحدة منها.

فإن أعوزه ذلك كله؛ تخلَّى عن الخواطر جملة، وانتظر ما يحركه به محرك القَدَر، وافتقر إلى ربه افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه، فإذا جاءت الحركة استخار الله، وافتقر إليه افتقارًا ثانيًا، خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية، لعدم العصمة في حقه، واستمرار المحنة بعده، ما دام في عالم الابتلاء والامتحان، ثم أقدم على الفعل، فهذه نهاية ما في مقدور الصادقين(اهـ).

إن الحق يا من غرَّر بهم لا يُعرف بحمل السلاح، ولا بالعبارات الجوفاء التي تردد في الشوارع وعلى أوجه المواقع الالكترونية، ولا بالأمانى الخاوية التي ترجى، ولا بالفتاوى المبتورة والملفقة الضالة، ولا بالتهور المقيت في صورة الشجاعة المصطنعة، ولا بالاعتماد على العقل في الفتن، ولا بكثرة الاجتهاد والأعمال، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التسعينية (926/3 ط: دار المعارف) رادا على أبي المعالي الجويني وضربه من علماء الكلام، وإني أخالهم أذكى من ثوار زماننا: (ولكن اتباع أهل الكلام المحدث، والرأي الضعيف، وما تهوى الأنفس، ينقص صاحبه إلى حيث جعله الله مستحقا لذلك، وإن كان له من الاجتهاد في تلك الطريقة ما ليس لغيره، فليس الفضل بكثرة الاجتهاد، ولكن بالهدى والسداد، كما جاء في الأثر: "ما زاد مبتدع اجتهدا إلا ازداد من الله بعدا") اهـ.

فأفيقوا يا شباب الإسلام، فإن الأمر الذي حملتُم عبئه أكبر من كواهلكم، وأعظم من أن تدرك عقولكم أهدافه، والعذر عندكم أنكم فقدتم الناصح الأمين، وغدر بكم تجار السياسة، وصناع الإرهاب في لباس الجهاد، وباعوكم في سوق مصاصي الدماء، ثم نفضوا أيديهم منكم بعد ما حققوا مآربهم، فماذا تنتظرون بعد أن وصلتُم إلى طريق مسدود؟ قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في مفتاح دار السعادة (32/1): (وإذا عَظُم المطلوب، وأعوزك الرفيق الناصح العليم، فارحل بهمتك من بين الأموات، وعليك بمعلم إبراهيم). فاتهموا عقولكم يا قوم وكونوا كسهل بن حنيف يوم الصفين، وكان مع علي رضي الله عنه حين قال: (يا أيها الناس اتهموا) (وعند سعيد بن منصور: اجمعوا) رأيكم، فوالله ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلا أسهلنا بنا إلى أمر تعرفه غير أمركم هذا، فاتهموا رأيكم وغمد =

مثنى وفرادى ثم يتفكرون، ويسألون أهل العلم بحق عن أعمالهم التي ارتكبوها ويرتكبونها في حق إخوانهم من المسلمين؛ سواء كانوا من الشعب، أو من رجال الأمن، ويبحثون عن الحقيقة من مصادرها، ويجتهدون للخروج من مربع الأوهام والخيالات، والشجاعة الزائفة، ويقفون مع النفس في ثلث الليل الأخير، ويسألونها: هل ما يقومون به من أعمال القتل والاعتقالات، وتخريب المنشآت يوصلهم إلى قارب النجاة، وينجيهم يوم الدين، ويقيم لهم دولة أساسها الكتاب والسنة؟.

وهل ما يقومون به من أعمال سيئة في حق أبناء أمتهم لهم فيها أثارة من علم السلف الأماجد، وأقرهم عليها علماء العصر الأفاضل: كالشيخ العلامة عبد العزيز بن باز، والشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني، والشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، والشيخ العلامة مقبل بن هادي الوادعي، والشيخ العلامة حماد الأنصاري، والشيخ العلامة محمد آمان الجامي، والشيخ علي سينان، والشيخ العلامة عبد المحسن العباد، والشيخ العلامة ربيع بن هادي، والشيخ العلامة صالح الفوزان، والشيخ عبد العزيز

= سيفه وانصرف إلى أهله) وهذا اللفظ أخرجه سعيد بن منصور في سننه (2/345 برقم 2969) وأصل الأثر في الصحيحين.

قال الحافظ النووي شارحا أثر سهل في شرحه على صحيح مسلم (12/353؛ كتاب الجهاد والسير): (أراد بهذا تصبير الناس على الصلح، وإعلامهم بما يرجى بعده من الخير، فإنه يرجى مصيره إلى خير، وإن كان ظاهره في الابتداء مما تكرهه النفوس، كما كان شأن صلح الحديبية، وإنما قال سهل هذا القول حين ظهر من أصحاب علي رضي الله عنه كراهية التحكيم، فأعلمهم بما جرى يوم الحديبية من كراهية الناس الصلح وأقوالهم في كراهيته، ومع هذا فأعقب خيرا عظيما فقرره النبي ﷺ على الصلح، مع أن إرادتهم كانت مناجزة كفار مكة بالقتال...).

فاقبلوا يا من غرر بهم الصلح الذي دعا إليه حاكم البلاد وإن ظهر لكم أنه فيه هضم لحقكم، وارحلوا من بين الأموات ودعاة الضلال إلى معلم إبراهيم، وتوبوا إليه لعلكم ترشدون، فإني لكم ناصح أمين.

آل الشيخ، والشيخ صالح آل الشيخ، وباقي علماء الأمة سواء كانوا من المغرب العربي، أو من جمهورية مصر، أو الشام، أو الجزيرة العربية، أو اليمن أو القارة الهندية⁽¹⁾؟.

(1) قد يقول قائل ممن هو واقع في فكر الخوارج: هؤلاء العلماء الذين سردت أسماءهم يعملون عند الحكّام، وقائمون على وظائف في الدول فمن الطبيعي أن يفتوا بكل ما يناصر الطواغيت ويخذل الرافعين للواء الجهاد، فيكون الجواب عليه بما حرره العلامة الشوكاني رحمه الله في رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلّاطين من الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني (4668/9 طبعة حلاق) فقال: (وما زال عمّل المسلمين على هذا، منذ قامت الملة الإسلامية إلى الآن، مع كل ملك من الملوك: فجماعة يُلُون لهم القضاء، وجماعة يُلُون لهم الإفتاء، وجماعة يُلُون لهم على البلاد التي إليهم، وجماعة يُلُون لهم إمارة الجيش، وجماعة يُدرّسون في المدارس الموضوعة لذلك، وغالب جراياتهم من بيت المال. فإن قلت: قد يكون من الملوك من هو ظالم جائر.

قلت: نعم، ولكن هذا المتّصل بهم لم يتصل بهم ليعينهم على ظلمهم وجورهم، بل ليقضي بين الناس بحكم الله، أو يفتي بحكم الله، أو يقبض من الدعاوى ما أوجبه الله، أو يجاهد من يحقّ جهاده، ويعادي من تحقّق عداوته، فإن كان الأمر هكذا؛ فلو كان الملك قد بلغ من الظلم إلى أعلى درجاته؛ لم يكن على هؤلاء من ظلمه شيء، بل إذا كان لأحدهم مدخل في تخفيف الظلم، ولو أقل قليل، أو أحقر حقير، كان مع ما هو فيه من المنصب مأجوراً أبلغ أجر؛ لأنه قد صار -مع منصبه- في حكم من يطلب الحق، ويكره الباطل، ويسعى بما تبلغ إليه طاقاته في دفعه، ولم يُعنه على ظلمه، ولا سعى في تقرير ما هو عليه، أو تحسينه، أو إيراد الشبهة في تجويزه، فإذا أدخل نفسه في شيء من هذه الأمور؛ فهو في عداد الظلمة، وفريق الجورة، ومن جملة الخونة، وليس كلامنا فيمن كان هكذا، إنما كلامنا فيمن قام بما وُكل إليه من الأمر الديني، غير مشغول بما هم فيه، إلا ما كان من أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو تخفيف ظلم، أو تخويف من عاقبته، أو وعظ فاعله بما يندفع فيه بعض شرّه.

وكيف يُظن بحامل العلم، أو بذي دين: أن يداخل الظلمة فيما هو ظلم، وقد تبرأ الله سبحانه إلى عباده من الظلم فقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ثم ذكر رحمه الله أدلة تحريم الظلم من الكتاب والسنة] ولا

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في حق العلماء : (...ومن له في الأمة لسان صدق عام، بحيث يُثنى عليه، ويُحمد عليه في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصايح الدُّجى، وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم، وعامته من موارد الاجتهاد التي يُعذرون فيها، وهم الذين يتبعون العلم والعدل، فهم بُعداء عن الجهل والظلم، وعن اتباع الظن وما تهوى الأنفس)⁽¹⁾.

أم أن كل العلماء الذين ذكرناهم، وآخرين لم نذكرهم⁽²⁾ ينكرون عليهم صنيعهم، ويعدونهم من أهل البدع، ويأمرونهم على جناح السرعة بالتخلي عن أعمالهم والتوبة منها، والعودة إلى مجتمعاتهم والسعي في إصلاحها بالعلم والحلم، وبالتالي هي أحسن للتي هي أقوم.

= يخفى على ذي عقل، أنه لو امتنع أهل العلم والفضل والدين من مداخله الملوك، لتعطلت الشريعة المطهرة، لعدم وجود من يقوم بها....) اهـ .

وأخرج ابن زنجويه في الأموال (89/1) من طريق صفوان بن عمرو، عن أبي أمانة الباهلي؛ أنه عُتِبَ في كثرة دخوله على السلطان، فقال: (نؤدي إليهم حقهم).

(1) مجموع الفتاوى (43/28)، وهذا ظننا بعلمائنا الأماجد الذين مرّ ذكرهم.

(2) حتى الذين كان زعماء الجهاد البدعي يعتمدون على فتاويهم المجملة، وشقشقتهم الخرقاء في باب الجهاد، كسلمان العودة، وسفر الحوالي، وعدنان عرعور، وعايض القرني وغيرهم من دعاة الحماسة بلا حراسة؛ حين رأوا أن لهيب دعاة الفتن قد حلّ بديارهم، وصار يأتي على الأخضر واليابس، وشعروا بحرارته ودخانه، وأضحت مصالحهم قيد المزيادات السياسية، تغيرت عباراتهم، وانقلبت تصريحاتهم من تحريضية داعية إلى التمرد والعصيان إلى عبارات مليئة بالتسامح والحكمة، وترك الخروج والاقتتال!، وتملّصوا من صنعة النميّة والتحريش، بل وجعلوا الطعن في الجماعات المتمردة على السلطان منصبا جديدا يقربهم من القنوات الفضائية، ويكسبهم ألقاب الوسطية. والله العاصم من داء التلون.

إِنَّ العلماء⁽¹⁾ بينوا للمغرر بهم والضالين عن منهج السلف أَنَّ المشبوهين كأبي قتادة الفلسطيني، وأبي حمزة الأعور، وغيرهم من أهل الضلال، الذين اعتمدوا على فتاويهم في خروجهم على السلطان، وقتل الولدان والنسوان، لا يمتون إلى المنهج السلفي النقي بصلة، وأنهم ملوثون بكفر القطبية الهالكة، وغارقون في بحر الشبهات، وأنهم دجاجة مرتزقة يكسبون أموالهم من أشلاء المسلمين ودمائهم، وأنهم أناس مرضى نفسيا، لا يرون مسلما على وجه الأرض إلا من وافقهم في باطلهم، وعنفهم الجلي، فالله أسأل أن يبارك في علمائنا الذين كشفوا حال أولئك الثوار، وأن يجعل أعمالهم في ميزان حسناتهم يوم القيام.

(1) وليحذر المغرر بهم أن يكون حالهم كالقوم الذين جاؤوا الحسن البصري وسألوه في الخروج مع ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف فمنعهم وكبح هواهم، فردوا الحق الذي سمعوه، والذي به تكون عصمة دماؤهم بنصرة جاهلية فيها الطعن في الأنساب؛ فقد جاء في الطبقات لمحمد بن سعد الزهري (م: 230) (9/164 ط: الخانجي) بإسناد حسن قال: أخبرنا عمرو بن عاصم، قال: حدثنا سلام بن مسكين، قال: حدثني سليمان بن علي الزبيعي قال: لما كانت الفتنة - فتنة بن الأشعث إذ قاتل الحجاج بن يوسف - انطلق عقبة بن عبد الغافر، وأبو الجوزاء، وعبد الله بن غالب، في نفر من نظرائهم، فدخلوا على الحسن - أي ابن أبي الحسن البصري - فقالوا: يا أبا سعيد ما تقول في قتال هذا الطاغية، الذي سفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام، وترك الصلاة، وفعل وفعل؟ قال: وذكرنا من فعل الحجاج؛ قال: فقال الحسن: أرى أن لا تقاتلوه؛ فإنها إن تكن عقوبة من الله؛ فما أنتم برادّي عقوبة الله بأسيا فكم، وإن يكن بلاء؛ فاضربوا حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين، قال: فخرجوا من عنده وهم يقولون: نطيع هذا العليج! قال: وهم قوم عرب، قال: وخرجوا مع ابن الأشعث، قال: فقُتِلُوا جميعًا. قال سليمان: فأخبرني مرة بن ذباب أبو المعذل قال: أتيت على عقبة بن عبد الغافر وهو صريع في الخندق فقال: يا أبا المعذل لا دنيا ولا آخرة) اهـ. قلت: وهذا وضح من يتكذب فتاوى كبار العلماء، ويهرول وراء الملوثين والبعيدين عن منهج السلف.

وهل يتصور المغرر بهم هداهم الله، وبصّرهم بالحق، وهم في عصر العولمة والهيمنة الدولية؛ أن الجهاد الشريف والشرعي يؤسس على فتاوى فضلة أفغانستان، وأراء أناس تربوا في أحضان الغرب، وملئوا جيوبهم من أموال الكفار، أقوام لا يُعلم لهم سابقة في العلم، ولا حنكة في السياسة، ولا يعرف لهم شيخ على الجادة تربوا في حلقته؟.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ويلحق الذم من تبين له الحق فتركه، أو من قصّر في طلبه حتى لم يتبين له، أو أعرض عن طلب معرفته لهوى، أو لكسل، أو نحو ذلك)⁽¹⁾.

إنني أنصح من يُسمّون أنفسهم بالجماعة السلفية للدعوة والقتال - والسلفية الخالصة منهم براء-، أو بتنظيم القاعدة في المغرب العربي، أو غيرها من الأسماء الجوفاء والخرقاء، ممن تاه عن سبيل الرشاد، وصار عاملاً مربحاً في أيدي الأصولية الصليبية⁽²⁾ بأن يعيدوا النظر في أعمالهم،

(1) الاقتضاء (85/2).

(2) جاء في كتاب (الدين في القرار الأمريكي) لمحمد السمّاك (ص50): (كان الرئيس الأمريكي الأسبق ريغان، وهو من المحافظين يقول: إنه يتمنى أن يمنّ الله عليه بشرف كبس الزر النووي لتحقيق إرادة الله في وقوع (هرمجيدون)، ومن ثم بعودة المسيح، والرئيس بوش الابن نفسه يقول: إنّ الحرب على العراق هي مهمة إلهية، يقوم بها من أجل عالم أفضل).

والملاحظ أن السمّاك هذا متخصص في دراسة الأصولية الأمريكية، وهو مترجم لكتاب: النبوءة والسياسة، (prophecy and politics)، وكتاب: يد الله (forcing Gods Hand)، للمؤلف جريس هالسل (Grace Halseell)، والتي انتشرت في أمريكا على أنها صوت قوي في قول الحقيقة عن الأصولية الأمريكية.

إن الإيمان بحتمية معركة (هرمجيدون) التي تسبق على اعتقاد المحافظين الباطل العودة الثانية للمسيح، يعني بالضرورة عند النصارى الأشرار تعطيل كلّ ما من شأنه ينشر السلام في الأرض، ويقوي أعمدة الأمن في ساحة الأمم، ويطفئ بؤر التوترات الملتهبة في العالم، لهذا نجدهم يدفعون الشرق الأوسط بصورة مستمرة نحو الاضطراب والحروب،

= ويغذّون كلّ فتنة تَنبَت في ديار المسلمين بتزويدها بالمال والعتاد، وإيواء قادتها المتورطين في أعمال إجرامية وتخريبية تحت مظلة "المحافظة على حقوق الإنسان"، كما هو الشأن في العراق، وبعض الدول الإفريقية، فالسلام واستتاب الأمن، واستقرار الأنفس يعطل عند المحافظين النصارى نظرية (هرمجيدون) وبالتالي يؤخر عودة المنتظر على اعتقادهم الفاسد، وبهذه النظرية الكافرة وقع التشابه بينهم وبين الرافضة الأنجاس، ولهذا نجدهم يؤازرون جيش مقتضى الصدر في كربلاء في الخفاء للنقاط المشتركة بينهم، وإن تظاهروا بحربه في العلن، فالقوم يشربون من كنيف واحد.

إن الذي يصنعه الثوار في ديار الإسلام باسم الجهاد، وهو ليس من الجهاد في شيء؛ يخدم النظرية الأصولية للنصارى، ويقوي ركائزها، وفي المضممار نفسه يخدم عقائد الرافضة الأنجاس، التي تصب جميعا في قالب واحد: كلما كثر الهرج والمرج، وغاب السلم والسلام قرب ظهور المنتظر.

وأما الجهاد الشريف والشرعي الذي يتمناه كل مخلص، ويتبناه أهل السنة والجماعة صدقا وحقا في مكانه وزمانه؛ فما أظن يعرف رؤوس الفتن أصوله، ويرضى الغرب والرافضة ظهوره.

وإنني أقول والله المستعان: إنّ الذي صنعه دعاة الإرهاب في وطني الجزائر باسم الجهاد، وأشاعوا أصوله الفاسدة بين الناس؛ قد آزر ما يصنعه الأمريكان في العراق، ورسخ فكرة (هرمجيدون) في أنفس المحافظين النصارى، وشجعهم على المضي قدما للتحرش ببعض الدول الإسلامية، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وأنا العبد الفقير إلى الله، والمشفق على أبناء أمته حين أطالب المغرر بهم بتجنب العنف، والحفاظ على أوطانهم سالمة من نيران الفتن، والابتعاد عن مبارزة العجول من الكفار في الوقت الراهن، أكون قد وضعت بين أيديهم مفتاح النصر والتمكين، مصداقا لقوله تعالى في سورة الصافات الآية (114-116) ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ مُوسَىٰ هَرُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْبَرُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

قال العلامة المفسر الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في تفسير هذه الآية (ص 267): (والتخلص من العدو يسمى نصرا وفتحا وغلبة، كما قال النبي ﷺ في غزوة مؤتة حين كانت الراية مع زيد بن حارثة، ثم كانت مع جعفر بن أبي طالب، ثم كانت مع عبد الله بن رواحة، وكلهم قتلوا رضي الله عنهم، قال: (فأخذها خالد ففتح الله على يديه)، وخالد رضي الله عنه لم ينتصر على الروم، ولم يغلبهم؛ ولكن نجا منهم، فسمى النبي ﷺ

ويزنوها بميزان السلف حقاً وصدقاً، لعلهم يرشدون ويعودون إلى الجادة، والله يعلم المصلح من المفسد.

فالله أسأل أن يكون وليّ أمرنا حاكم البلاد عند حسن ظن أهل السنة به في العالم كلّه، وأن يوّثّه منازل الصادقين والمخلصين، وأن يجعله سبباً في سعادة الشعب الجزائري وازدهاره، وأن يجعله الظل الذي يقي المسلمين حرّ كيد الأعداء من اليهود والنصارى، وأعاونهم من أهل البدع.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (...وأما الحديث النبوي "السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كلّ ضعيف وملهوف"، وهذا صحيح، فإنّ الظل مفتقر إلى آو، وهو رفيق له، مطابق له نوعاً من المطابقة، والآوي إلى الظل المكتنف بالظل صاحب الظل، فالسلطان عبد الله، مخلوق، مفتقر إليه، لا يستغني عنه طرفة عين، وفيه من القدرة والسلطان والحفظ والنصرة وغير ذلك من معاني السؤدد والصمودية، التي بها قوام الخلق، ما يشبه أن يكون ظل الله في الأرض، وهو أقوى الأسباب التي يصلح بها أمور خلقه وعباده، فإذا صلح ذو السلطان؛ صلحت أمور الناس، وإذا فسد فسدت بحسب فساده ولا تفسد من كل وجه، بل لا بد من مصالح، إذ هو ظل الله، لكن الظل تارة يكون كاملاً مانعاً من جميع الأذى، وتارة لا يمنع إلا بعض الأذى، وأما إذا غُدم الظل؛ فسد الأمر...⁽¹⁾.

فالله ربي أسأله أن يجعل ظل حاكم البلاد كاملاً مانعاً من جميع الأذى.

= هذه النجاة فتحا، كما سمى الله تعالى هنا نجاة موسى وهارون وقومه من فرعون أنها نصرٌ وغلبة).

ولا يمكن بحال أن نصف من اجتهد في حقن دماء المسلمين، وإبعادهم عن ملاقات أعدائهم مع ضعفهم وقوة عدوهم بالفزار، بل يوصف بالعكّار كما جاء في بعض النصوص، فمن جنب أمتة الضعيفة الفتن، يكون قد ساق إليها راية النصر، وعصمها من نهش أعدائها، فهل إلى التعقل والحكمة من سبيل؟.

(1) مجموع الفتاوى (45/35-46).

ودائماً مع نعمة الأمن فأقول⁽¹⁾: لقد أنعم الله على سبأ وأغدق عليهم الآلاء المتتابعة وأسكنهم الديار الآمنة، فقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ سبأ: ١٨.

وهذا نبي الله يوسف ﷺ يخاطبُ والديه وأهله ممتنًا بنعمة الله عليهم بدخولهم بلداً آمناً، ومستقرًا مطمئن فيه نفوسهم، وتقر فيه الأعين ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ يوسف: ٩٩، أي آمنين بمشيئة الله من بطش الملوك الجائرين، ومن ضرر القحط والجذب، وهما نعمتان-توفر الأمن، وازدهار الاقتصاد- إذا تحققتا في مجتمع سادته السكينة، وأضحى أهله في رغد من العيش يُحسدون عليه.

وحَبَسَ الله عن مكة الفيل وجعل كيد أصحاب الفيل في تضليل، وأهلكهم تعالى ودمرهم، وردّهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، لتبقى كعبة الله صرحاً آمناً عبر التاريخ يثوب الناس إليها من كل حذب وصوب لما أسبغ الله على أهلها من نعمة الأمن، ورضيها لهم.

والمأمل في حالة بعض العرب قبل الإسلام يجد أنهم كانوا يعيشون حالة من التمزق والفوضى والضّياح، تدور بينهم حروب طاحنة ومعارك ضارية، وفتن صماء وعمياء، بسبب قصيدة شعرية، أو كلمة طائفة من أهوج أحمر، وفي المقابل نجد أن الله قد عصم قريشا من بين كل القبائل من اللهيب وإحن الحروب، وأعلا مكانتها من بينهم، وأذاع صيتها بين القبائل، فصارت بنعمة الله محمية الجَناب، مُهابة الطرف لاحتضانها بلداً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا

(1) استفدت بعض فوائد هذا الفصل من خطبة جمعة لفضيلة الشيخ حسين آل الشيخ حفظه الله، مع شيء من التعديل والزيادة والبيان.

ذكر ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (255/1) من جملة فضائل الوزير بن هبيرة: (كان إذا استفاد شيئاً قال: أفادنيه فلان).

فليمسك على نصالها - أو قال: - فليقبض بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء⁽¹⁾.

وحذرت من إظهار أسباب الرّوع بين صفوف المسلمين، فقال ﷺ: (لا يُشر أحدكم إلى أخيه بالسّلاح؛ فإنّه لا يدري لعلّ الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار)⁽²⁾.

وحزمت على المسلم الإشارة على أخيه المسلم بالسّلاح ولو مازحاً، فقال النبي ﷺ: (من أشار إلى أخيه بحديدة فإنّ الملائكة تلعنه حتى يدعها، وإن كان أخاه لأبيه وأمه)⁽³⁾.

قال الحافظ النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم (170/16): (هذا مبالغة في إيضاح عموم النهي في كلّ أحدٍ، سواء من يُتهم فيه ومن لا يُتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعباً أم لا؛ لأنّ ترويع المسلم حرامٌ بكلّ حال). ودعا الإسلام إلى كلّ عمل يبعث على الأمن والاطمئنان بين صفوف أفرادهِ، وأمر بترك أسباب الفرع في المجتمع ولو كانت صغيرة في أعين الناس، فقال ﷺ: (لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلماً)⁽⁴⁾.

(1) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الفتن (برقم 7075) ومسلم في صحيحه (كتاب البر (برقم 2615) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(2) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الفتن (برقم 7072)، ومسلم في صحيحه (كتاب البر (برقم 2617)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) رواه مسلم (كتاب البر (برقم 2616) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) صحيح: رواه الإمام أحمد في مسنده (362/5) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وأخرجه أيضاً أبو داود في كتاب الأدب (برقم 5004)، والقضاعي في مسند الشهاب (برقم 878)، والبيهقي في الكبرى (249/10)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في غاية المرام (برقم 447).

ولمّا دخل النبي ﷺ مكةَ عامَ الفتح، منح أهلَ مكةَ أعظمَ ما تُثَوِّقُ إليه نفوسهم، فأعطى الأمانَ لهم وقال: (من دخلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاحَ فهو آمن، ومن أغلقَ بابَه فهو آمن)⁽¹⁾.

وتأسيا برسول الله ﷺ قام حاكمُ البلاد أعزه الله بالسنة والتوحيد، وإخوانه المصلحون من أبناء الأمة وأعلنوا عن المصالحة الوطنية، التي من أهدافها الشرعية في نظرنا، ونأمل أن تتجسد في حياة أبناء الجزائر:

الاجتهادُ في تطهير المجتمع من فكر الإقصاء بكل صُوَره، وطِي أَيْامه وفصوله، والسَّعي إلى تطبيق أحكام الشريعة الغراء على قدر المستطاع⁽²⁾،

(1) رواه مسلم: (كتاب الجهاد (1780) عن أبي هريرة عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(2) قال ابن قيم الجوزية في شفاء العليل (623/2): (فأوامر الربّ تعالى رحمة وإحسان، وشفاء، ودواء، وغذاء للقلوب، وزينة للظاهر والباطن، وحياة للقلب والبدن، وكم في ضمنه من مسرة، وفرحة، ولذة، وبهجة، ونعيم، وقرة عين، فما يسميه هؤلاء تكاليف، إنما هو قرة العيون، وبهجة النفوس، وحياة القلوب، ونور العقول، وتكميل للفطرة، وإحسان تام إلى النوع الإنساني، أعظم من إحسانه إليه بالصحة والعافية، والطعام والشراب واللباس، فنعمة على عباده بإرسال رسله إليهم، وإنزال كتبه عليهم، وتعريفهم أمره ونهيه، وما يحبه ويبغضه؛ أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها، بل لا نسبة لرحمتهم بالشمس والقمر والغيث والنبات إلى رحمتهم بالعلم والإيمان والشرائع والحلال والحرام. فكيف يقال: أي حكمة في ذلك، وإنما هو مجرد مشقة ونصب بغير فائدة!، فوالله إنَّ مَنْ زعم ذلك، وظنَّه في أحكم الحاكمين لأضل من الأنعام، وأسوأ حالا من الحمير، ونعوذ بالله من الخذلان، والجهل بالرحمن وأسمائه وصفاته.

وهل قامت مصالح الوجود إلا بالأمر والنهي، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولولا ذلك لكان الناس بمنزلة البهائم يتهارجون في الطرقات، ويتسافدون تسافد الحيوانات، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون عن قبيح، ولا يهتدون إلى صواب.

وأنت ترى الأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النبوة، كيف أصبح أهلها، وما دخل عليهم من الجهل والظلم، والكفر بالخالق، والشرك بالمخلوق، واستحسان القبائح، وفساد العقائد والأعمال، فإن الشرائع بتنزيل الحكيم العليم، أنزلها وشرعها الذي يعلم ما

وبالتي هي أحسن للتي هي أقوم، واستثمار المصالحة بين الذات والتاريخ في بناء الأجيال ورفع الأحقاد، والعدل في التعامل مع أبناء الأمة أمام القانون، وفتح المجال للعلماء والمصلحين لتربية أبناء الوطن تربية صالحة ومثمرة، تعصمهم من الفتن، وتنفعهم يوم الدين، ومناشدة المغرر بهم إلى ترك فكر الخوارج، وضنعة الإرهاب، ورمي السلاح، والتوبة من أفعال الإجرام وأقوال أهل البهتان، والعودة إلى منهج السلف الصالح في القضايا كلها، والانضمام إلى أحضان أبناء الوطن؛ بتوظيف العقل السليم، الذي لا يتعارض والنقل الحكيم؛ فمن فعل هذا فهو آمن وسالم من المطاردة والملاحقة، له الحق كل الحق في أن يعيش في كنف وطنه مكرماً ومُعزّزاً، ومصاناً من أصابع الاتهام التي ما تفتأ دول الشرّ توجهها إلى كلّ مسلم مُستقيم غيور على دينه.

إنّ الحدود العادلة والحازمة في الإسلام على تنوعها ما شرعت إلاّ لتحقيق الأمن في المجتمعات، وزجر أهل المعاصي والفتن من ترويع الخلق أو الاعتداء عليهم وعلى أملاكهم.

قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: (ففي العقوبات الجارية على سنن العدل والشرع ما يعصم الدماء والأموال، ويغني ولاية الأمور عن وضع جبايات تفسد العباد والبلاد)⁽¹⁾.

= في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأسباب سعادتهم الدنيوية والأخروية، فجعلها غذاء، ودواء، وشفاء، وعصمة، وحصناً، وملجأ، وجُنة، ووقاية)اهـ.
قلت: إنّ أحكام الشريعة المحمدية شفاء ودواء من جروح الفتن، وعصمة وحصن من كيد الظالمين، وصولة الإرهابيين، وإنّ أنفسنا لتتشوق لأن ترى بعض الأحكام الشرعية الغائبة عن مجتمعنا المسلم مطبقة من جديد، عالية رايتها في وطن الأحرار، يتفياً ضلالها أبناء الجزائر الأبرار، وليس ذلك على الله بعزيز.
(1) مجموع الفتاوى (148/34).

وإن النفوس تتوحد وتتصالح بالإيمان والأمن، والحياة تزدهر ويشملها عفو الله بهما، والأرزاق تُغدق على الخلق، والتعارف ينتشر بين الناس، والعلوم تُتلقى من منابعها الصافية، والحبل الوثيق بين الأمة وعلمائها يزداد متانة، والروابط تتوثق بين أفراد المجتمع، والكلمة تتوحد، والجميع يأمن بالصلح والأمن، والناس يتبادلون المنافع، والشعائر تُقام بطمأنينة، وحدود الله في أرض الله على عباد الله تُقام بكل سكينة، كل هذه النعم وغيرها يتفيا المسلم ظلالتها إذا حلّ في ربوع وطنه الأمن والإيمان.

وأما إذا اختل الأمن تبدّل الحال، ولم يهنأ أحد براحة بال، فيلحق الناس الفرغ في عبادتهم، فتهجر المساجد، وتتقطع حبال التواصل، ويعمّ الخوف وتزول الطمأنينة، وحينها يعسر على المسلم إظهار شعائر دينه، قال الله سبحانه: ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّتُهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ يونس: ٨٣، وتُعاق سُبُل الدعوة، وينضب وُصول الخير إلى الآخرين، وينقطع تحصيل العلم وملازمة العلماء، ولا توصل الأرحام، ويئس المريض فلا دواء ولا طبيب، وتختل المعاش، وتهجر الديار، وتفارق الأوطان، وتتفرق الأسر، وتنقض عهود ومواثيق، وتبور التجارة، ويتعسر طلب الرزق، وتبدل طباع الخلق، فيظهر الكذب ويلقى الشحّ ويبادر إلى تصديق الخبر المخوف وتكذيب خبر الأمن.

باختلال الأمن تُقتل نفوس بريئة، وترمل نساء، ويئس أطفال، وتفقد أنفس، وإذا سلبت نعمة الأمن فشا الجهل وشاع الظلم وسلبت الممتلكات، وإذا حلّ الخوف أذيق المجتمع لباس الفقر والجوع، قال سبحانه: ﴿فَآذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ النحل: ١١٢.

قال القرطبي رحمه الله: (سَمِيَ الله الجوعَ والخوفَ لباسًا لأنه يظهر عليهم من الهُزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس)⁽¹⁾.

إن الخوف يجلب الغمَّ والهم والأمراض، وهو قرين الحزن، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ التوبة: ٤٠.

ويقول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: (إياكم والفتنة، فلا تهمّوا بها، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال)⁽²⁾.

(1) انظر الجامع لأحكام القرآن (10/194).

(2) انظر سير أعلام النبلاء (3/148-149).

ومن فتن العصر الغربية أن تقوم بعض الشركات الإعلامية لإنتاج الأفلام بمعالجة قضايا الإرهاب بأسلوبها السينمائي الساخر، وطرحها العلماني السافر؛ فتسبب على الإسلام، والاستقامة، والعلم، والتعلم، وإحياء السنن النبوية، والقيام بالواجبات الشرعية؛ من إرخاء اللحية، ولبس القميص، وارتداء الجلباب في حق النساء؛ صفة الإرهاب، والتزمت، والتنطع، والغلو، وتضفي في المقابل على التملص من المبادئ، والخروج على الأعراف المحكمة، والتنازل عن الواجبات والأصول، والانغماس في المعاصي؛ من تبرج، وشرب للخمر، واختلاط قبيح، ورقص، وغناء ماجن؛ صفة التمدن، والحضارة، والانفتاح على الغرب والشرق، وهذا الصنيع الأهوك والأهوج من القائمين على السينما، والمتلاعبين بعقائد المسلمين وثوابتهم عقّد ملف الإرهاب في أذهان كثير من الخلق، وأوقع شقاقا في بيوت المسلمين بين الأبناء المتعلمين والمستقيمين على دين الله القويم، وبين آبائهم المساكين الذين يصدقون كل ما يقال لهم، أضف إلى ذلك أن كُتّاب السيناريوهات من جهلهم المطبق بالشريعة وعلم الاجتماع حصروا الإرهاب في المظهر والشكل، دون أن يحددوا معالمه الحقيقية، ودوافعه الكونية، معتمدين على بعض التقارير الخاطئة التي سريت إليهم من هنا وهناك!.

إن فكر الإرهاب والتطرف لا يعالج إلا تحت أضواء الكتاب والسنة وعلى فهم أهل الحديث الأبرار كالإمام البخاري ومسلم والإمام مالك وأحمد وغيرهم من أهل العلم والدراية، ومن صار على دربهم من علماء العصر، من غير غش ولا تدليس، أو تلاعب بمبادئ الأمة الأصيلة، ومنه فليحذر أبناء الأمة مما يطرح في الأفلام التي تزعم تبصير الأمة بخطر الإرهاب!

وقال ابن تيمية رحمه الله: (والفتنة إذا ثارت عَجَزَ الحكماء عن إطفاء نارها)⁽¹⁾.

قلت: صدق معاوية رضي الله عنه وأرضاه؛ إن الفتن لتورث في القلوب مرض الاستئصال والإقصاء، وتغير وقائع التاريخ، وتمحو بعض صوره المشرقة، وتؤخر الشريف وتقدم الوضيع، فالفتن تجعل دعاة التغريب يحكمون على الناس بدءاً من الشكل والمظهر، ويقيسون أعمال الخلق انطلاقاً من الأيديولوجية التي تربوا عليها؛ قد تكون اشتراكية ماركسية، أو شيوعية ملحدة تنظر إلى المستقيم من أبناء المسلمين بأنه رجعي متخلف ضد الحضارة، ولا يصلح أن يتقلد المناصب العليا، أو أن يكون في الواجهة.

ولهذا كم من مُسلم أُوذي، وظلم بسبب ارتدائه للقميص الأبيض، وإرخائه للحية، مع أنه غاية في حب الوطن، وقمة في الأخلاق، وشعلة في بناء وازدهار الوطن، وكم من طالب علم مُتمكن أبعد عن مناصب التعليم والإرشاد، وهُمّش وغُرب لمحافظته على هندام أجداده، ولإحيائه لبعض سنن نبيه ﷺ، ولكن دعاة التغريب ضاق أفقهم، وتكتمش عطنهم، وذهب عقلهم، فراحوا يرخون الستور، ويحفرون القبور لكل من يخالفهم، ولو كان من أبرّ الناس، وأتقاهم، وأزكاهم عند الله تعالى.

إن صاحب العقل السليم إذا قلب بصره في الآفاق وجد أن الأمن ضرورة في كل شأن، ولن تصل الأمة إلى غاية كمال أمر إلا بالأمن والاستقرار، بل لن تجد مجتمعا ناهضاً وحبال الخوف تهز كيانه، والإرهاب الأعمى يمزق أحشاء أبنائه، والفتنة تعربد من تحت أقدامه، وما حال العراق الجريح عنا ببعيد.

إنّ نعمة الأمن من أعظم نعم الله حقاً وصدقاً على الخلق، حقيق بأن تُذكر ويذكر بها، وأن يُحافظ عليها، وأن تهيأ أسباب بقائها، وتشال عوامل

(1) منهاج السنة (367/4).

ذهابها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَيَأْوِنَكُمْ وَيَأْبَسُوا بِصُرُوءِ وَرَزَقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الأنفال: ٢٦.

ونعمة الأمن تُقابل بالذكر والشكر والحمد والأعمال الصالحات، لا ببناء القباب التي صارت مسرحاً للبدع والشركيات، ولا بإحياء الليالي بالغناء والرقص والشهوات، قال تعالى: ﴿فَإِذَا آمَنْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٣٩. وأمر الله قريشاً بشكر نعمة الأمن والرخاء بالإكثار من طاعته، فقال جلّ جلاله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قريش: ٣ - ٤، والمعاصي والأمن في نزاع قائم، فالذنوب مُزيلة للنعم، وهي سبب حلول النقم، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الأنفال: ٥٣، وما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة، والطاعة هي حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الأمنين.

إنّ العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله والخوف منه، يحقق الأمن والأمان، فابن آدم امتنع من قتل أخيه لخوفه من ربّه جل وعلا، ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ المائدة: ٢٨.

والعناية بالعلم النافع، والتمسك بالكتاب والسنة على فهم السلف شريعةً وقيماً وأصولاً عصمةً من الفتن والإحْن، وللتعليم الشرعي على يد أهله من العلماء والطلبة النجباء أساس في رسوخ الأمن والاطمئنان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن، وحدث البدع والفجور، ووقع الشر بينهم)^(١).

(١) مجموع الفتاوى (310/17).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد)⁽¹⁾.

وما ظهر في الجزائر الغراء من شر وبلاء، وفتن وقلاقل إلا بسبب غياب العلم الشرعي الصافي من كل شائبة، وأما الذي كنا نسمعه من أبواق دعاة الأحزاب الإسلامية -زعموا- على رؤوس المنابر، وفي التجمعات الشعبية؛ لا يعدو أن يكون خطابا سياسيا أعوج أهوك، قاد زمامه طائفة اعتقدت أن العلم معها، وفرحت به، ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ المؤمنون: ٥٣، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص.

طائفة آل أمرها أن اتخذت هواجس الأفكار، وسوانح الخواطر، والآراء علما وحكما وسياسة، ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم *** ونزلت بالبطحاء أبعد منزل.

وقد وصف العلامة ابن تيمية نظائر هؤلاء فقال: (إنهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأخيس المطالب، ويكفيك دليلا على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله [لما] ترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض، قال تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾⁽²⁾.

قلت: طائفة تنكبت منهج سلفها المشرق، وخلطت فلسفة أفلاطون بالشرع الحكيم، وتوشحت فكر المعطلين من منهج السلف؛ من رؤوس الخوارج ودعاة الاعتزال، وأرادتها قرية ملتهبة في زمن العولمة والهيمنة الدولية، قوم لا للسياسة المعاصرة أتقنوا، ولا للسياسة الشرعية رصدوا، بل

(1) إعلام الموقعين (257/2).

(2) ينظر كتاب الفوائد لابن قيم الجوزية رحمه الله.

خليط من لفيف الفوضى ودعاة الهمجية، أيعقل أن تقوم دولة في دولة قائمة منذ آلاف السنين، وبماذا؟!

بالجري في الشوارع، والتجمعات في الملاعب، والخطابات الثورية التحريضية، وبفتح الأبواب لكل ملوث ممن تربى في أدغال أفغانستان لا يصلح لا للعر ولا للقطمير، قوم فارغون من كل نافع وفالح إلا من فكر الأزارقة الخوارج، والانتقام والوحشية، وحبّ التسلط والهيمنة بالباطل، فلقد بُلي أهل الجزائر رعاهم الله من كل سوء بفريقين عاتيين، فريقٌ استتصاليّ باسم الوطنية، وفريق استتصاليّ باسم الدين، والله المستعان.

إنّ العلماء الربانيّين هم ورثة الأنبياء، لا دعاة الفوضى والتمرد، والعصيان المدني، وفي ملازمة العلماء وزيارتهم والاعتناء بهم وإكرامهم، والمحافظة عليهم، وتقديمهم، وسؤالهم⁽¹⁾ والاستنارة بآرائهم سدادٌ في الرأي، وتوفيقٌ للصواب، ودرءٌ للمفاسد والفتن، وتجفيف لمنايع الإرهاب الغاشم، وبركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على يدي أهله العارفين بأصوله تُمنع الشرور والآفات عن المجتمعات، وبحفظ العبد لنفسه من شهوات النفس وشبهات القلب أصلٌ في صيانة المجتمع من المخاوف والمكاره، وتشرب عرفيج الغرب.

وتأويلُ نصوص الشريعة على غير وجهها، وتفسيرها على غير تفسير السلف؛ سببٌ انحراف الفهوم، ومزلق للخروج عن الجادة، ومن داء التأويل والتحريف ينطلق الأعداء في تلويث عقول الناشئة، وحقنها بالأفكار المسمومة، ويزداد أثر العدو وطأة في كبد الأمة حين يضعف التحصن بعلم الشريعة الغراء.

أقول: يجب أن ينهل جميع أفراد الأمة من منبع الكتاب والسنة على فهم السلف؛ من غير تحريف أو تأويل لنصوصهما، وعليهم معرفة ضوابط

(1) جاء في سير أعلام النبلاء (344/3) عن عبد الله ابن عباس أنّه قال: "إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ" قال الذهبي: إسناده صحيح.

الولاء والبراء من غير إفراطٍ فيها أو مجافاة عنها، وبهذا التمسك المتين بالشرعية السمحاء يسعدُ الجميع بالأمن والرخاء.

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور: ٥٥.

إنَّ الأمن مطلبٌ في الحياة لا يستغني عنه الخلقُ لقضاء مصالحهم الدينية والدينية، وما من عبدٍ إلاَّ ويبحثُ لنفسه عن أسباب أمنها، ويتوقَّى جهدَ طاقته أسبابَ الخوف التي قد تُحْدق به في طريق حياته، ومهما أوتي الإنسان من سلامة بدن، ووفرة رزق، فإنَّه لا يشعر بقيمتيهما إلاَّ بالأمن والاستقرار.

والخوف من الله ومراقبته مفتاحُ الأمن للمسلم في دنياه وفي أخراه، وعقد القلب على أركان الإيمان، وتوفيرُ مقتضياته في عمل الجوارح هو المصدر الحقيقي لحصول الأمن في الدنيا والآخرة. والأمن التام هو في طاعة الله ولزوم ذكره، قال سبحانه: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

وإذا استقام الفرد في نفسه وألزمَ مَنْ تحت يده من زوجة وأبناء أو رعية على السَّير وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على فهم السلف الصالح حقَّ الأمن لنفسه، وانتظم الأمن في ربوع مجتمعه، وعاش الكل في هناء وسعادة.

فالله تعالى أسأل أن يعصم ديار الإسلام من شر الفتن، وأن يسبل على أهلها الأمن والإيمان، وأن يقيهم شرَّ الأمراض ما ظهر منها وما بطن، إنه تعالى جواد كريم، وبرّ عليم، وغفور رحيم.

باب:

ذكر بعض الأركان التي تحقق الأمن في الأوطان.

إنَّ رسول الله ﷺ قال: (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)⁽¹⁾.

إنَّ من أعظم نعم الله على عباده أن يُصبح الإنسان آمناً على نفسه، مطمئناً على عرضه وماله، لا يخاف ظلمَ ظالم، ولا جورَ جائر، ولا صولة صائل، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أنَّ من اجتمع له الأمنُ في وطنه والصَّحة في بدنه، مع وجود قوت يومه فقد جُمعت له الدنيا، ولم يفته منها شيء؛ وأي فرد من أبناء الأمة اجتمعت لديه أسباب النعيم العاجل بضوابطه الشرعية، ولم يفته من مسرات الحياة شيء؛ عاش في سعادة ووفاء، بلا غصص ولا قلق ولا اكتئاب.

إنَّ الأمنَ في البلاد مع الصَّحة في الأبدان نعمةٌ يجب أن تشكر وتذكر، فإنَّ من فاتته هذه النعمة لم يسعد من الحياة بشيء، ولذلك جاء في الحكم: (نعمتان مجحودتان الأمن في الأوطان والصَّحة في الأبدان).

وقد امتن الله تبارك وتعالى على أهل مكة في مواضع كثيرة في كتابه بنعمة الأمن كما سبق بيانه، ليلفت الناس إلى شكرها، وينبههم إلى الخطر الذي يصيب الأمة حين فقدانها، وجعل ذلك آية من آياته وبرهاناً من براهين عظمتهم، وقدرته، وألوهيته، وربوبيته، حيث يقول: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۖ لِّأَلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ

(1) إسناده حسن، انظر الصحيحة للعلامة الألباني رحمه الله (برقم 2318)، وصحيح الجامع (برقم 6042).

مَنْ خَوْفٍ ﴿﴾ ويقول عز وجل: ﴿﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿﴾ ويقول عز وجل: ﴿﴾ وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهَدْيِ مَعَكَ نُنْخَاطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أُولَئِكَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرَبٍ بِطَرَتِ مَعِيشَتَهَا فَلَئِكَ مَسْنَكُهُمْ لَمْ تُسْكِن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿﴾

وقد أشار الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم إلى أسباب حصول الأمن، وأمر وحث على الأخذ بها، وتحقيقها والمحافظة عليها؛ حتى تسعد البشرية في كنف الأمن والاستقرار، ورغد العيش، ومن هذه الأسباب العظيمة:

أولاً: تحقيق توحيد الله في الأرض سبب عظيم لانتشار الأمن في ربوع الأمة الإسلامية:

إنَّ أساس الأمن والاستقرار الإيمان بالله تعالى، وتحقيق توحيد الرب تعالى في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، والبعد عن الوقوع في الشرك الذي هو ظلم عظيم يكون سبباً للهلاك والردى، وحبس القطر من السماء، وإراقة الدماء، ولذلك قال الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿﴾ ثم بيّن أصول الأمن وأعظم أسبابه فقال: ﴿﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿﴾ فإنَّ العبد إذا عرف ربه، وآمن به عز وجل، ووحدته تعالى، والتجأ إليه، وعصم نفسه من الوقوع في الشرك بكل صورته؛ كان حرياً بوقاية الله من شرور أنفاسه وحبائل أعدائه، وصدق الشاعر حين قال:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة *** من الدروع وعن عال من الأطم

وقال الآخر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها *** نم فالمخاوف كلهن آمان.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده من طريق موسى بن عُلَيٍّ، قال: سمعت أبي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تدرون من المؤمن؟) قالوا الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: (مَن آمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم)⁽¹⁾.

إنَّ الإيمان بالله تعالى على الصورة التي كان عليها السلف الصالح كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ينشر الأمن في ربوع الأمة، ويرفع عنها الشقاق والتباغض، ويجنبها الحروب الطائفية البغضاء، ويُعلي من مستوى اقتصادها، ويجنبها شر ما تكره، ولهذا وجب على مَن ولَّاه الله تعالى على المسلمين الاعتناء بهذا الباب العظيم، ونشر المراجع التي تُثبِت الإيمان في قلوب النَّاس، وتُزكِّيهم وتُطهرهم من براثن الشُّرك، والأفكار الوافدة على منهج السلف، إذا رغب في انتشار الأمن في محيط ولايته، ومن ولَّاه الله عليهم.

إنَّ توحيد الله تعالى على فهم السلف حقَّ الربِّ جلَّ وعزَّ على العبيد، وأعلا طبقة تدرك حقه سبحانه وتعالى من الخلق بعد الأنبياء والصَّحابة هم العلماء الربانيون، لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ولهذا يجب على أبناء الأمة بكل أطرافهم أن ينزلوا العلماء منزلتهم التي ارتضاها الله لهم، وأن يجلسوا بين أيديهم في حلق العلم، حتَّى يدركوا حق بارئهم ومولاهم، وحتَّى يتجنَّبوا

(1) المسند(2/206)، وإسناده صحيح.

وأخرجه الإمام أحمد (21/6)، والطبراني في الكبير (309/18 برقم 796)، والحاكم في المستدرک (10/1-11)، من طريق الليث بن سعد عن أبي هانئ الخولاني، عن عمرو بن مالك الجنبی، عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: (ألا أخبركم بالمؤمن؟ من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم) وإسناده حسن.

الخلط بين حق الخالق والمخلوق، فيقعون في الظلم الذي يجلب للأمة الغم والهم والحزن، قال تعالى مخبرا عن لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فهذه موعظة عظيمة من لقمان لابنه، لعلمه أن التوحيد الخالص نجاة من الهلاك، وعصمة من الشر، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد؛ كما أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما⁽¹⁾ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربّ العرش الكريم، لا إله إلا الله ربّ السماوات وربّ الأرض وربّ العرش الكريم)، والتوحيد دعوة ذي النون وهو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)⁽²⁾ دعوة ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربته، وأذهب عنه الغم والهم.

فلا يلقي في الكروب العظام، والفتن والمحن والإحن إلا الشّرك بالله، ولا ينجي منها إلا التوحيد الخالص؛ فهو مفرّج الخليقة وملجؤها وحصنها وغيّاتها، وبالله التوفيق.

وعن أم أسماء ابنة غميس قالت: علّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن عند الكرب: (الله، الله ربّي لا أشرك به شيئا)⁽³⁾.

وأخرج الإمام أحمد من طريق جعفر بن ميمون، حدثني عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال لأبيه: يا أبة إني أسمعك تدعو كلّ غداة: (اللهم عافني

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم 6345)، ومسلم (برقم 2730).

(2) أخرجه الإمام الترمذي (برقم 3505)، والإمام أحمد (170/1)، وأبو يعلى (برقم 772)، والطبراني في الدعاء (124) والحاكم (505/1)، (382/2)، وغيرهم وصحّحه العلامة محمد ناصر الدين الألباني.

(3) أخرجه الإمام أبو داود (برقم 1520 ط/ عوامة)، وابن ماجه (برقم 3882)، والإمام أحمد (369/6) وغيرهم، وإسناده صحيح إن شاء الله بطرقه، وقد أطال العلامة محمد ناصر الدين الألباني الكلام عن الحديث في الصحيحة (برقم 2755) فراجعه فإنه مهم.

في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت) تعيدها ثلاثا حين تصبح، وثلاثا حين تمسي، وتقول: (اللهم إنِّي أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهم إنِّي أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت)، تعيدها حين تصبح ثلاثا، وثلاثا حين تمسي.

قال: نعم يا بني، إني سمعت النبي ﷺ يدعو بهنّ، فأحبّ أن أستن بسنته. قال: وقال النبي ﷺ: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفه عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)⁽¹⁾.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (فالتوحيد ملجأ الطالبين، ومفرج الهارين، ونجاة المكروبين، وغيّاث الملهوفين، وحقيقته أفراد الربّ سبحانه بالمحبة والإجلال والتعظيم، والدّل والخضوع)⁽²⁾.

ولا ريب ولا شك أن توحيد الله جلّ جلاله أشرف الأعمال، وأسمى المطالب، وهو الذي من أجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الخلائق وسلت السيوف، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: (إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وفضائل هذه الكلمة وحقائقها، وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، وهي حقيقة الأمر كلّ

(1) أخرجه الإمام أحمد (429/5)، والبخاري في الأدب المفرد (برقم 701) وأبو داود في السنن (برقم 5090)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (برقم 651-572.22)، وغيرهم، وجعفر بن ميمون ضعيف يعتبر به.

وله شواهد كثيرة، وقد حسّنة العلامة محمد ناصر الدين الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص 260 برقم 539).

(2) إغاثة اللهفان (2/188 ط/المكتب الإسلامي).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾⁽¹⁾.

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله عند شرحه لحديث أبي سعيد في خروج معاوية إلى المسجد ووجد قوما يذكرون الله فقال: (ما يجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل، قال: الله ما أجلسكم إلا ذلك؟! قالوا: ما أجلسنا إلا ذلك... إلى آخر الحديث وهو في صحيح مسلم، ما يلي: (فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه، ويثنون عليه بذلك، ويذكرون حسن الإسلام، ويعترفون لله بالفضل إذ هداهم له ومنّ عليهم برسوله، وهذا أشرف العلوم على الإطلاق، ولا يُعنى به إلا الراسخون في العلم، فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله، ودينه، ورسوله، ومحبة ذلك، وتعظيمه، والفرح به، وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهي الله بهم الملائكة)⁽²⁾.

وقال كذلك رحمه الله في مفتاح دار السعادة: (وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه، ولشدة الحاجة إلى معرفته، وعظم النفع بها، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السماوات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين، ومفتقر إليه في

(1) مجموع الفتاوى (256/3).

(2) مفتاح دار السعادة (291/1).

تحقيق ذاته وأيتيته، وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقيق ذاته إليه، فالعلم به أصل كل علم، كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده⁽¹⁾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعاً: (إني لأعلم كلمة لا يقولها أحدٌ عند موته إلا كانت نوراً لصحيفته، وإن جَسَدَه وروحَه ليجدان لها روحاً عند الموت)⁽²⁾.

(1) (311/1).

(2) رجاله في بعض طرقه ثقات لكنه اختلف فيه على الشعبي فرواه إسماعيل بن أبي خالد - ثقة ثبت - عن الشعبي عن يحيى بن طلحة عن أمه سُعدى المريّة قالت: مر عمر بطلحة بعد وفاة رسول الله ﷺ فذكره.

أخرجه ابن ماجه (برقم: 3795، كتاب الأدب فضل لا إله إلا الله)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (1101)، وابن حبان في صحيحه (برقم: 205)، والمزي في تهذيب الكمال (196/35)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (برقم: 205)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (339/1، برقم: 393).

قلت: واختلف فيه على إسماعيل بن أبي خالد.

فرواه شعبة عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن رجلٍ عن سُعدى امرأة طلحة أن عمر مرَّ بطلحة فذكره.

أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (برقم: 206)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (240/1 برقم: 394) وابن خزيمة في التوحيد (794/2 برقم: 519).

وشعبة: هو ابن الحجاج بن الورد العتكي أبو بسطام الواسطي أمير المؤمنين في الحديث ثقة حافظ متقن صاحب سنة روى له أصحاب الكتب الستة وقد جعل بين الشعبي وامرأة طلحة رجلاً.

ورواه محمد بن عبيد قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن رجل عن الشعبي قال مر عمر بطلحة. أخرجه أحمد (برقم: 252 ط: شعيب).

ومحمد بن عبيد لم يتبين لي من هو، والشعبي ليست له رواية عن عمر.

ورواه مسعر عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن يحيى بن طلحة عن أمه سُعدى قالت: مر عمر بطلحة وذكره.

أخرجه ابن ماجه والنسائي في عمل اليوم والليلة وابن حبان والمزي وابن أبي عاصم وأبو نعيم . ومسعر: هو ابن كدام الهلالي أبو سلمة الكوفي ثقة ثبت فاضل روى له أصحاب الكتب الستة. =

قال ابن القيم رحمه الله: (فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى، وعيشه أطيب عيش، قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿النازعات: ٤٠ - ٤١﴾، فالجنة مأواه يوم القيامة، وجنة المعرفة والمحبة والأنس والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى به وعنه، مأوى روحه في هذه، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا كانت جنة الخلد مأواه يوم القيامة، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً، والأبرار

= قلت: والله أعلم بعد البحث ترجحت عندي رواية مسعر على شعبة.
قال أبو زرعة: سمعت أبا نعيم يقول: مسعر أثبت ثم سفيان ثم شعبة.
وقال شعبة: كنا نسوي مسعراً المصحف.
وقال سفيان: كنا إذا اختلفنا في شيء سألنا مسعراً عنه.
وقال إبراهيم الجوهري: كان شعبة وسفيان إذا اختلفنا قال: اذهب بنا إلى الميزان مسعر.
قلت: وأخرجه أحمد (برقم: 1384-1386، ط: شعيب)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (1100)، وأبو يعلى (655)، والحاكم (351-350/1) من طريق مطرف عن الشعبي عن يحيى بن طلحة بن عبيدالله عن أبيه فذكره.
قلت: والشعبي مكثر ولعله أخذه من كذا طريق.
وأخرجه أحمد (برقم: 187، ط: شعيب)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (1098)، وأبو يعلى (640)، والبزار (930)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (204)؛ عن مجالد عن عامر الشعبي عن جابر بن عبدالله قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لطلحة بن عبيدالله فذكره.
قال أبو بكر البزار: ولا نعلم جابر بن عبدالله روى عن طلحة إلا هذا الحديث، ولا رواه عن مجالد إلا عبدالله بن نمير.
قلت: مجالد هو ابن سعيد بن عمير الهمداني ليس بالقوي، وتفرد عنه عامر الشعبي بهذا السند منكر.

في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضائق عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا...⁽¹⁾.

فأي عاقل أراد علو بنيانه، وظهوره إلى الوجود في صورة بهيجة، وإقامة حضارة عريقة ومتينة الأعمدة؛ فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه، وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان وبقائه شامخا على قدر توثيق أساسه وإحكامه.

فالمصالحة الوطنية، والعفو الشامل، والأخوة الإسلامية، والأعمال الصالحات من فشوا الأمن، وازدهار الاقتصاد: بنيان جميل يسر الناظرين؛ وأساسه توحيد الله والإيمان به على فهم السلف الصالح، ومتى كان الأساس متينا؛ حمل البنيان واعتلي عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، أما إذا كان الأساس هشاً، وغير وثيق، لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط أو كاد.

فالحاكم العالم بدينه، والخبير بقضايا أمته، والطامح في بناء حضارة عريقة تبقى خالدة للأجيال، يجد ثوابها عند ذي الجلال والإكرام؛ تكون همته تصحيح الأساس وإحكامه مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَتَسَسَ بِئِكَفَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ أَتَسَسَ بِئِكَفَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَاكِرٍ فَاتَّهَارَ بِهِ، فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ التوبة: ١٠٩.

فيا أبناء الجزائر الغراء احملوا بنيانكم على قوة أساس الإيمان والتوحيد، فإذا تشعث شيء من أعالي البنيان وسطحه بسبب الفتن؛ كان تداركه أسهل عليكم من خراب الأساس، والله الهادي إلى الحق، وهو يعلم المصلح من المفسد.

(1) الداء والدواء [ص:302)، تحقيق: الشيخ علي حسن الحلبي].

ثانيا: مِنْ رِكَائِزِ الْأَمْنِ انْتِشَارُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ.

لقد وعد الله تبارك وتعالى أهل الإيمان والعمل الصالح؛ أن يمكن لهم في الأرض؛ حُكْمًا، واقتصادًا، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمانًا واستقرارًا، يملئون الأرض نورا وسِلْمًا ورُقِيًّا؛ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ النور: ٥٥ - ٥٦.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير آية سورة النور السابقة: (هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمانًا وحكمًا فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك وله الحمد والمنة^(١)).

إنّ انتشار العمل الخيري في الأمة؛ -من كفالة اليتيم، وإنشاء المعاهد الشرعية لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم الشرعية على أيدي أهل الصنعة، وإعطاء الرخص للجمعيات الخيرية للإحسان إلى الناس كما هو الحال في دول الخليج-، عونٌ على شرح صدور الناس على بثّ الفضيلة ودفع الرذيلة، ورفع للشر من بين أفراد المجتمع، وبثّ للألفة والتعارف بين الناس، وزوال للتحاسد والتباغض، وذوبان للطبقية التي جعلت صنفا من الناس في غاية الاكتئاب، والقلق لقلّة علمهم بقضاء الله وقدره، فتراهم يتمنون السيارات الفخمة، والمساكن الفاخرة بلا كدّ ولا جدّ، فإن لم يتحقق لهم شيء من ذلك أصيبوا بضغط في الأعصاب، وفقدوا عقولهم، والسيطرة

(١) تفسير ابن كثير (١٠/٢٦٣ ط: مكتبة أولاد الشيخ).

على أنفسهم، وللخروج من عالمهم الذي يرونه مليئاً بالجور والظلم، يهرعون إلى المخدرات، وإلى كل ما يذهب للعقل إحساسه؛ فما أكثر المجانين في هذا الزمان بسبب ضعف عقيدة القضاء والقدر في الأنفس، والله الحافظ من كل شر.

وقد وعد الله تبارك وتعالى كل من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن بالحياة الطيبة والكرامة، والتي يكون الأمن، والسكينة، وراحة البال، والرزق الحلال، من أبرز مظاهرها حيث يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٩٧.

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحييه حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمل في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح في الدنيا الحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة؛ فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين)⁽¹⁾.

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه)⁽²⁾.

(1) الجواب الكافي (ص 177).

(2) صحيح رواه الإمام مسلم في صحيحه (برقم 1054، كتاب الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يَعْطِي بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيَجْزِي بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةً يَجْزِي بِهَا)⁽¹⁾.

إِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَالْقَائِمَةَ بِالْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ سَبَبُ الْهَدَايَةِ، وَالْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ الْمَتِينِ، فَيَقُومُ بِالْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ أَعْمَالُ تَقْتَضِي الْهُدَى اقْتِضَاءَ السَّبَبِ لِمُسَبِّبِهِ وَالْمُؤَثِّرِ لِأَثَرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحِبُّ أَعْمَالَ الْبِرِّ فَيَجْازِي عَلَيْهَا بِالْهُدَى، وَالْفَلَاحِ، وَالْأَمْنِ، وَالْازْدَهَارِ، وَالصَّلَاحِ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ تَعَالَى الْبِرُّ الرَّحِيمُ، وَيَحِبُّ أَهْلَ الْبِرِّ، فَيَقْرَبُ قُلُوبَهُمْ مِنْهُ بِحَسَبِ مَا قَامُوا بِهِ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ، وَيَعْصِمُهُمْ جَلَّ جَلَالُهُ مِنَ لَهْيَبِ الْفِتَنِ وَأَوَارِهَا، وَيَجْعَلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُمَمِ الظَّالِمَةِ حِجَابًا مُسْتَوْرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ وقال تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فَبِالتَّقْوَى يُعْطِيهِمُ اللَّهُ نُورًا يَفْرُقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَنَصْرًا وَعِزَّةً يَتِمَكَّنُونَ بِهَا مِنَ إِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ.

وقال تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

إِنَّ الْقَلْبَ إِذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ طَيِّبَةً بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، تَبَعَتْهُ حَيَاةُ الْجَوَارِحِ، فَإِنَّهُ مَلِكُهَا.

وقال تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾. فَالاستغفار، وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَحَبَّتَهُ وَطَاعَتَهُ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ قَلْبًا وَقَالِبًا؛

(1) صحيح أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (برقم 2808).

ضماناً إن شاء الله لأطيب الحياة في الدنيا من راحة البال، والطمأنينة، ودفعاً إلى العمل الصالح الذي يعود على الفرد والأمة بالنفع في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: ومن ركائز بقاء الأمن إكرام العلماء وتقديمهم للنظر في قضايا الأمة النازلة⁽¹⁾:

إن حاجة الأمة إلى العلماء أكثر من حاجتها إلى الأطباء والمهندسين، فهم زينة الحياة الدنيا، ومرجع الأمة في القضايا المدلّهمة، والله جلّ وعلا قد رفع منزلتهم في القرآن، وأشاد بشأنهم بأوضح بيان فقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وجعلهم من أهل الشهادة على وحدانيته، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فينبغي على الأمة حكاماً ومحكومين أن تظهر حاجتها إلى العلماء، ورغبتها الشديدة في الاستفادة من علومهم، فإن ذلك أولاً: يبعث على تنشيط العالم على البحث والتحقيق، والمشاركة في علاج مشاكل أمتهم بما استطاع.

وثانياً: يحفز أبناء الأمة إلى السعي في تحصيل المنافع والعلوم، مادامت الأمة بهذه الخاصية، من توقير للعلماء، والرفع من شأنهم، فهذا نبي الله موسى ﷺ وهو من أولي العزم من الرسل يقول لنبي الله الخضر: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (إظهار حاجته إلى المعلم، وأنه يتعلم منه مشتاق إلى ما عنده، بخلاف حال أهل الكبر

(1) لأن بتوقير العلماء الربانيين ينتشر العلم الصحيح، وتتحقق طاعة الله ورسوله، وتزول الشبه وتقوم الحجة على الخلق، وإلا كان الوقت وقت فترة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (71/19): (ولكن طاعة الرسول إنما تكمن مع العلم بما جاء به والقدرة على العمل به، فإذا ضعف العلم والقدرة صار الوقت وقت فترة في ذلك الأمر).

والجفاء؛ الذين لا يظهرون حاجتهم إلى علم المعلم، فلا أنفع للمتعلم من إظهار الحاجة إلى علم المعلم، وشكره على تعليمه).

لقد قيل: إنّ العلمَ رحمٌ بين أهله، فإذا قوي اعتناء الأمة بالعلماء والاستفادة منهم، ورأى العلماء ذلك ظاهراً على الأمة قويت الصلة بينهما وازدادت وتوثقت أكثر وأكثر.

روى عبد الرزاق في مصنفه بسنده إلى طاووس أنه قال: (من السنة أن يوقر أربعة: العالم، وذو الشيبة، والسلطان، والوالد).

إن العلماء مرجعُ الأمة في الأحكام الشرعية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٤٣، وقد أمر الله بالرجوع إليهم في الأمور المهمة والعويصة، وما يتعلق بمصالح الأمة في معاشها ودنياها، وما يستجد من النوازل الجديدة، وما يحصل لها من فتن وشُرور، تهز أمنها وتضعف كيانها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فإذا حلّ بالأمة فتنٌ وقلق فأول ما تفعله بعد لجوئها إلى الله تعالى أن تسأل أهل الذكر عن الحلول الشرعية في معالجة الأزمة، وعن طبيعتها وخطورتها، ونواتجها على أمن الأمة واقتصادها، وهل لها مشكلات في التاريخ الإسلامي، وكيف تمّ علاجها؟ وهكذا... وهذا الطريقُ السديد - وللأسف الشديد - قلّ من يتنبه له ممن بأيديهم زمام الأمر، بل يلجئون أحياناً إلى حلول مستوردة وهجينة، لا تلائم طبيعة المعضلة، ولا تتماشى وأعراف البلاد، بل وفي بعض الأحيان يهملش العلماء وطلبة العلم قصداً؛ هذا إذا لم يُنكلُ بهم، ويُسامون أشد العذاب.

إنّ النماء والبركة والخير في العودة إلى أهل العلم صدقا، وسؤالهم

عن المعضلات التي أحلت بالأمة، فقد قال النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عباس: (البركة مع أكابرکم)⁽¹⁾.

قال عبد الرؤوف المناوي في شرحه للحديث: (المُجَرَّبِينَ لِلْأُمُورِ، المحافظين على تكثير الأجور، فجالسوهم لتقتدوا برأيهم، وتهتدوا بهديهم،

(1) هذا الحديث يروى مرسلًا ومتصلًا، قال ابن عدي: (هذا رواه عن ابن المبارك جماعة فأُسْنَدُوهُ، والأصل فيه مرسل)، وقال أيضًا: (وهذا لا يروى موصولًا إلا عن ابن المبارك، رواه عنه نعيم بن حماد، والوليد بن مسلم، وبقية هذا، والأصل فيه مرسل)، وقال أبو حاتم البستي: (لم يحدث ابن المبارك هذا الحديث بخراسان، وإنما حدث به بدر بن الروم، فسمع منه أهل الشام، وليس هذا الحديث في كتب ابن المبارك مرفوعًا).
أخرجه ابن حبان في صحيحه (319/2 برقم 559) وأبو بكر الشافعي في الغيلانيات (برقم 935) من طريق عمرو بن عثمان، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، قال: حدثنا ابن المبارك بدر بن الروم، عن خالد الحذاء، عن عكرمة عن ابن عباس به.
وأخرجه الخطيب في تاريخه (491/12 ترجمة عيسى بن عبد الله العسقلاني) والقضاعي في مسند الشهاب (برقم 36)، وابن عدي في الكامل (259/5)؛ من طريق عيسى بن عبد الله بن سليمان، عن الوليد بن مسلم، عن ابن المبارك به.
وأخرجه القضاعي (برقم 37) من طريق الخطاب بن عثمان، عن الوليد بن مسلم به.
وأخرجه أبو نعيم في الحلية (145/8 برقم 3153 ترجمة ابن المبارك) والذهبي في السير (410/8) من طريق نعيم بن حماد، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ابن المبارك به
قال حماد: قلت للوليد أين سمعت من ابن المبارك؟ قال: في الغزو.
وخالف القوم هشام بن عمار فرواه عن الوليد بن مسلم وقال فيه: عن عكرمة عن النبي ﷺ ولم يذكر فيه ابن عباس.
وأخرجه الحاكم في المستدرک (62/1) من طريق نعيم بن حماد و عبد الوارث بن عبيد الله العتكي قال: ثنا عبد الله بن مبارك أنبأنا خالد بن مهران الحذاء، عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا.
وأخرجه ابن عدي في الكامل (77/2) من طريق هشام بن عبد الملك أبي التقي، ثنا بقية بن الوليد الحمصي، عن ابن المبارك، عن خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعًا.
وقد صحح الحديث الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله كما في الصحيحة (برقم 1778) مع الانتباه لبعض الخلط في الأسانيد وقع فيه الشيخ رحمه الله.

أو المراد من له منصب العلم وإن صغر سنه فيجب إجلالهم حفظاً لحرمة ما منحهم الحق سبحانه وتعالى .. (1) اهـ.

وقال أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي اللبيب الناصح: (مثل العلماء كمثل النجوم التي يهتدى بها، والأعلام التي يقتدى بها، فإذا تغييت تحيروا، وإذا تركوها ضلوا) (2).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (وكان بنو إسرائيل كلّما هلك نبيّ خلفه نبيّ، فكانت تسوسهم الأنبياء، والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل) (3).

إنّ الحكم الصحيح على القضايا والنوازل لا يتأتى إلا بمعرفة الواقع (4) على ما هو عليه، وهذا الواجب قد تحمل عبأه العلماء، فهم مع درايتهم

(1) فيض القدير (220/3).

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية (256/2) وابن أبي شيبة (193/7 برقم 35168)، وحنبل في جزئه (برقم 39)، والبيهقي في المدخل (برقم 395) من طريق عبد الوهاب الثقفي، وحماد بن زيد، عن أيوب بن أبي تميمة [كيسان] عن أبي قلابة.

وقد جاء في المصنف والحلية: عن أيوب عن كتاب أبي قلابة، والصواب ما أثبتته.

(3) مفتاح دار السعادة (1/451 ط: دار ابن عفان).

(4) قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في الضوابط الشرعية لموقف المسلم في الفتن (ص45): (فإن الفهم للواقع عند أهل العلم ينقسم إلى قسمين: القسم الأول: فهم لواقع ينبنى عليه الحكم الشرعي، فهذا لا بد منه، وفهمه مُتَعِين، ومَنْ حَكَمَ في مسألة دون أن يفهم واقعا فقد أخطأ، فإذا كان للواقع أثر في الحكم فلا بد من فهمه. القسم الثاني: واقع لا أثر له في الحكم الشرعي، فإنه يكون من واقع كيت وكيت، وكذا وكذا، وقصصا طوالا.. ولكن لا أثر لذلك الفهم، ولتلك القصص، ولتلك الأحوال؛ لا أثر لها في الحكم الشرعي أبدا) اهـ. ينظر للفائدة كتاب إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (4/ 204-228). قلت: أما ما يشترطه بعضُ الحركيين من أن يكون العالم خبيرا بهراء الجرائد على كثرتها، وتلوّن أخبارها، وتدليسها، وعاكفا على تتبع أخبار القنوات الفضائية، وغارقا في الاستماع إلى التحاليل السياسية، فهذا شيء باطل لا يقوله عاقل والله المستعان.

بالفقه في كليات الأحكام، فهم كذلك لهم قدم السبق في معرفة أحكام الحوادث الكلية، والوقائع وأحوال الناس.

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص198): (فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الأحكام الشرعية الكلية، فالجاهل بواحدة من هذه الأمور لا يحل له الإقدام على الحكم بين الناس).

قلت: صدق رحمه الله، فكم من مُتحدث عن كارثة الإرهاب عبر القنوات المرئية أو المسموعة، وهو في حقيقة أمره جاهل بكلياتها، غريب عن تحديد مظاهرها، فتراه والعياذ بالله يُشَرِّق حيناً ويُغَرِّب أخرى، ويلوك عبارات لا يعرف معناها، ويقذف تهماً من غير موازين شرعية، ولا ضوابط عقلية سليمة، وإذا رُدَّ قوله في نحره، وانثقد بشدة وقيل له: ما هذا العلاج الذي فاجأتنا به، ألا ترى أنك زدت به القضية تعقيداً وعفناً، وجعلتها فضى في جراب؟ نطق متبسماً والجهل يصحب أنفاسه: المهم المشاركة فقط، والله المستعان، وليس على دين الرّسل أضّر من الجهّال، بل هم أعداؤهم على الحقيقة كما قال ابن قيم الجوزية رحمه الله.

إن الذي يحقُّ له تحقيق المناط، وإسقاط الأحكام على النوازل هم العلماء، ولهذا كان أهل العلم يشيدون بالعالم العارف لواقعه، فقد مدح القاضي عياض خلف المعلم ورفع من شأنه وقال عنه: (كان عالماً بنوازل الأحكام)، كما في ترتيب المدارك (2/489).

وقال الحافظ ابن حجر كما في المجمع المؤسس (74/3) ممتدحاً شيخه شهاب الدين أبا هاشم الظاهر المعروف بابن برهان: (وكان كثير الإنذار لكثير مما وقع من الفتن والشُرور، لما جبل عليه من الإطلاع على أحوال الناس).

ومما يحضرني في هذا المقام مقولة علامة الشّام محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله لمّا بلغه اغتيال رئيس الجزائر السابق محمد بوضياف رحمه الله، بكى هذا العالم الجليل شفقة على أبناء الجزائر وقال في مكالمته هاتفية: (قد فُتح على أهل الجزائر شرٌّ عريض).

إنّ علماء أهل الحديث والأثر وإن لم يكونوا دكاترة، ولا محلّين سياسيين! فهم خلاصة الأمة ولُبّها، وغرس الله في هذا الدين، وهم المؤهلون للمراتب العالية، والجديرون بدلالة الخلق على طريق النجاة؛ إذا قدمتهم الأمة، وعرفت منزلتهم، وأكرمتهم، وذبت عن أعراضهم، ومنحتهم الإذن لتعليم الناس وتفقيهم؛ فإنه سيستقر أمنها، ويذيع الخير في ربوعها، ويعيش كلّ أبناء الأمة في أمن وسلام.

قال الحافظ النووي رحمه الله وغفر له، كما في طبقات فقهاء الشافعية تهذيب الحزي (1/74-75): (فإن معرفة الإنسان بأحوال العلماء رفعة وزين، وإن جهل طلبة العلم وأهله بهم لوصمة وشين، ولقد علمت الأيقاظ أن العلم بذلك جُم المصالح والمراشد، وأن الجهل به أحدى جوالب المناقص والمفاسد، من حيث كونهم حفظة الدين الذي هو أس السعادة الباقية، ونقله العلم الذي هو المرقاة إلى المراتب العالية، فكمال أحدهم يُكسب مؤداه من العلم كمالا، واختلالها يورث خللا وخبالا، وفي معرفته لهم معرفة من هو أحقّ بالاعتداء، وأحرى بالاعتفاء، والجاهل بهم من مقتبسة العلم مُسو لإمحاله عند اختلافهم بين الغث والسمين، غير مميز بين الرث والوزين، وقد رُوينا عن مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح رضي الله عنه أنّه قال: أن أول ما يجب على مبتغي العلم وطالبه أن يعرفه؛ مراتب العلماء في العلم، ورجحان بعضهم على بعض.

ولأن المعرفة بالخواص أصرة ونسب، وهي يوم القيامة وصلة إلى شفاعتهم وسبب، ولأن العالم بالنسبة إلى مقتبس علمه بمنزلة الوالد بل

أفضل، فإذا كان جاهلا به فهو كالجاهل بوالده بل أضل، ولعمري إن من يسأل من الفقهاء عن المزني والغزالي مثلا، فلا يهتدي إلى بعد ما بينهما من الزمان والمنزلة لمنسوب من القصور إلى ما يسوؤه، ومن النقص إلى ما يهبطه) اهـ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله ﷺ موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم، وإذا كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماءها شرارها، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سننه، بهم قال الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا)⁽¹⁾.

وقال الماوردي رحمه الله (م:450): (فأما العلم فينبغي للملك أن يعرف فضله، ويستبطن أهله، ليكون بالعلم موسوما، وإليه منسوب، فإن الإنسان موسوم بسيما من قاربه، ومنسوب إلى أفاعيل من صاحبه)، [ثم ذكر رحمه الله مساوئ إهمال العلماء وترك مراعاتهم ومن تلك المساوئ قال:] (ثم لا يبعد أن يظهر أهل نحلة مبتدعة، ومذاهب مخترعة، يزوقون كلاما مُمَوِّها، ويزخرفون مذهبا مشبوها، يخلبون به قلوب الأغمار، ويعتضدون على نصرته بالسفلة الأشرار، فيصب الناس إليهم، وينعطفون عليهم، بخلاصة كلامهم، وحسن الطافهم، مع أن لكل جديد لذة، ولكل مستحدث صبوة، وقال النبي ﷺ: "إن أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان"، فتصير حينئذ البدع فاشية، ومذاهب أهل الحق واهية، ثم يفضي بهم الأمر إلى التحزب والعصبة، فإذا رأوا كثرة جمعهم، وقوة شوكتهم، داخلهم عزّ القوة، ونخوة الكثرة، فتضافر جهال نسّاكهم، وفسقة علمائهم بالميل على

(1) مقدمة رفع الملام عن أئمة الأعلام.

مخالفيهم، فإذا استتب لهم ذلك، زاحموا السلطان في رئاسته، وقبحوا عند العامة جميل سيرته، فربما انفتق ما لا يرتق؛ فإن كبار الأمور تبدو صغاراً⁽¹⁾، [ثم قال]: وهذا الأمر يجب على المَلِك مراعاته، لما فيه من حراسة الدين وحفظ المملكة، وحسم ذلك: أن يراعي العلم وأهله، ويصرف إليهم حظاً من عنايته، ويعتمد أهل الكفاءة منهم بالتقريب والصيانة، وأهل الحاجة منهم بالرغد والإعانة، ففي ذلك بهاء المُلِك، وإعزاز الدين، وقد قيل: إنَّ من إجلال الشريعة إجلال أهل الشريعة⁽²⁾.

رابعاً: من ركائز الأمن إقامة الحكم الراشد على أساس الوحي والعدل والحكمة والرحمة والعفو.

قال ابن عقيل رحمه الله: (السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصّلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ﷺ، ولا نزل به وحي⁽³⁾).

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (فإنَّ الله سبحانه أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات... بل قد بين سبحانه بما شرّع من طرق؛ أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأَي طريق استُخرج بها العدل والقسط فهي من دين الله، وليست مخالفة له⁽⁴⁾).

وقد أمر الله تعالى الخلق بالتحلي بِخُلُق العدل في كتابه، فقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

(1) قلت: صدق رحمه الله، فكأنه يصف العواصف التي ضربت بلدي الجزائر، والبدع والحزبيات التي ظهرت بعد ما غُيِب العلماء بعلة محاربة الوهابية الوهمية والله المستعان.

(2) درر السلوك (ص: 119-120-121-122).

(3) الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية رحمه الله (ص 12 ط / مكتبة المؤيد).

(4) الطرق الحكمية (13).

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٠٨﴾. وقال تعالى في سورة الشورى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٠٩﴾.

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾.

قال الإمام ابن كثير: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، وفي كل حال).

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾.

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦٥﴾.

فكل الرسائل جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية؛ لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مآمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، وهذا الميزان هو العدل؛ وهو أساس قائم بولاية المسلمين لإصلاح دينهم ودنياهم، الذي إذا افتقد بين الناس خسروا خسرانا مينا، وعاشوا حياة بهيمية، القوي يأكل الضعيف كما نراه في بعض بقاع الأرض.

وقد جاءت في السنة المطهرة نصوص نيرة ترفع من منزلة السلطان العادل في رعيته، والمقسط معهم.

ففي الصحيحين⁽¹⁾ من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل..).

وفي صحيح مسلم⁽²⁾ من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفّق، ورجل رحيم القلب بكلّ ذي قرى ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كما في الصحيح⁽³⁾ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا).

إنّ انتشار العدل في البلاد، وفشوّه في الإدارة والمحاكم، وفي جميع شؤون الحياة، مما يورث البلاد أمناً، ويهبها استقراراً وهيبة، ويربط الرعية بحاكمها⁽⁴⁾، فتقوى العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتتجلى معالم الولاء

(1) أخرجه البخاري (برقم 660)، ومسلم (برقم 1031 بقلب في لفظ الشمال).

(2) أخرجه الإمام مسلم (برقم 2865).

(3) أخرجه الإمام مسلم (برقم 1827).

(4) ومن الأمور التي تقوي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتهب للحاكم وللدولة هيئة ووقاراً فشوّ العدل في المقرّبين من الحاكم، والقائمين على شؤون إدارته، من وزراء ومسؤولين وولاة، فقد أخرج عبد الرزاق في المصنف (343/11 برقم 20713) من طريق الزهري عن سالم عن أبيه قال: (كان عمر بن خطاب إذا نهى الناس عن شيء دخل إلى أهله، أو قال - جمع - فقال: إني نهيت عن كذا وكذا، والناس إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتي رجل منكم وقع في شيء مما نهيت عنه الناس إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني، فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر) وإسناده صحيح.

بالحق للسلطان، ويظهر الإخلاص في العمل، وتطمئن النفوس في ظل دولة أساس حُكمها العدل والحكمة، ويكون العدل مانعا من تدخل القوى الأجنبية في شؤون الأمة بحجة حقوق الإنسان، أو نصرة الأقلية المستضعفة، وحاجزا منيعا في وجه أهل الفتن والقلال، أتباع ذي الخويصرة الخاسر الذي قال لسيد البشر نبينا محمد ﷺ : (اعدل فإنك لم تعدل).

قال عمر بن عبد العزيز لأحد عماله لما طلب منه الإذن في تحصين مدينته: (حصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم)⁽¹⁾.

وقال العلامة الشوكاني لخليفة عصره حين طُلب منه ومن بعض العلماء المشورة حين استولت جيوش ابن سعود على بعض الأقطار اليمانية: (فأشرت على الخليفة بأن أعظم ما يتوصل به إلى دفع هذه النازلة؛ هو العدل في الرعية، والاقتصار في المأخوذ منهم على ما ورد في الشرع، وعدم مجاوزته في شيء، وإخلاص النية...) ⁽²⁾.

وأما إذا غاب العدل من أوساط الأمة، فإنها تفقد قداستها، ويزيل بريق جمالها، وتستحق مقت الله وغضبه.

فعن أبي بريدة عن أبيه قال: لما قدم جعفر من الحبشة، قال له رسول الله ﷺ : (ما أعجب شيء رأيته قال: رأيت امرأة على رأسها مكمل من طعام، فمرّ فارس يركض فأذراه، فقعدت تجمع طعامها، ثم التفتت إليه فقالت: ويل لك يوم يضع الملك كرسیه، فيأخذ للمظلوم من الظالم، فقال رسول الله ﷺ تصديقا لقولها: (لا قُدّست أمة، -أو- كيف قُدّست أمة لا يأخذ ضعيفها حقّه من شديدها، وهو غير مُتعتع)⁽³⁾.

(1) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص232)، والعقد الفريد لابن عبد ربه (3/1).

(2) أدب الطلب ومنتهى الأرب (ص108-109).

(3) إسناده صحيح وله طرق كثيرة؛ أخرجه الطبراني في الأوسط (برقم5234)، والبزار (برقم1596 كشف الأستار)، والبيهقي في السنن الكبرى (10/160 برقم20203)، وابن سمويه

قال شيخ الإسلام ابن تيمية الحرّاني رحمه الله: (فالمقصود الواجب بالولايات: إصلاح دين الخلق، الذي متى فاتهم خسروا خسارنا مينا، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم⁽¹⁾)، وهو نوعان: قسم المال بين مستحقّيه، وعقوبات المعتدين، فمن لم يعتدّ أصلح له دينه ودنياه، ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول: إنما بعثتُ عُمّالي إليكم ليعلموكم كتاب ربّكم وسنة نبيّكم، ويقسموا بينكم فيئكم، فلما تغيرت الرعية من وجهه، والرعاة من وجهه؛ تناقضت الأمور، فإذا اجتهد

= في فوائده (برقم 1) وغيرهم: من طريق منصور بن أبي الأسود عن عطاء بن السائب عن محارب عن أبي بريدة عن أبيه.

وهذا الطريق ضعيف لأنه من رواية منصور عن عطاء.

قال الحافظ في الهدي (425) في ترجمة عطاء: (وتحصّل لي من مجموع كلام الأئمة أن رواية شعبة، وسفيان الثوري، وزهير بن معاوية، وزائدة، وأيوب، وحمّاد بن زيد قبل الاختلاط، وأن جميع من روى عنه غير هؤلاء؛ فحديثه ضعيف، لأنه بعد اختلاطه، إلا حماد بن سلمة فاختلف قولهم فيه).

قلت: وقد تابع منصور عمرو بن أبي قيس.

فقد أخرج البيهقي في الشعب (برقم 7142)، وغيره إلا أن عمرو ضعيف، مع اختلاط عطاء.

قلت: للحديث طرق عديدة من مساندة مختلفة، منها ما أخرجه ابن أبي شيبة (592/6) وأبو يعلى (344/2) من طريق بن أبي عبيدة، عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تُدسّت أمة لا تعطي الضعيف فيها حقه غير متعتع)، وإسناده صحيح، وابن أبي عبيدة هو محمد بن عبد الملك بن معن المسعودي.

وأخرجه ابن ماجه (برقم 2426) باب: لصاحب الحقّ سلطان)، وأبو يعلى (برقم 1091)، بلفظ قريب مع وجود قصة.

(1) يدخل في هذا الأمر إصلاح المنظومة الاقتصادية وفق الشريعة الإسلامية، وإيجاد المناخ المناسب للاستثمار والتبادلات التجارية الصادقة، وتطوير جهاز الرقابة على البضائع الواردة، وغيرها من النظم التي تكون عضدا لحماية الدين وأبنائه.

الراعي في إصلاح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان⁽¹⁾، كان من أفضل أهل زمانه، وكان من أفضل المجاهدين في سبيل الله⁽²⁾.

قال العلامة ابن جماعة الكناني رحمه الله: (فيجبُ على من حَكَّمه الله تعالى في عبادته، وملَّكه شيئاً من بلاده، أن يجعلَ العدلَ أصلَ اعتماده، وقاعدة استناده، لما فيه من مصالح العباد، وعمارة البلاد، ولأنَّ نعمة الله يجبُ شُكْرُها، وأن يكون الشُّكر على قدرها، ونعمةُ الله على السلطان فوق كلِّ نعمة، فيجبُ أن يكون شُكْرُه أعظمَ من كلِّ شُكر، وأفضلُ ما يشكر به السلطانُ لله تعالى: إقامةُ العدل فيما حَكَّمه فيه، وقد اتفقت شرائعُ الأنبياء، وآراءُ الحكماء والعقلاء؛ أنَّ العدلَ سببٌ لِنُموِّ البركات، ومزيدُ الخيرات، وأنَّ الظُّلم والجور سببٌ لخراب الممالك، واقتحام المهالك، ولا شكَّ عندهم في ذلك)⁽³⁾.

وقد جاء في الحكمة: (عدلُ الملك حياةُ الرعية، وروحُ المملكة، فما بقاء جسدٍ لا روح فيه؟).

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: (وأعظمُ عونٍ لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة ثلاثة أمور:

أحدها: الإخلاص لله، والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن.

الثاني: الإحسان إلى الخلق، بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب.

(1) قلت: ومشروع المصالحة الذي نهجه حاكم البلاد وإخوانه المصلحون داخل في باب إصلاح الدين والدنيا إن شاء الله تعالى.

(2) مجموع الفتاوى (262/28).

(3) تحرير الأحكام، ويأتي بيان حقوق السلطان في جزئي (إعمال الفكرة في بيان حقوق الراعي والرعية العشرة).

ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرا، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْعَيْنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. [ثم قال رحمه الله]: فليس حسن النية بالرعية والإحسان إليهم: أن يفعل ما يهوونه، ويترك ما يكرهونه، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾، وقال تعالى للصحابة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾. وإنما الإحسان إليهم فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا، ولو كرهه من كرهه؛ لكن ينبغي له أن يرفق بهم فيما يكرهونه، ففي الصحيحين⁽¹⁾ عن النبي ﷺ أنه قال: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه)، وقال رسول الله ﷺ: (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف)⁽²⁾، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: والله إنني لأريد أن أخرج لهم المرة من الحق، فأخاف أن ينفروا عنها، فأصبر حتى تجيء الحلوة من الدنيا، فأخرجها معها، فإذا نفروا لهذه، سكنوا لهذه)⁽³⁾.

خامسا: طاعة السلطان المسلم القادر، أو الرئيس بالمعروف، وتكريمه، وحفظ حقه، وعدم الخروج عليه؛ أصل عظيم في انتشار الأمن في ديار الإسلام.

لقد تضافرت الأدلة من الكتاب وصحيح السنة والآثار السلفية الغراء، وانهقد الإجماع على وجوب طاعة ولادة أمر المسلمين في المعروف،

(1) الحديث لا وجود له في صحيح البخاري، بل رواه الإمام مسلم وغيره (برقم 2593) من حديث عائشة، وعبد بن حميد، والضياء من حديث أنس، ثم وجدت أن الإمام البخاري أخرجه في الأدب المفرد (برقم 469) من حديث عائشة فلعل شيخ الإسلام التيس عليه الأمر، أو أن الخطأ من النساخ وخاصة أنه جاء في بعض نسخ السياسة الشرعية المطبوعة (ففي الصحيح)، وأظن أن الأخير هو الأقرب إلى صواب لمنزلة شيخ الإسلام وحفظه.

(2) صحيح أخرجه الإمام أبو داود (برقم 4774/ كتاب الأدب، باب في الرفق)، والإمام البخاري في الأدب المفرد (برقم 472).

(3) مجموع الفتاوى (28/ 361-362-363-364-365).

وتوقيهرهم وإكرامهم، وحفظ حقهم، والدعاء لهم، والصلاة خلفهم، ودفع الزكاة الظاهرة لهم، والحج والجهاد معهم، ومناصحتهم سرّاً، وحرمة غيبتهم، والطعن فيهم، والتشهير بعيوبهم على رؤوس المنابر وأوجه الصحف، وحرمة الخروج عليهم باللسان أو اللسان، وحرمة الإعانة من خرج عليهم، أو التستر عليهم⁽¹⁾، أو الاستبشار بصنيعهم، فمتى حقق أبناء الأمة هذه الأصول ظهر الأمن في ساحتهم، وتآلفت كلمتهم، وجنبوا أمتهم نزيف الفتن، وحرّ الفقر، ولهيب الجريمة المنظمة، وقطعوا دابر دعاة الإحن، والخروج باسم الدين لإقامة دول الإسلام المزعومة في دولة إسلامية قائمة منذ مئات السنين والله المستعان.

وقبل الشروع في سرد النصوص من الكتاب والسنة، وذكر أقوال أهل العلم في توثيق هذا الأصل المتين، أرغب في طرح سؤال على القراء الكرام الذي مفاده: كيف تثبت إمامة الحاكم عند أهل السنة والجماعة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (...بل الإمامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها، ولا يصير الرجل إماماً حتى يوافقه أهل الشوكة عليها، الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة، فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان، فإذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان؛ صار إماماً.

ولهذا قال أئمة السلف: من صار له قدرة وسلطان، يفعل بهما مقصود الولاية؛ فهو من أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم، ما لم يأمرُوا بمعصية الله، فالإمامة مُلْكٌ وسلطان، والملِكُ لا يصير مَلِكًا بموافقة واحد، ولا اثنين، ولا أربعة، إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم، بحيث يصير مَلِكًا

(1) أخرج الإمام مسلم (برقم 1978) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (..لعن الله من آوى محدثاً، فكل من آوى خرجياً من الخوارج فقد لعنه الله ورسوله ﷺ).

بذلك، وهكذا كُل أمر يفتقر إلى المعاونة عليه؛ لا يحصل إلا بحصول من يمكنهم التعاون عليه، ولهذا لما بويح علي رضي الله عنه، وصار معه شوكة؛ صار إمامًا... [ثم قال رحمه الله]: فكون الرجل أميرًا، وقاضيًا، وواليًا، وغير ذلك من الأمور التي مبناهما على القدرة والسلطان، متى حصل ما يحصل به من القدرة والسلطان حصلت وإلا فلا، إذ المقصود بها عمل الأعمال لا تحصل إلا بقدرة، فمتى حصلت القدرة، التي يمكن بها تلك الأعمال؛ كانت حاصلة، وإلا فلا... [ثم قال رحمه الله]: والقدرة على سياسة الناس: إما بطاعتهم له، وإما بقمهره لهم، فمتى صار قادرًا على سياستهم بطاعتهم أو بقمهره؛ فهو ذو سلطان مطاع، إذا أمر بطاعة الله... [ثم قال رحمه الله]: وأما نفس الولاية والسلطان: فهو عبارة عن القدرة الحاصلة، ثم قد تحصل على وجه يحبه الله ورسوله، كسلطان الخلفاء الراشدين، وقد تحصل على وجه فيه معصية، كسلطان الظالمين.

ولو قُدِّر أن عمر وطائفة معه بايعوه - يعني أبا بكر - وامتنع سائر الصحابة عن البيعة؛ لم يصير إمامًا بذلك، وإنما صار إمامًا بمبايعة جمهور الصحابة، الذين هم أهل القدرة والشوكة، ولهذا لم يضرَّ تخلف سعد بن عباد، لأن ذلك لا يقدح في مقصود الولاية، فإن المقصود حصول القدرة والسلطان اللذين بهما تحصل مصلحة الإمامة، وذلك قد حصل بموافقة الجمهور على ذلك.

فمن قال: إنَّه يصير إمامًا بموافقة واحد، أو اثنين، أو أربعة، وليسوا هم ذوي القدرة والشوكة؛ فقد غلط، كما أن من ظن أن تخلف الواحد، أو الاثنين، والعشرة يضر؛ فقد غلط⁽¹⁾.

وقال رحمه الله: (... وهو ﷺ قد أخبر أنه بعد ذلك يقوم أئمة لا يهتدون بهديه، ولا يستنون بسنته، وبقيام رجال قلوبهم قلوب الشياطين في

(1) منهاج السنة النبوية (1/527-528-529-530-531).

جثمان الإنس، وأمر مع هذا بالسمع والطاعة للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فتبين أن الإمام الذي يطاع هو من كان له سلطان، سواء كان عادلاً أو ظالماً⁽¹⁾.

ومن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ندرك أن مناط ثبوت الإمامة هي القدرة والسلطان على الفعل، وهذا الأمر حاصل عند عامة حكام المسلمين، فما يزعمه رؤوس الخوارج أن إمامة حُكَّام المسلمين ساقطة اليوم باطل ومردود، نعم؛ نعلم أن كثيراً منهم لا يحكم بما أنزل الله في أمور كثيرة جداً، وأن بعضهم واقع في الجور والظلم والله المستعان، ولكن هذا على مفهوم أهل السنة والجماعة لا يسقط إمامتهم ما لم يظهر منهم كفر بواح لنا فيه من الله سلطان، وكلام شيخ الإسلام واضح: (فتبين أن الإمام الذي يطاع هو من كان له سلطان، سواء كان عادلاً أو ظالماً). وفق الله أبناء المسلمين المغرور بهم والضالين عن سبيل المؤمنين إلى إدراك هذا الأصل بعقل واع، وقلب حي، لعلهم يعودون إلى أصول السنة الأبرار، ويفارقون منهج أهل البدع من الروافض والخوارج الأشرار.

ذكر العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه العظيم حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح في الباب السبعين، في ذكر المستحق للبشرى بالجنة دون غيره: (وقد ذكرنا في أول الكتاب جملة مقالات أهل السنة والحديث التي أجمعوا عليها، كما حكاها الأشعري عنهم، ونحن نحكي إجماعهم كما حكاها حرب صاحب الإمام أحمد عنهم بلفظه، في مسائله المشهورة: هذا مذهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بها، المقتدى بهم فيها من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة، زائغ أو زائل)

(1) منهاج السنة (1/561).

عن منهج السنّة وسبيل الحق:....والجمعة والعيدان والحج مع السلطان، وإن لم يكونوا بررة عدولا أتقياء، ودفع الصدقات والخراج والأعشار والفبيء والغنائم إليهم عدلوا فيها أو جاروا، والانتقياد لمن ولّاه الله عزّ وجلّ أمركم، لا تنزع يدا من طاعته، ولا تخرج عليه بسيف، حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا، ولا تخرج على السلطان، وتسمع وتطع، ولا تنكث بيعته، فمن فعل ذلك فهو مبتدع مخالف مفارق للجماعة، وإن أمرك السلطان بأمر هو لله معصية، فليس لك أن تطيعه البتة، وليس لك أن تخرج عليه، ولا تمنعه حقه....⁽¹⁾.

إنّ سلوك منهج السلف الصّالح في باب الخلافة والإمارة، والبعد عن عفن الخوارج والعقلانيين، يحقق للوطن نعمة الأمن، ويهبه تماسكا متينا، واستقرارا دائما، ويقطع دابر أهل الشرور من القطبيين والمفسدين في الأرض، والنصوص في هذا الباب كثيرة جدا، ولا يخلو منها مُصنّف من

(1) حادي الأرواح (ص658 تحقيق محمد بن إبراهيم الزغلي).

قلت: لقد خالفت الجماعات الإسلامية التي تنادي بالجهاد البدعي في ديار المسلمين هذه الأصول السلفية، وضربت بها عرض الحائط، ووضعت بدلها أراء المرضى نفسيا، واجتهادات المأجورين من خزينة الغرب، كأيمن الظواهري وزمرته من رؤوس الشبه والضلال، وبنت عليها جهادا مبتدعا جرّ على الأمة الذلّ والهوان، والكفر والبدعة، فهذه الجماعات التي تزعم الجهاد في ديار الإسلام هي في منظور منهج السلف الطاهر من الغدر والظلم فرق ضالة مبتدعة كما نقل ابن قيم الجوزية رحمه الله: (فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها فهو مخالف مبتدع خارج عن الجماعة، زائغ أو زائل) عن منهج السنّة وسبيل الحق).

قلت: سواء سمّت هذه الجماعات بالسلفية القتالية، أو الجيش الإسلامي، أو بالقاعدة في المغرب الإسلامي، -هداهم الله جميعا إلى منهج السلف- فإنّ الألقاب لا تشفع لأصحابها مع مخالفتهم لأصول أهل السنة والجماعة.

دعاوي إذا حققتها ألفيتها *** لقاب زور لفقت بمحال.

والدعاوي إذا لم يقيموا عليها *** بينات أصحابها أدياء.

مصنفات أئمة الإسلام المتينة والأمنية، وإن غيَّبها عن الناس دعاء الفكر المنحرف والفوضى، فسيراً على طريق أهل العلم الفضلاء أسرد ما يحضرني في باب الإمامة من آيات وأحاديث وآثارٍ والله ولي التوفيق.

يقول الله عز وجل في محكم التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ النساء: ٥٩.

قال العلامة السَّعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: (وأمر بطاعة أولي الأمر؛ وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرُوا بمعصية الله، فإن أمرُوا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

وعن نافع قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرّة ما كان، زمن يزيد بن معاوية فقال (ابن مطيع) اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتكم لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)⁽¹⁾.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية)⁽²⁾.

(1) رواه الإمام مسلم في صحيحه (برقم 1850، كتاب الإمارة).

(2) صحيح لغيره: رواه الإمام أحمد في المسند (96/4)، والطبراني (769/19) وابن حبان في صحيحه (434/10) (برقم 4573)، وابن أبي عاصم في السنة (713/2) (برقم 1090) وغيرهم من حديث أبي بكر بن عياش عن عاصم عن أبي صالح عن معاوية. وعاصم: هو ابن بهدلة ابن أبي النجود الأسدي صدوق إن شاء الله، وحجة في القراءات، وثقه يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وأبو زرعة الرازي، وأبو بكر هو بن عياش بن سالم

والمراد بالميتة الجاهلية: حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مُطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً؛ قاله الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح (7/13).

وعن عبد الله بن عباس قال: قال النبي ﷺ: (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت، إلا مات ميتة جاهلية)⁽²⁾.

وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)⁽¹⁾.

وعن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: (من فارق الجماعة شبراً، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه)⁽²⁾.

الأسدي، حسن الحديث وثقه غير واحد، ولم يخرج له البخاري عن الأعمش شيئاً، ورواته عنه ليست بذلك.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (70/6 برقم 5820) من طريق العباس بن الحسن [تصحف في الأوسط إلى: الحسين] القنطري، عن الأسود، قال: ثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش به. قال الإمام الدراقطني عن حديث العباس القنطري في العلل (64/7) بعد ما أورد الحديث على الجادة: (ورواه عباس بن الحسن البلخي عن أسود بن عامر عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن معاوية؛ ووهم في ذكر الأعمش، وإنما هو من حديث عاصم، وحدث به شعيب الذراع عن أبي هشام عن أبي بكر عن عاصم عن زر عن معاوية، وليس بمحفوظ).

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم: 7053-7054-7143)، ومسلم في صحيحه (برقم 1849).

(2) أخرجه الإمام البخاري (برقم 2955-7144) ومسلم (برقم 1839).

(3) صحيح: أخرجه الإمام أبو داود في سننه (برقم 4725/ط/عومة).

والربقة: ما يجعل في عنق الدابة، كالطوق يمسكها لئلا تشرد، ومعناه: من خرج عن طاعة الجماعة، وفارقهم في الأمر المجمع عليه، فقد ضلّ وهلك، وكان كالدابة إذا خلعت الربقة التي هي محفوظة بها، فإنها لا يؤمن عليها عند ذلك الهلاك والضياع، انظر معالم السنن (148/7).

قلت: كلّ من فارق جماعة المسلمين وإمامهم صار أسيراً في عرين الموت، وجندياً في أيدي دعاة الدمار، يتلاعبون بعقيدته وعقله، وإذا ملوا منه أرسلوه إلى المجتمع في صورة قنبلة متحركة ليفجر نفسه في المسجد الذي تعلم فيه سورة الفاتحة!.

وعن حذيفة بن اليمان في حديثه الطويل قال: قال ﷺ: (تسمع وتطيع للأمر، وإن ضربَ ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع)⁽¹⁾.

وعن سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ قال: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سألته فأعرض عنه، ثم سألته الثالثة، فغذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ: (اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم)⁽²⁾.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: (إنكم سترون بعدي أثره وأمورا تنكرونها)، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: (أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم)⁽³⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شارحاً لحديث ابن مسعود: (فقد أخبر النبي ﷺ أن الأمراء يظلمون ويفعلون أمورا منكراً، ومع هذا

(1) رواه مسلم في صحيحه (برقم 1847).

(2) رواه مسلم في صحيحه (برقم 1846).

(3) أخرجه البخاري (برقم 3603-7052) ومسلم (برقم 1843) من طريق الأعمش قال: حدثنا زيد

بن وهب: سمعت عبد الله به.

فأمرنا أن نؤتيهم الحق الذي لهم، ونسأل الله الحق الذي لنا، ولم يأذن في أخذ الحق بالقتال، ولم يرخص في ترك الحق الذي لهم⁽¹⁾.

وقال كذلك رحمه الله: (فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر، وإعطاء حقوقهم، وطلب المظلوم حقه من الله، ولم يأذن للمظلوم المبغي عليه بقتال الباغي في مثل هذه الصور، التي يكون القتال فيها فتنة، كما أذن في دفع الصائل بالقتال، حيث قال: "من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه؛ فهو شهيد" فإنَّ قتال اللصوص ليس قتال فتنة؛ إذ الناس كلهم أعوان على ذلك، فليس فيه ضرر عام على غير الظالم، بخلاف قتال ولادة الأمور؛ فإن فيه فتنة وشرًا عامًا أعظم من ظلمهم، فالمشروع فيه الصبر)⁽²⁾.

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (ستكون أمراء، فتعرفون وتُتُكروُن، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع)، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: (لا، ما صلوا)⁽³⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في شرح حديث أم سلمة: (فقد نهى رسول الله ﷺ عن قتالهم مع إخباره أنهم يأتون أموراً منكراً، فدلَّ على أنَّه لا يجوز الإنكار عليهم بالسيف، كما يرى من يقاتل ولادة الأمور من الخوارج، والزيدية، والمعتزلة، وطائفة من الفقهاء، وغيرهم)⁽⁴⁾.

وقال كذلك رحمه الله: (...ومن أصول هذا الموضع: أن مجرد وجود البغي من إمام أو طائفة؛ لا يوجب قتالهم، بل لا يبيحه، بل من الأصول التي دلت عليها النصوص: أن الإمام الجائر الظالم يُؤمر الناس بالصبر على

(1) منهاج السنة (392/3).

(2) الإستقامة (35/1-36 تحقيق محمد رشاد سالم).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه (برقم 1854) من طريق قتادة، عن الحسن، عن ضبة بن محصن، عن أم سلمة به.

(4) منهاج السنة (392/3).

جوره، وظلمه، وبغيه، ولا يقاتلونه، كما أمر النبي ﷺ بذلك في غير حديث، فلم يأذن في دفع البغي مطلقا بالقتال، بل إذا كان فيه فتنة نهى عن دفع البغي به، وأمر بالصبر⁽¹⁾.

وقال كذلك رحمه الله: (مذهب أهل الحديث ترك الخروج على الملوك البغاة، والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح برٌّ، أو يستراح من فاجر)⁽²⁾، وقال أبو عثمان إسماعيل الصابوني رحمه الله: (ويرى أصحاب الحديث الجمعة والعيدين، وغيرهما من الصلوات خلف كل إمام مسلم؛ برا كان أو فاجرا، ويرون جهاد الكفرة معهم، وإن كانوا جورا فجرة، ويرون الدعاء لهم بالإصلاح والتوفيق والصلاح، ولا يرون الخروج عليهم بالسيف؛ وإن رأوا منهم العدول عن العدل إلى الجور والحيث)⁽³⁾.

وقال ابن أبي زمنين الأندلسي المالكي رحمه الله: (ومن قول أهل السنة أن السلطان ظل الله في الأرض، وأنه من لم ير على نفسه سلطانا برا كان أو فاجرا فهو على خلاف السنة)⁽⁴⁾.

وأخرج الإمام الحافظ أبو القاسم اللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) بسنده إلى الإمام البخاري في بيان معتقده؛ قال محمد بن إسماعيل البخاري: (لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم: أهل الحجاز، ومكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد، والشام، ومصر، لقيتهم كراتٍ، قرنا بعد قرن، ثم قرنا بعد قرن، أدركتهم وهم متوافرون، منذ أكثر من ستة وأربعين سنة: أهل الشام، ومصر، والجزيرة مرتين، والبصرة أربع مرات، في سنين ذوي عدد، بالحجاز ستة أعوام، ولا

(1) الإستقامة (32/1) ط محمد رشاد سالم).

(2) مجموع الفتاوى (444/4).

(3) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: 294 ط / دار العاصمة).

(4) أصول السنة (ص 275).

أُخْصِي كَمْ دَخَلْتُ الْكَوْفَةَ وَبَغْدَادَ مَعَ مُحَدَّثِي أَهْلِ خِرَاسَانَ، مِنْهُمْ: ... [فذكر بعض أسمائهم، ثم ذكر بعض مسائل الاعتقاد، ومنها قوله]: ... وأن لا ننازع الأمر أهله، لقوله ﷺ (ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم، إخلاص العمل لله، وطاعة ولاة الأمر، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط بهم)، ثم أكد في قوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وأن لا يرى السيف على أمة محمد ﷺ وقال الفضيل: لو كان لي دعوة مستجابة؛ لم أجعلها إلا في إمام؛ لأنه إذا صلح الإمام؛ أَمَّنَ البلاد والعباد، قال ابن المبارك: يا معلم الخير، من يجترئ على هذا غيرك⁽¹⁾. اهـ.

وذكر اللالكائي⁽²⁾ - أيضًا - بسنده إلى ابن أبي حاتم الرازي في بيان معتقد أبيه وأبي زرعة، فقال: (سألت أبي وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؟) فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار: حجازًا، وعراقًا، وشامًا، ويمنا، فكان من مذهبهم... [فذكر أمورًا كثيرة منها]: ولا نرى الخروج على الأئمة، ولا القتال في الفتنة، ونسمع ونطيع لمن ولاه الله - عز وجل - أمرنا، ولا نزع يدًا من طاعته، وتبّع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة. اهـ.

قال الأشعري في (رسالة أهل الثغر في الإجماع الخامس والأربعين): (وأجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين، وعلى أن كل من ولي شيئًا من أمورهم عن رضى أو غلبة، وامتدت طاعته من برّ وفاجر لا يلزم الخروج عليهم بالسيف؛ جار أو عدل، وعلى أن يغزوا معهم العدو، ويحج معهم البيت، وتدفع إليهم الصدقات إذا طلبوها، ويصلى خلفهم الجميع [الجمع] والأعياد)⁽³⁾.

(1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (196/1-197).

(2) (199/1).

(3) (ص: 296-297 ط: مكتبة العلوم والحكم).

وقد تواترت العبارات عن الإمام أحمد رحمه الله في تحريم الخروج على أئمة الجور، وعن النهي عن القتال في أيام الفتن.

فقد أخرج أبو بكر الخلال في السنة بسنده إلى أبي الحارث أحمد بن محمد الصائغ قال: سألت أبا عبد الله في أمر كان حدث ببغداد، وهَمَّ قومٌ بالخروج، فقلت: يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟ فأنكر ذلك عليهم وجعل يقول: سبحان الله، الدماء الدماء، لا أرى ذلك ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه (يعني: أيام الفتنة)، قلت: والناس اليوم، أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: وإن كان؛ فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة وانقطعت السبل، الصبر على هذا، ويسلم لك دينك خير لك، ورأيت يَنكر الخروج على الأئمة، وقال: الدماء لا أرى ذلك ولا آمر به⁽¹⁾.

وقال أبو بكر المروزي: سمعت أبا عبد الله (أي الإمام أحمد) يأمر بكف الدماء، وينكر الخروج إنكاراً شديداً، وأنكر أمر سهل بن سلامة⁽²⁾، وقال: كان بيني وبين حمدون بن شبيب أنس، وكان يكتب لي، فلما خرج

(1) السنة للخلال (133/1) وإسناده صحيح. وأتمنى بصدق أن يقف رؤوس الجماعات القتالية في ديار الإسلام على نص الإمام أحمد ليدركوا الفرق بين الفتنة الخاصة والعامة.

(2) وهو الأنصاري من أهل خراسان، دعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وعلق مصحفاً في عنقه، وكان يقول: سأقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان؛ سلطاناً أو غيره، والحق قائم في الناس أجمعين، فمن بايعني على هذا قبلته، ومن خالفني قتلته.

قلت: وأشبه سهل بن سلامة في هذا العصر عدد لا يحصر والله المستعان.

مع سهل جفوته بعد، وكان قد خرج ذاك الجانب، فذهبت أنا وابن مسلم فعاتبناه وقلت: إيش حملك! فكأنه ندم أو رجع⁽¹⁾.

وقال رحمه الله: (ولا يحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق)⁽²⁾.

وقال كذلك رحمه الله: (أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين، وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله ﷺ: أولها الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره، والصبر تحت حكمه.... ولا نخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا، ولا نكفر أحدا من أهل التوحيد وإن عملوا الكبائر...)⁽³⁾.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: (يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس [ثم قال رحمه الله]: ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل، وإقامة الحج والجمع، والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي أن السلطان ظل الله في الأرض، ويقال: ستون سنة من إمام جائر أصْلَح من ليلة واحدة بلا سلطان، والتجربة تبين ذلك⁽⁴⁾ [ثم قال رحمه الله]: فالواجب اتخاذ

(1) السنة للخلال (140/1) وإسناده صحيح. قلت: وهذا واجب أهل العلم في حق كل أحد رأوه وقع في شباك الخوارج أن يهرولوا إلى نصحه حتى لا يغتر به الأتباع، فإن عاد فله الحمد، وإن أصرَّ على مرافقة الأشرار جُفِيَ وبُيِّن أمره للناس.

(2) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص241)، و طبقات الحنابلة (1/241-246).

(3) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص242).

(4) وما حال العراق والصومال عنّا ببعيد.

الإمارة ديناً وقربة يُتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال⁽¹⁾.

وقال رحمه الله: (وَقَلَّ مَنْ خَرَجَ عَلَى إِمَامٍ ذِي سُلْطَانٍ؛ إِلَّا كَانَ مَا تَوَلَّدَ عَلَى فَعْلِهِ مِنَ الشَّرِّ؛ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَلَّدَ مِنَ الْخَيْرِ، كَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى يَزِيدَ بِالْمَدِينَةِ، وَكَابَنَ الْأَشْعَثَ الَّذِي خَرَجَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْعِرَاقِ، وَكَابَنَ الْمَهْلَبَ الَّذِي خَرَجَ عَلَى ابْنِهِ بِخِرَاسَانَ، وَكَأَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ، الَّذِي خَرَجَ عَلَيْهِمْ بِخِرَاسَانَ أَيْضًا، وَكَالَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى الْمَنْصُورِ بِالْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ، وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ، [ثم قال رحمه الله]: وَغَايَةُ هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يُغْلِبُوا، وَإِمَّا أَنْ يُغْلِبُوا، ثُمَّ يَزُولَ مُلْكُهُمْ، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةٌ، فَإِنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ وَأَبَا مُسْلِمَ هُمَا اللَّذَانِ قَتَلَا خَلْقًا كَثِيرًا، وَكِلَاهُمَا قَتَلَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ، وَأَمَّا أَهْلُ الْحَرَةِ وَابْنُ الْأَشْعَثِ وَابْنُ الْمَهْلَبِ وَغَيْرُهُمْ؛ فَهُزِمُوا وَهُزِمَ أَصْحَابُهُمْ، فَلَا أَقَامُوا دِينًا، وَلَا أَبْقَوْا دُنْيَا، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ بِأَمْرٍ لَا يَصْلُحُ بِهِ صَلاَحُ الدِّينِ وَلَا صَلاَحُ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ فَاعِلُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، وَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَسُوا أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ، وَعَائِشَةَ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرِ وَغَيْرِهِمْ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَحْمَدُوا مَا فَعَلُوهُ مِنَ الْقِتَالِ، وَهُمْ أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ نِيَّةً مِنْ غَيْرِهِمْ، [ثم قال رحمه الله]: وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْحَرَةِ: كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِينَ خَلَقَ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ ابْنِ الْأَشْعَثِ: كَانَ فِيهِمْ خَلَقَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِينَ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُمْ كُلَّهُمْ، [ثم قال]: وَقَدْ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الْأَشْعَثِ: أَيْنَ كُنْتَ يَا عَامِرٌ؟ قَالَ: كُنْتُ حَيْثُ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

عَوَى الذُّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذُّئْبِ إِذْ عَوَى ** وَصَوَّتْ إِنْسَانٌ فَكَدْتُ أَطِيرَ.

أصابتنا فتنة؛ لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء، [ثم قال]: وكان الحسن البصري يقول: إن الحجاج عذاب الله، فلا تدفعوا عذاب الله

(1) مجموع الفتاوى (390/28-391).

بأيديكم، ولكن عليكم بالاستكانة والتضرع؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضَّرِعُونَ﴾، [ثم قال]: وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وغيرهم ينهون عام الحرّة عن الخروج على يزيد، وكما كان الحسن البصري، ومجاهد، وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث، ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم، وإن كان قد قاتل في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين، [إلى أن قال رحمه الله]: وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي ﷺ من الصبر على جور الأئمة، وترك قتالهم والخروج عليهم؛ هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد، وأن من خالف ذلك متعمداً أو مخطئاً؛ لم يحصل بفعله صلاح، بل فساد، ولهذا أثنى النبي ﷺ على الحسن بقوله: "إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"، ولم يُثنِ على أحد لا بقتال في فتنة، ولا بخروج على الأئمة، ولا نزع يدٍ من طاعة، ولا مفارقة للجماعة⁽¹⁾.

وقال رحمه الله تعالى: (ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة، وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ، لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته)⁽²⁾.

(1) منهاج السنة (4/527-528-529-531)، كلام يكتب بماء الذهب.

=

(2) منهاج السنة (3/391).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ-: (وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه؛ من معصية ولالة الأمور،

= قلت: يُصدِّقُ كلامَ شيخ الإسلام الوقائع التاريخية، وما نعيشه في زمن الهرج والمرج وقلة العقل من فتن، ذكر الذهبي في السير (8/253-260) في ترجمة الحكم بن هشام بن الداخل بن معاوية الأموي المرواني، وكان من جبابرة الملوك، وفساقهم، ومتمرديهم، مع هذا كان فارساً شجاعاً فاتكاً بالأعداء، أذاق الروم الأمرين، قال الذهبي رحمه الله: (وكثر العلماء بالأندلس في دولته، حتى قيل: إنه كان بقرطبة أربعة آلاف مُتَقَلِّسٍ متزيّنٍ بزِيّ العلماء، فلما أراد الله فناءهم، عَزَّ عليهم انتهاك الحكم للحُرّمات، واثتمروا ليخلعوه، ثم جيشوا لقتاله، وجرت بالأندلس فتنة عظيمة على الإسلام وأهله، فلا قوة إلا بالله... وقالوا: إنه غير عدل، ونكثوه في نفوس العوام، وزعموا أنه لا يحل المكث ولا الصبر على هذه السيرة الذميمة، وعوّلوا على تقديم أحد أهل الشورى بقرطبة؛ وهو أبو شماس أحمد بن المنذر الداخل الأموي ابن عم الحكم، لما عرفوا من صلاحه، وعقله، ودينه، فقصدوه وعزّفوه بالأمر، فأبدى الميل إليهم، والبشرى بهم، وقال لهم: أنتم أضيافي الليلة، فإنّ الليل أستر، وناموا.

وقام هو إلى ابن عمه بجهل، فأخبره بشأنهم، فاغتاظ لذلك، وقال: جئت لسفكي دمي أو دمائهم، وهم أعلام، فمن أين نتوصل إلى ما ذكرت؟ فقال: أرسل معي من تثق به ليتحقق، فوجّه من أحب، فأدخلهم أحمد في بيته تحت ستر، ودخل الليل وجاء القوم، فقال: خبّروني من معكم؟ فقالوا: فلان الفقيه، وفلان الوزير، وعدّوا كباراً، والكاتب -من وراء الستار- يكتب حتى امتلأ الرّق، فمدّ أحدهم يده وراء الستار، فرأى القوم، فقام وقاموا، وقالوا: فعلتها يا عدوّ الله، فمن فرّ لحينه نجا، ومن لا، قبض عليه، فكان ممن فرّ عيسى بن دينار الفقيه، ويحيى بن يحيى الفقيه.... وقبض على ناس كأبي كعب، ومالك بن يزيد القاضي، وموسى بن سالم... وأمثالهم من أهل العلم والدين، في سبعة وسبعين رجلاً، فضربت أعناقهم وصلبوا... وعلم الحكم أنه محقود من الناس كلهم، فأخذ في جمع الجنود... وأخذت العامة في الهيج، واستأسد الناس وتنمروا، واستفحل الشر، وكانت وقعة هائلة، مضى فيها عدد كثير زهاء عن أربعين ألفاً من أهل الربض) اهـ

قلت: الله أكبر ما أشبه اليوم بالبارحة، فلا شرّ الحاكم الظالم أزالوا، ولا دماءهم ودماء العامة حقنوا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وغشهم، والخروج عليهم بوجه من الوجوه، كما قد عرف من عادات أهل السنة والدين قديماً وحديثاً، ومن سيرة غيرهم⁽¹⁾.

وقال كذلك رحمه الله: (أما ما يقع من ظلمهم و جورهم بتأويل سائغ أو غير سائغ فلا يجوز أن يزال لما فيه من ظلم و جور كما هو عادة أكثر النفوس تزيل الشرّ بما هو شر منه، و تزيل العدوان بما هو أعدى منه، فالخروج عليهم يوجب من الظلم و الفساد أكثر من ظلمهم، فيصبر عليه كما يصبر عند الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر على ظلم المأمور والمنهي في مواضع كثيرة)⁽²⁾.

وقال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله في باب إنكار المنكر وشروطه: (..وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم؛ فإنه أساس كلّ شرّ وفتنة إلى آخر الدهر...، [إلى أن قال]: ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار؛ رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته، فتولّد منه ما هو أكبر منه...[إلى أن قال]: ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء)⁽³⁾.

وقال ابن رجب -رحمهُ الله-: (وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم)⁽⁴⁾.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمهُ الله: (الأصل الثالث: أن من تمام الاجتماع السمع والطاعة لمن تأمر علينا، ولو كان عبداً حبشياً،

(1) مجموع الفتاوى (12/35).

(2) مجموع الفتاوى (179/28).

(3) إعلام الموقعين (3/15-16 ط/ دار الفكر).

(4) جامع العلوم والحكم (2/117-الرسالة).

فبيّن النبي ﷺ هذا بياناً شائعاً ذائعاً بكل وجه من أنواع البيان شرعاً وقدرأً، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدّعي العمل به⁽¹⁾.

وقال العلامة الإمام عبد اللطيف آل الشيخ رحمه الله تعالى : (أكثر ولاية أهل الإسلام من عهد يزيد بن معاوية حاشا عمر بن عبد العزيز و من شاء الله من بني أمية قد وقع منهم من الجراءة و الحوادث العظام و الخروج و الفساد في ولاية أهل الإسلام، و مع ذلك فسيرة الأئمة الأعلام و السادة العظام معهم معروفة مشهورة، لا ينزعون يداً من طاعة فيما أمر الله به ورسوله ﷺ من شرائع الإسلام لا يعلم أن أحداً من الأئمة نزع يداً من طاعة، ولا رأى الخروج عليهم)⁽²⁾.

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: (الخروج على ولاية الأمور يسبب فساداً كبيراً وشرأً عظيماً، فيختل به الأمن، وتضيع الحقوق، ولا يتيسر ردع الظالم، ولا نصر المظلوم)⁽³⁾.

وقال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: (فتجب طاعة ولي الأمر ولو كان من أفسق عباد الله؛ وذلك لعموم الأدلة الدالة على وجوب طاعة ولاية الأمر، والصبر عليهم، وإن رأينا منهم ما نكره في أديانهم، وعدلهم، واستثثارهم، فإننا نسمع ونطيع، فنؤدي الحق الذي أوجب الله

(1) الأصول الستة (ص/324-كما في الجامع الفريد).

قلت: كالفرق المعاصرة التي غرّبت هذا الأصل العظيم عن أسماع المسلمين، حتى صار من يدعو الناس إلى طاعة الحاكم المسلم وإن كان جائراً في طاعة الله ورسوله ﷺ بالمعروف عميلاً وجاسوساً وبائعاً لذمته في نظرهم والله المستعان!!

(2) الدرر السنية (177/7).

(3) المعلوم (ص9).

علينا، ونسأل الله الحقّ الذي لنا، هكذا أمر النبي ﷺ، وهكذا جرى عليه سلف هذه الأمة⁽¹⁾.

سادسا: توقيز السلطان أو الرئيس، وإكرامه، ومؤازرته، وعدم التشهير بعيوبه على العامة.

إنّ الحزبية الخائفة والضيقة، والتكالب على الدنيا أفقد لكثير من الناس صوابهم، فصاروا لا يفرقون بين حاكم ومحكوم، وعالم وجاهل، وجمعوا بين الوضيع والشريف، وألغوا المنازل التي ارتضاها الله لبعض عباده، وصاروا يقدحون في العلماء وولاة الأمور على المنابر وفي الشوارع، وعلى أوجه الصحف والمجلات، بل صار التفكّه بأعراض الحكّام أنيس المجالس، والتسابق في إصدار النكت المضحكة، والرسوم الكاريكاتورية في حق ولاة الأمور علامة الفطنة والثقافة⁽²⁾.

(1) الشرح الممتع (22/8 ط: آسام).

(2) أخرج عبد الرزاق في المصنف (344/11) عن معمر بن راشد عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن قال: حدثني المسور بن مخرمة أنّه وفد على معاوية رضي الله عنه، قال: فلما دخلت عليه -حسبت أنه قال-: سلمت عليه ثم قال: ما فعل طعنك على الأئمة يا مسور! قلت: أرفضنا من هذا، أو أحسن فيما قدمنا له، قال: لتكلمنّ بذلك نفسك، قال: فلم أدع شيئا أعيبه به إلا أخبرته به، قال: لا أبرأ من الذنوب، فهل لك ذنوب تخاف أن تهلك إن لم يغفرها الله لك؟ قال: قلت: نعم، قال: فما يجعلك أحقّ بأن ترجوا المغفرة مني، فوالله لما ألي من الإصلاح بين الناس، وإقامة الحدود، والجهاد في سبيل الله، والأمر العظام التي تحصيها أكثر مما تلي، وإنني لعلّى دين يقبل الله فيه الحسنات، ويعفو فيه عن السيئات، والله مع ذلك ما كنت لأختير بين الله وغيره إلا اخترت الله على ما سواه، قال (أي المسور): ففكرت حين قال لي ما قال، فوجدته قد خصمني، فكان إذا ذكره بعد ذلك دعا له بخير) وإسناده صحيح، وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبير (21/6 ط: الخانجي) من طريق الزهري قال: حدثني عروة بن الزبير أن المسور به. فرضي الله عن معاوية والمسور، وهدي الله الذين يعيرون على السلطان أخطاءه، وينشرونها في أوساط الناس وهم في يَمّ المعاصي غارقون.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقال الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله: (فلا يُقَصَّرُ بالرجل العالي القدر عن درجته، ولا يرفع مُتَضَعُ القدر في العلم فوق منزلته، ويعطى كلُّ ذي حق فيه حقه، وينزل منزله)⁽¹⁾.

وقال الله جلَّ جلاله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التوبة: ٧١، وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المائدة: ٥٥، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠.

فالحاكم المسلم وإن كان جائراً في الحكم، فهو داخل في عموم هذه الآيات، وحظُّه من المناصرة والإكرام محفوظ، ولا يجوز غيبتها، ولا التفكه بعرضه، ولا سبِّه في المسيرات والتجمعات الشعبية، بحجة ديمقراطية التعبير، وحرية الرأي على طريقة اليهود والنصارى، وقَصَدَ الشارعُ من احترام السلطان وتوقيره ضبطُ مصالح الأنام، وزجرُ سفهاء الأحلام عن الإخلال بالأمن ونشر الرذيلة.

قال العلامة شهابُ الدِّين القَرافي رحمه الله: (قاعدة: ضبطُ المَصالح العامة واجبٌ، ولا تنضبط إلاَّ بعظمة الأئمة في نفس الرعية، ومتى اختلفت عليهم أو أهينوا تعذرت المصلحة)⁽²⁾.

(1) انظر مقدمة الصحيح (ص15 - شرح النووي).

(2) الذخيرة (234/13)، قلت: فهل ما فعله ويفعله بعض الأحزاب الإسلامية في ديار المسلمين؛ من رفع صورة حاكم البلاد في المسيرات في هيئة مُشوَّهة ومُهانة؛ فيه ضبطُ لمصالح المسلمين، أم فيه إفسادٌ للأمة، وتكليبٌ لها على حكامها، ونشرٌ للتمرد والفوضى؟ أترك الإجابة لرؤوس الأحزاب الإسلامية الذين يزعمون الفقه في الدين، ويُبْعِدُ النظر وعمقه!، والإحاطة بكليات الشريعة وقواعدها لعلهم يرشدون.

قال الإمام أبو بكر أحمد بن أبي عاصم (م287) في كتابه السُّنَّة: (باب: ما ذكر النبي ﷺ من أمره بإكرام السلطان وزجره عن إهانتة) وذكر رحمه الله (باب: في ذكر فضل تعزيز الأمير وتوقيره)⁽¹⁾، وسأذكر ما تيسر من النصوص التي أوردها المصنف رحمه الله في كتابه السالف، والله وليّ التوفيق.

عن زياد بن كسيب قال: خرج ابن عامر [وهو عبد الله بن عامر العبسي، كان أميراً على البصرة قبل عثمان]، فصعد المنبر وعليه ثياب رقاق، فقال أبو بلال [وهو مرداس بن أدية، خارجي جاهل]: انظروا إلى أميركم يلبس لباس الفسّاق، فقال أبو بكرة من تحت المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أكرم سلطان الله أكرمه الله، ومن أهان سلطان الله أهانه الله)⁽²⁾.

وعن معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ: (خمسٌ من فعل واحدة منهن كان ضامناً على الله عزّ وجلّ: من عاد مريضاً، أو خرج مع جنازة، أو خرج غازياً، أو دخل على إمامه يُريدُ تعزيره [تعزيره] وتوقيره، أو قعد في بيته فسلم الناس منه، وسَلِمَ من الناس)⁽³⁾.

(1) وقد عقد بعض العلماء لهذا الأمر أبواباً في مصنفاتهم، فهذا أبو القاسم الأصبهاني يقول في الحجة في بيان المحجة (2/309): (فصل في ذكر توقيير السلطان)، ويقول التبريزي في النصيحة للراعي والرعية (ص:60): (باب ذكر النصيحة للأمرء، وإكرام محلّهم، وتوقيير رتبهم، وتعظيم منزلتهم).

(2) إسناده حسن: أخرجه ابن أبي عاصم (برقم1051. وبرقم1052)، والإمام أحمد رحمه الله في المسند (43/5-48-49)، والبيهقي (8/163)، والبخاري في تاريخه (3/366)، والطيالسي في مسنده (برقم 928/ط: التركي)، والقصة له، من طريق حميد بن مهران عن سعد بن أوس، عن رجل يقال له زياد بن كسيب، عن أبي بكرة.

(3) حسن: رواه ابن أبي عاصم في السنة (برقم 1055/ط الجوابرة) والإمام أحمد في المسند (5/241) والطبراني (20/37-38 رقم 54، 55)، والبزار (2/275 رقم 1649- كشف الأستار) من طريق عبد الله بن لهيعة، عن الحارث، عن علي بن رباح، عن عبد الله بن عمرو، عن معاذ به.

والتعزير: الإعانة، والتوقيف، والنصر مرة بعد مرة⁽¹⁾.

وعن يونس بن ميسرة بن حلبس، عن معاوية بن أبي سفيان قال: لما خرج أبو ذر إلى الربذة لقيه ركب من أهل العراق فقالوا: يا أبا ذر! قد بلغنا الذي صنع بك، فاعقد لواءً يأتيك رجالاً ما شئت؛ قال: مهلاً مهلاً يا أهل الإسلام! فإنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (سيكون بعدي سلطان فأعزوه، من التمس ذلك ثغر ثغرة في الإسلام ولم يقبل منه توبة، حتى يعيدها كما كانت)⁽²⁾.

قلت وبالله التوفيق: إن الذين حملوا السلاح في ديار المسلمين، وقتلوا الأبرياء، وشردوا الأتقياء، وأذلوا سلطان الله في الأرض؛ قد ثغروا في الإسلام ثغرة عظيمة، تسرب من خلالها الضلال والكفر إلى ساحة المسلمين، ولن يقبل الله منهم توبة وهم على رؤوس الجبال حتى يعيدوا الصرح إلى ما كان عليه، ويسدوا منافذ الفتن التي أحدثوها بتأويلهم وجهلهم.

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (لا يمشين رجلٌ منكم شبراً إلى ذي سلطان ليذله، فلا والله لا يزال قوم أذلوا السلطان أذلاء إلى يوم القيامة)⁽³⁾.

قلت: وابن لهيعة فيه ضعف، وقد وُصم بالتدليس. وللحديث طريق آخر أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (برقم 1056)، والطبراني في الكبير (37/20 برقم 54)، والحاكم (212/1)، وابن حبان (برقم 372)، والبيهقي (166/9).

(1) انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (228/3).

(2) صحيح: رواه ابن أبي عاصم في السنة (727/2 برقم 1113)، وللحديث طريق آخر رواه الإمام أحمد في مسنده (165/5).

(3) صحيح موقوفاً: رواه ابن أبي شيبة في المصنف (487/7 برقم 37437)، وعبد الرزاق في المصنف (344/11 برقم 20715)، ومعمر في جامعه (344/11 برقم 20715) من طريقين وسنده صحيح، ورواه المحاملي في الأمالي (ص 310) وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (387/2)، ورواه البزار في مسنده (266/7 برقم 2847-2848) عن حذيفة مرفوعاً ولا يصح.

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: (لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم)⁽¹⁾.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (نهانا كبراًؤنا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لا تسبوا أمراءكم، ولا تغشوهم، ولا تبغضوهم، واتقوا الله واصبروا، فإن الأمر قريب)⁽²⁾.

وعن أبي الدرداء قال: (.. وإنَّ أوَّلَ نفاقِ المرء طعنه على إمامه)⁽³⁾.

وعن هلال بن أبي حميد قال سمعت عبد الله بن عكيم يقول: (لا أعين على دم خليفة أبدا بعد عثمان، ف قيل له: يا أبا معبد أو أعنت على دمه؟ فيقول: إني أعدُّ ذكْرَ مساويه عَوْناً على دمه)⁽⁴⁾.

وقال ابن جماعة في (تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام) ذاكراً حقوق ولي الأمر: (الحق الرابع: أن يُعرف له عظيمُ حقِّه، وما يجب من تعظيم قدره، فيعامل بما يجب له من الاحترام والإكرام، وما جعل الله تعالى

(1) تفسير القرطبي (260/5)، ينظر كتاب معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة (ص45) للشيخ الفاضل والأخ الحميم عبد السلام بن برجس رحمه الله.

(2) صحيح: أخرجه ابن أبي عاصم (693/2 برقم 1049) من طريق هديّة بن عبد الوهاب، ثنا الفضل بن موسى، حدثنا حسين بن واقد، عن قيس بن وهب، عن أنس به.

رجاله رجال مسلم خلا هدية، قال عنه الحافظ: صدوق ربما وهم مشيا مع ابن حبان في الحكم، والصواب أنه ثقة، فقد وثقه الذهبي في الكاشف، وابن أبي عاصم، وروى عنه جمع من الثقات منهم: بقية بن مخلد الأندلسي الذي لا يروي إلا عن ثقة، وقد توبع: فرواه البيهقي في الشعب (69/6 برقم 7523) من طريق عبدان بن عثمان، عن أبي حمزة، عن قيس بن وهب به.

(3) إسناده جيد: رواه البيهقي في الشعب (439/16 برقم 8959).

(4) صحيح: أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (115/6 دار صادر) من طريق عبد الله بن إدريس، عن محمد بن أبي أيوب، عن هلال بن أبي حميد به، وأخرجه يعقوب الفسوي في "المعرفة" (231/1) من طريق ابن نمير قال: حدثنا ابن إدريس به. وإسناده صحيح.

له من الإعظام، ولذلك كان العلماء الأعلام من أئمة الإسلام يعظمون حرمتهم، ويلبثون دعوتهم، مع زُهدهم وورعهم، وعدم الطمع فيما لديهم، وما يفعله بعض المنتسبين إلى الزهد من قلة الأدب معهم فليس من السَّنة).

قال العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله: (...ينبغي لمن ظهر له غلطُ الإمام في بعض المسائل أن يناصره، ولا يظهر الشَّناعة عليه على رؤوس الأَشهاد، بل كما ورد في الحديث؛ أنه يأخذ بيده، ويخلو به، ويبذل له النصيحة، ولا يُذلُّ سلطان الله..⁽¹⁾).

وقال الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان حين سئل عن المنهج الصحيح في نُصح الحُكَّام: (العصمة ليست لأحد إلا لرسول الله ﷺ؛ فالحُكَّام بشر يخطئون، ولا شك أن عندهم أخطاءٌ، وليسوا معصومين، ولكن لا نتخذ من أخطائهم مجالا للتشهير بهم⁽²⁾، ونزع اليد من طاعتهم، حتى وإن جاروا، وإن ظلموا، حتى وإن عصوا، ما لم يرتكبوا كفرا بواحا، كما أمر بذلك النبي ﷺ، وإن كان عندهم معاص، وعندهم جور وظلم، فإن الصَّبر على طاعتهم؛ جمع للكلمة، ووَحدة للمسلمين، وحماية لبلاد المسلمين، وفي مخالفتهم ومناذتهم مفساد عظيمة، أعظم من المنكر الذي هم عليه،

(1) السيل الجرار (4/556 تحقيق محمد إبراهيم زايد).

(2) عن عياض بن غنم قال: قال رسول الله ﷺ (من أراد أن ينصح لذي سلطان، فلا يبيده علانية، ولكن يأخذ بيده، فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه) إسناده صحيح انظر السنة لابن أبي عاصم (2/737 تحقيق باسم الجوابرة). وعن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس أمر إمامي بالمعروف؟ قال: إن خشيت أن يقتلك فلا، فإن كنت فاعلا ففيما بينك وبينه، زاد أبو عوانة الوضاح الشكري: (ولا تغتب إمامك). أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (13/273 برقم 7185/ط: الدار السلفية) من طريق عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن معاوية بن إسحاق، قال سمعت سعيد بن جبيرة. وأخرجه كذلك في الشعب (برقم 7186) من طريق معاوية وجريير عن معاوية بن إسحاق، عن سعيد بن جبيرة.

يحصل ما هو أشد من المنكر الذي يصدر منهم، مادام هذا المنكر دون الكفر، ودون الشرك.

ولا نقول: إنه يُسكت على ما يصدر من الحكام من أخطاء، لا؛ بل تُعالج، ولكن تعالج بالطريقة السليمة، بالمناصحة لهم سرا، والكتابة لهم سرا... [ثم قال حفظه الله]: وأولى من يقوم بالنصيحة لولاة الأمور هم العلماء، وأصحاب الرأي والمشورة، وأهل الحل والعقد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فليس كل أحد من الناس يصلح لهذا الأمر، وليس الترويج للأخطاء والتشهير من النصيحة في شيء...⁽¹⁾.

سابعاً: إصلاح فكر الخلق وخواطرهم بإبعادهم عن مخالطة أهل الفكر المنحرف والفساد، وعصمتهم من بعض القنوات الفضائية، التي تبث الرفض في قالب المقاومة والصمود⁽²⁾.

لقد حرّر علماؤنا في مصنفاتهم النافعة والماتعة أن أصل الخير والشر، ومبدأ كل علم نظري، وعمل اختياري؛ من قبل الأفكار والخواطر، فإنها توجب التصورات، والتصورات مبدأ الإرادة، والإرادة تقضي وقوع الفعل من حبٍ أو بغضٍ.

وأنفع الفكر ما كان في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار نافعة، إذا حققها العبد بصدق وإخلاص ولدت فيه أربعة أفكار أخرى؛ وهي: الفكر في مصالح

(1) الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة (ص 25-26).

(2) الفوائد لابن قيم الجوزية (ص 384، 430)، مع شيء من التصرف والزيادة، وهذا الواجب يحمل بعض أعبائه القائمون على ثقافة الأمة تصحيحاً وبناءً، ومن تقلد مهام وسائل الإعلام، لما لها من أثر بالغ في توجيه الأمة، وبنائها أفكارها.

الدنيا وطرق تحصيلها، والفكر في مفسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأفكار الثمانية دارت أفكار المصلحين، ودعاة البناء الحضاري بصدق، وعلماء إصلاح المجتمعات من عفن الأفكار الرديّة، والمذاهب الدنيّة، فالإنسان خير المخلوقات إذا أحاط خواطره بمراقبة وليها جلّ جلاله، وتقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه، وشرّ المخلوقات إذا أرخى العنان لخواطره من غير حراسة ولا هدى ولا سلطان مبين، وآثر البعد عن خالقه ومولاه، وصار حبيس شيطانه وهواه، فإن كلّ ما ينتجه يكون وبالا عليه، وعبثاً ثقيلاً على أمته، وغمة كاتمة لأنفاسها؛ والله المستعان.

وقد خلق الله تعالى النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن، ولا بد لها من شيء تطحنه، فإن وُضع فيها حبّ؛ طحنته وأنتجت دقيقاً نافعا للأمة، وإن وُضع فيها تراب أو حصى؛ طحنته، وأنتجت غباراً وعثناً يعمي بصرها وبصيرتها، فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحبّ الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى النفس أبداً معطلة، بل؛ لابد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حبّاً يخرج دقيقاً ينفع به نفسه وأمته ووطنه، ومادة هذه الرحى كتاب الله تعالى وتفسير السلف له، كتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير السمعاني، والبغوي، وابن أبي زمنين المالكي، والسعدي، وسنة النبي ﷺ؛ كصحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، وموطأ الإمام مالك، والسنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد، وباقي المعاجم، والمستدركات، والأجزاء الحديثية، وكتب أئمة الإسلام؛ كالشريعة للأجري، والإبانة لابن بطة، وذمّ الكلام للهروي، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم هبة اللالكائي، والسنة للخلال، وشرح السنة للبرهاري، وغيرها من مصنفات أئمة الإسلام المتينة والأمنية، أضف إلى ذلك باقي العلوم الكونية النافعة من رياضيات وفيزياء وطبّ، فإذا تغذت الخواطر وطحنت النفس هذه المواد، ظهر نفعها على الجوارح، من توحيد خالص لله تعالى، وانقياد واضح لرسول الله ﷺ، وبناء

متين للأمة، وطاعة بالمعروف لولاة أمور المسلمين، ووقاية محكمة ورزينة من الفتن وعوامل هلاك الأمة، وأما إذا وُضع في الرحى تبين ورملة وحمم؛ فإنَّ النتيجة معروفة للعيان، وبيان ذلك؛ إذا وُضع في الرحى كتب أهل الفكر المنحرف، ومادة الفرق الضالة كالخوارج، والمعتزلة، والرافضة، والمرجئة، والفلاسفة الأشرار، وكتب السحر والشعوذة، والخلاعة والمجون، وما تسرب عنهم من شرٍّ فإنَّ العاقبة: شركٌ بالله وضلالٌ، وخروجٌ على ولادة أمور المسلمين بالسيف والسنان، وفتن وقتل للأنفس، وتعطيل لأسماء الله وصفاته، وسبِّ لصحابة رسول الله ﷺ، وإخراج للأعمال من مسمى الإيمان، وتعطيل لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء للجريمة المنظمة، وتمكينٌ لدعاة الشرِّ من ترويج المخدرات، وانتشارٌ لبيوت الدعارة التي تبث الأمراض الفتاكة في كبد الأمة، فهذا هو عجين ما تطحنه النفس التي وضعت فيها مواد أهل الباطل.

فإياكم يا أبناء الأمة رعاكم الله من كل شرٍّ أن تمكنوا الشيطان وأعوانه من الإنس من بيت أفكاركم وإراداتكم، فإنهم يفسدون بها عليكم فسادا يصعب تداركه، ويلقون إليكم أنواع الوسوس والهواجس والأفكار المضرة، ويحولون بينكم وبين الفكر فيما ينفعكم في دينكم ودنياكم.

ثامنا: المحافظة على العهود والمواثيق، وإعطاء المستأمنين حقهم من الأمان في الأنفس والأموال والأعراض، وتحريم الغدر بكل صوره، والكف عن قتل الرُّسل؛ وهم سفراء الدول الكافرة القائمين بأعمالهم في ديار المسلمين:

إنَّ محافظة المسلمين على العهود المبرمة⁽¹⁾ بينهم، وبين غيرهم من الملل الكافرة يضمن لهم الاستقرار والأمان، ويجنبهم الحروب والفتن،

(1) قال العلامة السَّعدي رحمه الله في التيسير (ص81) عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يَعْهَدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ من سورة البقرة: (والعهد هو: الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد =

ويسهل لهم تنمية اقتصادهم، ونشر دينهم إذا نزلوا بساحة الكفار، وقد أمر المولى جلّ وعز في غير ما آية بالوفاء بالعهود، وإتمام البنود إلى آجالها، وقد زادت السنة النبوية الأمر تأكيداً ووضوحاً، لا يترك مجالاً للمقامرين بمصير الأمة العيث بأمنها، وهزّ سمعتها.

إنّ الذي يقع في بعض الدول الإسلامية، من اعتداء على المستأمنين بالخطف والقتل والاغتيال، بأيادي بعض الجماعات ممن تسمي نفسها إسلامية، تحت دوافع متنوعة، وأهداف عدّة أملاها عليهم الهوى والجهل بالشرعية، جرّ على المسلمين الضيم والضيق، وخفر ذمّة ولاية أمور المسلمين وباقي أبناء الأمة، وفتح سبلاً لدول الكفر العاتية للتدخل في شؤون الأمة، والتضييق عليها بحجة محاربة الإرهاب، مما آل ببعض الدول الكافرة إلى التعامل مع البشرية السمرء في إقليمها بأساليب عجيبة للغاية، جعلت أصحاب البشرية السمرء محل ريبة وفي قفص الاتهام، وقد يُغلق مطار بكامله إذا رأى الكفار مسلماً يصلي أو يحرك لسانه ببعض الآيات.

أفسد الناس خلوف خلفوا *** قطعوا الإلّ وأعراق الرحم.

لقد عجبت لدعاة الجهاد بأصول الخوارج وقواعد المعتزلة؛ كيف يطمعون في تحقيق النصر، وقهر أهل الكفر، وهم يخالفون نصوص الكتاب والسنة، ويتكبدون منهج السلف في التعامل مع المعاهدين والمستأمنين، رافعين لواء الغدر باسم الاغتيال المشروع، وإحياء السنن المهجورة،

= لنفسه، فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والنذور ونحو ذلك).

ومقتفين سبيل المجرمين من اليهود النصارى في تحقيق مآربهم الباطلة،
تحت القاعدة الكافرة الغاية تبرر الوسيلة⁽¹⁾!

وإن الذي أقوم به في هذا الفصل هو سرد للنصوص التي تأمر بالوفاء
بالعهد، وتنهى عن الغدر بكل صوره؛ عسى أن يجد فيها رؤوس الجماعات
التي تدعو إلى الجهاد في العصر الحديث بمفاهيم الانتقام وعزر الخلق
بالباطل رادعا لهم من الغدر، ودافعا لهم إلى الوفاء بالمواثيق والعهود، إذا
أرادوا نصر الله المؤزر، الذي يحقق الكرامة للمسلمين ويرفع عنهم الذل والمهانة.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ البقرة: ٢٧. وقال تعالى: ﴿بَنَاتُهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ المائدة: ١. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَوْفَاؤُهُ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأنعام: ١٥٢. وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
كَمْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ الرعد: ١٩ - ٢٠.
وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ
جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ النحل: ٩١. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ
مَسْئُورٌ﴾ الإسراء: ٣٤. وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
آل عمران: ٧٦. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ
الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي

(1) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (482/14): (...وكذلك العمل
فصاحبه إما معتد ظالم، وإما سفيه عابث، وما أكثر ما يصور الشيطان ذلك بصورة الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، و الجهاد في سبيل الله، ويكون من باب الظلم والعدوان).

الْفُرْبِ وَالْيَتَمَى وَالْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿البقرة: ١٧٧﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ﴾ ﴿المؤمنون: ٨﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ﴾ ﴿المعارج: ٣٢﴾ [المعارج: 32]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَاَنْذِرْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿الأنفال: ٥٨﴾ وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿يوسف: ٥٢﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿الفتح: ١٠﴾.

وقد جاءت نصوص كثيرة وواضحة في السنة المطهرة تأمر بالوفاء بالعهد، وتنهى وتزجر عن الغدر، ولو كان المقتول كافرا بين الكفر، وتحذر المغرر بهم من مغبة نقض العهود والمواثيق، وأنها تؤول إلى نشوب القتل والحروب بين المسلمين وأعدائهم، مما يعود على الدول الإسلامية الضعيفة بالضرر والخسارة؛ نصوص عظيمة ومغنية عن وسائل الإعلام أذكر منها ما يحضرني، مع بيان معنى المستأمن والمعاهد، والله يعلم المصلح من المفسد.

أولاً: تعريف الأمان وممن يصح، ودليله من الكتاب والسنة⁽¹⁾:

قال العلامة الفقيه محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: (الأمان: عبارة

(1) وفي المقابل قال الإمام الشافعي في الأم (4/ 263): (إذا دخل قوم من المسلمين بلاد الحرب بأمان فالعدو منهم آمنون إلى أن يفارقوهم أو يبلغوا مدة أمانهم وليس لهم ظلمهم ولا خيانتهم). وقال ابن قدامة في المغني (13/ 152): (من دخل إلى أرض العدو بأمان لم يخنهم في مالهم ولم يعاملهم بالربا، أما خيانتهم فمحرمة لأنهم إنما أعطوه الأمان مشروطاً بتركه خيانتهم وأمنه إياهم من نفسه، وإن لم يكن ذلك مذكوراً في اللفظ فهو معلوم في المعنى) اهـ. قارن هذا بصنيع بعض الجهلة في ديار الكفر تجد العجب!

عن تأمين الكافر مُدَّة محدودة، أي يُؤمَّن حتى يبيع تجارته، أو حتى يشاهد بلاد المسلمين ويرجع، أو حتى يسمع كلام الله ويرجع، وهذا التأمين ليس عقدا بل أمان فقط، ولهذا صحَّ من كل إنسان حتى من امرأة، ومن قن، لكن لا بد أن يكون المؤمن مسلما، فلو فرضنا إن في البلد طوائف متعددة؛ نصارى ومشركيين، لكنهم باقون في عهد المسلمين، فهؤلاء لا يصح منهم أن يؤمنوا كافرا يدخل بلاد المسلمين، لأنهم لا يؤمنون، فقد يكون بينهم وبين هذا طالب للأمان اتفاق فيؤمَّنونه حتى يأتي ليأخذ أسرار المسلمين وأحوالهم⁽¹⁾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة: ٦.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (والغرض أن من قَدِم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة، أو تجارة، أو طلب صلح، أو مُهادنة، أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانا، أعطي مادام مترددا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه)⁽²⁾.

ثم ذكر ابن كثير أن بعض العلماء حدد المدة بأربعة أشهر، والصواب أنه يمكن إلا أن يقضي المستأمن حاجته.

وقال الإمام ابن كثير مبينا نعمة الوفاء بالعهد وأنه نصر للمسلمين في أجل الأمر: (ومن هنا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدا أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرُّسل من قريش منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحدا بعد واحد،

(1) الشرح الممتع (48/8 ط: آسام).

(2) تفسير ابن كثير (7/151-152 ط/ أولاد الشيخ)، وينظر معه الأوسط لابن المنذر (267/11).

يتردّدون في قضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم) اهـ.

وعن علي بن أبي طالب قال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله تعالى، وما في هذه الصحيفة، فقال: فيها الجراحات وأسنان الإبل، والمدينة حرم ما بين غير إلى كذا.... وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم فمن خفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل⁽¹⁾.

ومعنى قول النبي ﷺ (ذمة المسلمين واحدة): يعني: عهدهم واحد، إذا عاهد أحد من المسلمين ممن لهم ولايات العهد رجلاً، ثم خفر (ذمته) أحد ممن يدعي الجهاد البدعي، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه عدلٌ وصرف.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى عند شرحه لحديث: "ذمة المسلمين واحدة"، (يعني: عهدهم واحد، إذا عاهد أحد من المسلمين ممن لهم ولايات العهد، ثم خفر ذمته أحد، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين).

فمثلاً: إذا دخل كافر إلى البلد في أمان وعهد ممن لهم ولاية العهد، أو غيرهم ممن له الأمان، ثم خفره أحد؛ استحق اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين، لو أن كافرًا دخل بأمان، وآواه رجل مؤمن، وقال له: ادخل أنت في جوارِي، ثم جاء إنسان وقتل هذا الكافر - رغم أمانه من المسلم - فعلى القاتل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، نسأل الله العافية، كيف إذا دخل بأمان من ولي الأمر؟ على أنه مؤتمن، وفي جوار وأمان الدولة، ثم يأتي إنسان فيقتله! هذا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ وفي هذا

(1) أخرجه البخاري (برقم 111- 1870- 3047- 3172- 3179- 6755) والإمام مسلم (برقم 1370) من طريق إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن علي رضي الله عنه به.

دليل على حماية الدين الإسلامي لمن دخل بأمانه وجواره، وأن الدين الإسلامي لا يعرف الغدر والاعتقال، والجرائم، إنه دين صريح.

وبهذا نعرف غلط من يغدرون بالذمم، ويخونون، ويغتالون أناساً لهم عهد وأمان، وأن هؤلاء مستحقون لما أعلنه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والعياذ بالله.

نعم، الحربي الذي يدخل بدون أمان، لم يعطه أحد من المسلمين الأمان، ويدخل مُسْتَحْفِيّاً ليكون جاسوساً للعدو، أو مفسداً في الأرض؛ هذا يُقْتَل.

أما إنسان دخل بأمان من الدولة، أو أمان من أي طرف من المسلمين، فهذا لا يقتل، فهو نفس محترمة معصومة، مَنْ غَدَرَ بِهَا؛ فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين.

وبهذا نعرف خطأ ما نسمعه في بعض البلاد من الاعتداء على الآمنين الذين لهم عهد من الدولة، تجدهم آمنين بذلك، ثم يأتي إنسان باسم الإسلام، فيغتالهم؟ لا، فالإسلام لا يعرف الغدر، يقول الله - عز وجل - ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ويقول عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ العهد شيء عظيم، والغدر به فظيع والعياذ بالله، ليس من الإسلام في شيء، لكن بعض الجهال يظنون أن يخفوا غيرتهم بما لا يطابق الكتاب والسنة، وهذا خطأ، المؤمن مُقَيَّدٌ بما جاء به الشرع، وليس الإيمان بالهوى ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ (1) اهـ.

وعن أبي مرة مولى أمّ هانئ بنت أبي طالب أخبر أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل،

(1) شرح رياض الصالحين (4/464)، كلام عظيم من عالم من علماء المسلمين رحمه الله.

وفاطمة ابنته تستره، فسلمت عليه، فقال: (من هذه)، فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: (مرحبا بأم هانئ)، فلما فرغ من غسله قام فصلى ثمانين ركعات، متلحفا في ثوب واحد، فقلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي، عليّ، أنه قاتل رجلا قد أجرته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: (قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ)⁽¹⁾.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (إن كانت المرأة لتجيز على المؤمنين فيجوز)⁽²⁾.

وعن أنس بن مالك قال: لما افتتح أبو موسى تَسْتُر فأتى بالهرمزان أسيرا، فقدمت به على عمر بن الخطاب، فقال له: ما لك؟ فقال الهرمزان: بلسان ميت أتكلم، أم بلسان حي؟، قال له: تكلم فلا بأس. قال الهرمزان: إننا وإياكم معاشر العرب كنّا ما خلّى الله بيننا وبينكم لم يكن لكم بنا يدان، فلما كان الله معكم لم يكن لنا يدان، فأمر بقتله. فقال أنس بن مالك: ليس إلى ذلك سبيل فقد أمتته. قال: كلا، ولكن ارتشيت منه، وفعلت، وفعلت. فقلت: يا أمير المؤمنين ليس إلى قتله سبيل، قال: ويحك إننا نستحييه بعد قتله البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور، ثم قال عمر: هات البيّنة على ما تقول، فقال له الزبير بن عوام: قد قلت له تكلم فلا بأس. فدرأ عنه عمر القتل، وأسلم، ففرض له عمر في العطاء على ألف أو ألفين)⁽³⁾.

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 3171 باب: أمان النساء وجوارهن)، والإمام مسلم (برقم 336).

(2) صحيح أخرجه الإمام أبو داود (برقم 2785/ط: عوامة)، والنسائي في الكبرى (57/8 برقم 8630)، والبيهقي في الكبرى (336/8 برقم 16814) عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة.

(3) صحيح: أخرجه سعيد بن منصور في سننه (252/2 برقم 2670)، والبيهقي في السنن الكبرى (164/9 برقم 18183) من طريق هشيم بن بشير، قال: أنا حميد الطويل عن أنس. وأخرجه ابن أبي شيبة (456/12) من طريق مروان بن معاوية عن حميد.

وعن يحيى بن جابر قال: أتى حصين بن نمير السكوني، وهو على الناس بأرض الروم بأسير وهو على غدائه، فناولته بعض القوم عرقاً من اللحم، فرآه حصين يأكل، فقال: كيف نقتله وطعامنا بين أسنانه، فخلى سبيله⁽¹⁾.

وعن أبي وائل قال: (أتانا كتاب عمر ونحن بخانقين: إذا قال الرجل إلى الرجل: لا تخف، فقد أمّنه، وإذا قال: مترس، فقد أمّنه، فإن الله يعلم الألسنة)⁽²⁾.

قلت: ومترس بلسان العربية والفارسية: لا تخف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (...ولهذا جاءت السنة بأن كل ما فهم الكافر أنه أمان كان أماناً لئلا يكون مخدوعاً، وإن لم يقصد خدعه)⁽³⁾.

وقال رحمه الله: (...ومعلوم أن شبهة الأمان كحقيقته في حقن الدم)⁽⁴⁾.

وإنني حين أقف على آثار السلف، ومواقف أمراء جيوش المسلمين في تعاملهم مع المستأمنين والأسرى، أدرك سرّ نصرهم وتمكنهم من رقاب أعدائهم، فهذا أنس بن مالك يخبر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؛ أنه بقوله

(1) صحيح: أخرجه سعيد بن منصور في سننه (252/2 برقم 2671) من طريق إسماعيل بن عياش، عن سليمان بن سليم عن يحيى بن جابر.

إسماعيل ثقة في روايته عن أهل بلده، وسليمان بن سليم هو أبو سلمة الشامي القاضي الحمصي، ويقال الدمشقي ثقة، ويحيى بن جابر هو الطائي، أبو عمرو الحمصي ثقة.

(2) أخرجه البخاري تعليقا (كتاب الجزية والموادعة باب: إذا قالوا صبأنا ولم يحسنوا أسلمنا) وأوصله ابن أبي شيبة في المصنف (457/12)، والبيهقي في الكبرى (163/9 برقم 18180-18181).

(3) بيان الدليل على بطلان التحليل (ص 64).

(4) الصارم المسلول على شاتم الرسول (522/2 ط: رمادي للنشر).

للأسير لا بأس عليك صار دمه حراما، وهذا حصين بن نمير السكوني أحد أمراء يزيد بن معاوية في محاصرة المدينة وابن الزبير، يعفو عن أسير رومي بعد ما رآه يأكل معه على مائدته، قارن هذه المواقف النبيلة مع ما يصنعه دعاة الجهاد في البلدان الإسلامية مع المسلمين والمستأمنين، ولهذا ما من عمل يقوم به زعماء الجهاد على مفهومهم القاصر إلا ويعود سلبا وبالضرر على المسلمين ودينهم، وأول من يستفيد من خلطهم وخرطهم أعداء الدين من اليهود والنصارى.

قال ابن عبد البر رحمه الله: «إذا كان دم الحربي الكافر يحرم بالأمان، فما ظنك بالمؤمن الذي يصبح ويمسي في ذمة الله، كيف ترى في الغدر به والقتل؛ وقد قال ﷺ: (الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن)»⁽¹⁾.

(1) الاستذكار (167/5) كتاب الجهاد، باب: ما جاء في الوفاء بالأمان ط/مؤسسة النداء.

قلت: الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (166/1) من طريق المبارك، حدثنا الحسن، قال: جاء رجل إلى الزبير بن عوام فقال: ألا أقتل لك عليا؟ قال: لا، وكيف تقتله ومعه جنود؟ قال: ألحق به فأفتك به. قال: لا، إن رسول الله ﷺ قال: (إن الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن).

والحديث رجاله ثقات خلا المبارك بن فضالة، فقد علق له البخاري، وهو وإن كان مدلسا فقد صرح بالتحديث، قال الإمام أحمد: ما روى عن الحسن يحتج به، وقد توبع كما سيأتي، والحسن: هو ابن أبي الحسن البصري، رأى الزبير يبايع عليا وهو ابن أربع عشرة سنة.

وأخرجه الإمام أحمد (167/1) من طريق إسماعيل، حدثنا أيوب، عن الحسن قال: جاء رجل للزبير به.

وإسماعيل هو ابن إبراهيم بن مقسم المعروف بابن عليّة، وأيوب هو: ابن أبي تميمة السختياني.

وأخرجه عبد الرزاق (برقم 9676) من طريق إسماعيل بن مسلم، و(برقم 9677) من طريق قتادة، وابن أبي شيبه (123/15-279) من طريق عوف الأعرابي؛ ثلاثهم عن الحسن البصري به.

وأخرجه الإمام أبو داود رحمه الله في سننه (برقم 2769)، كتاب الجهاد، باب: في العدو يؤتى على غرة ويتشبه بهم) من طريق إسحاق بن منصور، ثنا أسباط الهمداني، عن السدي، عن أبيه، عن أبي هريرة، به.

إسناد رجاله لا بأس بهم، فابن خُزابة هو محمد المروزي ثم البغدادي، صدوق أو أكثر، وإسحاق بن منصور هو السلولي ثقة على القول الراجح، والسَّدي وهو إسماعيل بن عبد الرحمن صدوق حسن الحديث إمام في التفسير. غير أسباط وهو بن نصر، صدوق كثير الخطأ يغرب كما قال الحافظ، وأبو السَّدي، وهو عبد الرحمن ابن أبي كريمة مجهول العين، فقد تفرد بالرواية عنه ابنه إسماعيل، وذكره ابن حبان في الثقات. وأخرجه الحاكم (352/4) من طريق آخر عن أسباط، وقال: صحيح على شرط مسلم! ووافقه الذهبي!.

وغفلا رحمهما الله عن حال عبد الرحمن بن أبي كريمة. وله شاهد أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في المسند (92/4) من طريق عفان، حدثنا حماد بن سلمة، قال: أخبرني علي بن زيد عن سعيد بن المسيب؛ أن معاوية دخل على عائشة، فقالت له: أما خفت أن أقعد لك رجلا فيقتلك؟ فقال: ما كنت لتفعلي وأنا في بيت أمان، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول -يعني-: (الإيمان قيد الفتك). كيف أنا في الذي بيني وبينك، وفي حوائجك؟ قالت: صالح. قال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا عز وجل. قلت: اختلف فيه على حماد، فرواه عفان عنه، عن ابن جدعان، عن سعيد، أن معاوية به. ورواه عمرو بن عاصم الكلابي، وسعيد بن سليمان النشيطي، وعمار بن هارون، عنه بهذا الإسناد مع زيادة مروان بن الحكم بين سعيد ومعاوية. قال الإمام الدارقطني في العلل (64/7 س: 1215): (يرويه حماد بن سلمة واختلف عنه، فرواه عمرو بن عاصم، وعمر بن موسى الحادي -وهو الكديمي-، وعمار بن هارون، عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن مروان بن الحكم، عن معاوية، وخالفهم عفان، وموسى بن إسماعيل، فروياه عن حماد، ولم يذكر في الإسناد مروان، والأول أشبه بالصواب). قلت: وأخرجه الطبراني في الكبير (723/19) من طريق عفان، ومن طريق سعيد النشيطي، كلاهما عن حماد بزيادة مروان. وأخرجه القضاعي (برقم 863) من طريق سعيد بن سليمان، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (189/1) من طريق عمار بن هارون، والحاكم (352/4-353) من طريق عمرو بن عاصم الكلابي؛ جميعهم عن حماد بزيادة مروان. قلت: وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

=

وعن رفاعه بن شداد الفتياني (وفي بعض النسخ القتباني) قال: كنت أبطنُ شيء بالمختار -يعني الكذاب- قال: فدخلت عليه ذات يوم فقال: دخلت وقد قام جبريل من الكرسي! قال: فأهويت إلى قائم سيفي؛ فقلت: ما أنتظر أن أمشي بين رأس هذا وجسده، حتى ذكرت حديثاً حدثني عمرو بن الحمق؛ أن النبي ﷺ قال: (إذا أمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله، رُفِعَ له لواء الغدر يوم القيامة) فكففتُ عنه⁽¹⁾.

= قلت وبالله أستعين: ومعنى الحديث أن الإيمان الصحيح على فهم السلف يمنع من الفتك الذي هو القتل بعد الأمان غدرا، كما يمنع القيد من التصرف، وأورد الإمام أبو داود الحديث عَقِبَ إirاده لحديث قتل كعب بن الأشرف اليهودي تأصيلا منه رحمه الله أن كعبا اليهودي لم يقتل غدرا كما ينشر ذلك دعاة السياسة باسم الإسلام، بل هو الذي نقض العهد وطعن في النبي ﷺ فانتدب ﷺ إلى قتله جزاء وفاقا، راجع كلام الخطابي في هذا السياق.

قال العلامة صالح الفوزان كما في "فتاوى الأئمة في النوازل المدلهمة ص: 101": (ليس في قصة قتل كعب دليل على جواز الاغتيالات؛ فإن قتل كعب بن الأشرف كان بأمر الرسول ﷺ وهو ولي الأمر، وكعب من رعيته بموجب العهد، وقد حصلت منه خيانة للعهد، اقتضت جواز قتله؛ كفا لشره عن المسلمين، ولم يكن قتله بتصريف من آحاد الناس، أو بتصريف جماعة منهم من دون ولي الأمر، كما هو حال الاغتيالات المعروفة اليوم في الساحة، فإن هذه فوضى لا يقرها الإسلام؛ لما يترتب عليها من المضار العظيمة في حق الإسلام والمسلمين).

(1) صحيح: أخرجه أبو داود الطيالسي (برقم 1382)، والنسائي في الكبرى (8/78 برقم 8688)، والبيهقي (9/241 برقم 18423) والحاكم (4/353)؛ من طريق قرة بن خالد، عن عبد الملك بن عمير، عن رفاعه به.

وأخرجه النسائي في الكبرى (برقم 8686، 8687)، وابن أبي شيبة في المسند (برقم 863)، وأحمد (5/223 برقم 21996، 21998)، وابن ماجه (برقم 2688)، والبخاري (2306)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (4/317 برقم 2345)، وابن حبان كما في صحيح موارد الظمان للشيخ ناصر (برقم 1400)، والطحاوي في مشكل الآثار (5/664 برقم 3793 و3794 تحفة الأخيار) من طرق عن عبد الملك بن عمير عن رفاعه به.

ومن طريق آخر عن رفاعه بن شدّاد، قال: حدثني عمرو بن الحمق؛ أنّ رسول الله ﷺ قال: (إذا أَمَّنَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ على نفسه، ثُمَّ قَتَلَهُ، فأنا بريءٌ من القاتل وإن كان المقتول كافراً) ⁽¹⁾.

وعن عروة بن الزبير أن المغيرة بن شعبة صحب قوما من المشركين، فوجد منهم غفلة فقتلهم، وأخذ أموالهم، فجاء بها إلى النبي ﷺ فأبى أن يقبلها ⁽²⁾.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: (وفي قول النبي ﷺ للمغيرة: "أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء" دليل على أنّ مال المشرك المعاهد معصوم، وأنه لا يُملك، بل يرد عليه) ⁽³⁾.

وأخرجه البزار (برقم 2307) من طريق عبد الملك، عن عامر بن شدّاد، عن عمرو بن الحمق، وأخرجه الطبراني في الأوسط (برقم 8428) من طريق عبد الملك عن شدّاد بن حكم، عن عمرو بن الحمق به.

والذي يظهر أن رفاعه وشدّاد و عامر شيء واحد، وعبد الملك كان يخطئ في اسمه. (1) أخرجه الطيالسي في مسنده (برقم 1381) والبيهقي في السنن الكبرى (9/240 برقم 18422) والإمام أحمد في مسنده (5/224 برقم 21997) والبخاري في التاريخ تعليقا (322/3)، والبزار (برقم 2308-2309)، وغيرهم، والحديث صحيح بشواهد، انظر صحيح موارد الظمان للعلامة محمد ناصر الدين الألباني (2/125 باب: النهي عن الغدر)، والصحيحة (برقم 440).

(2) صحيح: أخرجه النسائي في الكبرى (برقم 8733)، والإمام أحمد في المسند (4/246)، والطبراني في الكبير (20/1076) من طريق أبي معاوية، حدثنا هشام بن عروة، عن أبيه به. وجاء في المسند (4/328-331) في حديث قصة الحديبية الطويل، من طريق عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم -يصدّق كلّ واحد منهما حديث صاحبه- وفيها: (وكان المغيرة صَحِبَ قوما في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: (أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)). (3) الزاد (3/304).

ثانيا: تعريف الهدنة ودليها من الكتاب والسنة⁽¹⁾.

الهدنة في اللغة الدعة والسكون، وتسمى مهادنة، ومواعدة، ومعاهدة، ومسالمة.

وهي عقد الإمام أو نائبه على ترك القتال مدة معلومة أو مطلقة، ولو طالت بقدر الحاجة، حيث جاز تأخير الجهاد لضعف المسلمين.

ولا يعقدها إلا الإمام الذي بيده العقد، أو نائبه، لأنها تتعلق بنظرهما واجتهادهما، وليس غيرهما محلا لذلك، لعدم ولايته، وصلاحيته لترك القتال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ويجوز عقدها مطلقا ومؤقتا، والمؤقت لازم من الطرفين، يجب الوفاء به، ما لم ينقضه العدو، ولا ينقض بمجرد خوف الخيانة في أظهر قولي العلماء، وأما المطلق فهو عقد جائز يعمل الإمام فيه بالمصلحة⁽²⁾).

وقال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: (وليعلم أن العهد الذي بيننا وبين الكفار له ثلاث حالات كلها في القرآن:

الحالة الأولى: أن ينقضوا العهد هم بأنفسهم، فإذا نقضوا العهد انتقض العهد الذي بيننا وبينهم، ومثاله: قصة قريش؛ لأن قريشا نقضوا العهد حين ساعدوا حلفاءهم على حلفاء النبي ﷺ، وحينئذ ينتقض العهد، والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ۚ أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَرِهَ اللَّهُ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ﴾

(1) حاشية الروض المربع لعبد الرحمن بن قاسم النجدي (4/299)، والشرح الممتع للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (8/48).

(2) الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام (ص: 262-كتاب الجهاد، باب: الهدنة/ط: دار الكتب العلمية).

الحالة الثانية: أن يستقيموا لنا ولا نخاف منهم خيانة، ولم تر منهم خيانة، فحينئذ يجب علينا أن نستقيم لهم كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

الحالة الثالثة: أن نخاف منهم نقض العهد، فهنا لا يلزمنا أن نبقي على العهد، ولا يجوز لنا أن نقاتلهم، بل نبذ إليهم على سواء، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْغَائِبِينَ﴾، أي انبذ العهد على سواء؛ لتكون أنت وإياهم على سواء في أنه لا عهد بينكم، وهذا هو الإنصاف، لأن الدين الإسلامي أقوم الأديان وأعدلها، فما استقاموا لنا فإننا نستقيم لهم، وإن نقضوا عهدنا فلا عهد لهم، وإن خفنا منهم نبذ إليهم على سواء، فنقول: لا عهد بيننا وبينكم، ولا نأتيهم على غرة ونباغتهم؛ لأن الأصل قيام العهد⁽¹⁾.

دليل الوفاء بالعهد والهدنة من الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما الإمام جنة، يقاتل من ورائه ويتقى به)⁽²⁾.

بؤب الإمام أبو داود في سننه رحمه الله: باب في الإمام يُستجَنُّ به في العهود.

وعن أبي رافع وكان قبطياً، قال: بعثني قريش إلى رسول الله ﷺ، فلمّا رأيت رسول الله ﷺ ألقى في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله ﷺ لا أرجع إليهم أبداً، فقال رسول الله ﷺ: (إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البُرْدَ،

(1) الشرح الممتع (54/8-55)، وقد أتممت بعض الآيات ذكرها الشيخ ناقصة.

(2) أخرجه الإمام البخاري (برقم 2957)، ومسلم (برقم 1841) من طرق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن، فارجع)، قال: فذهبت ثم أتيت النبي ﷺ وأسلمت)، سمعت [وهو أبو علي محمد بن عمرو اللؤلؤي] أبا داود يقول: هذا كان في ذلك الزمان، فأما اليوم فلا يصلح⁽¹⁾.

قال السندي: قوله: (لا أخيس العهد) أي: لا أنقضه، يقال خاس يخيس ويخوس، إذا غدر ونقض العهد.

(البُرد) بضمّتين، جمع بريد، بمعنى الرّسول، لا أحبس الرّسُل الواردين عليّ، فإن ذلك يؤدي إلى قطع الطرق.

قلت: ومعنى ذلك أن الاعتداء على سفراء الدول الكافرة في الديار الإسلامية نقض للعهد، واعتداء وظلم، مادامت القنصليات والسفارات وضعت رحالها في الدّيار الإسلامية بإذن من الحاكم المسلم، ويأتي بيان هذا الأمر لاحقاً.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة ابن اليمان قال: ما منعني أن أشهد بدرا إلا أنني خرجت أنا وأبي حُسيل، قال: فأخذنا كُفَّارُ قريش، قالوا: إنكم تريدون محمداً؟ فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منّا عهداً الله وميثاقه لننصرفنّ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: (انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)⁽²⁾.

قال النووي في شرحه: (وأما قضية حذيفة وأبيه، فإنّ الكُفَّار استحلّفوهما لا يقاتلان مع النبي ﷺ في غزاة بدر، فأمرهما النبي ﷺ بالوفاء، وهذا ليس للإيجاب، فإنّه لا يجب الوفاء بترك الجهاد مع الإمام ونائبه،

(1) إسناده صحيح: أخرجه الإمام أحمد (8/6)، والإمام أبو داود (برقم 2752)، والنسائي في الكبرى (برقم 8621)، وابن حبان في صحيحه (برقم 4877).

وقول أبي داود: (فأما اليوم فلا يصلح): قال أبو البركات بن تيمية في المنتقى: (ومعناه والله أعلم؛ أنه كان في المزة التي شرط لهم فيها أن يُردّ من جاء منهم مسلماً).

(2) صحيح مسلم (برقم 1787، باب: الوفاء بالعهد).

ولكن أراد النبي ﷺ أن لا يشيع عن أصحابه نقض العهد، وإن كان لا يلزم ذلك، لأن المشيع لا يذكر تأويلا).

قلت وبالله التوفيق: لقد رخص رسول الله ﷺ لحذيفة وأبيه ترك شهود غزوة بدر الكبرى معه إعظاما منه ﷺ لقيمة العهد، ومنزلة الوفاء به، في موقف الحق فيه أبلج والباطل فيه لجلج، فماذا نقول عن أقوام نقضوا عهودا أبرمها ولالة أمورهم بحجج هي أوهى من بيت العنكبوت، وخفروا ذمة المسلمين، ونحروا المستأمنين في ديار المسلمين؟!.

لقد أعطى دعاة الفتن الكفار دفعة قوية لوسم المسلمين بمعة نقض العهود والاعتداء على الآمنين، وهذا ما كان يتخوف منه النبي ﷺ كما أشار إلى ذلك النووي رحمه الله.

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، فقل هذه غدره فلان بن فلان)⁽¹⁾.

وأخرج البخاري ومسلم من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أخبره أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره [في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام]؛ قال هرقل لأبي سفيان: هل يغدر [أي ﷺ]؟ فقال: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال هرقل: وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرُّسل لا تغدر).

بؤب الإمام البخاري للحديث في كتاب الجزية والموادعة (برقم 3174 باب: فضل الوفاء بالعهد).

قال ابن بطال رحمه الله: «أشار البخاري بهذا إلى أن الغدر عند كل أمة قبيح مذموم، وليس هو من صفات الرُّسل».

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم 3188-6177-7111)، ومسلم (برقم 1735).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أربع خلال من كُنَّ فيه كان منافقا خالصا: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)⁽¹⁾.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)⁽²⁾.

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 3178-باب: إثم من عاهد ثم غدر).
(2) صحيح بمجموع طرقه: أخرج الإمام أحمد (3/135-154-210) وابن أبي شيبة (11/11)، وأبو يعلى (برقم 2863)، وعبد بن حميد في مسنده (برقم 1198)، والدولابي في الكنى (2/145)، والبيهقي في السنن الكبرى (9/387 برقم 18851)، وفي شعب الإيمان (8/301 برقم 4045/ط: السلفية) من طرق عن أبي هلال الراسبي، حدثنا قتادة، عن أنس به.

وهذا إسناد صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين خلا أبو هلال، وهو محمد بن سليم الراسبي، ضعفه جمع من أهل العلم منهم البخاري والنسائي وابن سعد، ووثقه أبو داود، وقال عنه ابن معين صدوق، وقال مرة ليس به بأس، فهو ضعيف يعتبر به. ولم يتفرد بحديثه بل روي من طرق أخرى عن أنس وإن كانت ضعيفة فإنها تشد بعضها بعضا. وأخرجه الإمام أحمد (3/251) من طريق حماد، حدثنا المغيرة بن زياد الثقفي، سمع أنس بن مالك به.

وفي سننه المغيرة بن زياد الثقفي؛ قال عنه الحافظ ابن حجر في تعجيل المنفعة (2/278 برقم 1062): (مغيرة بن زياد الثقفي، وقع ذكره في أواخر مسند أنس من مسند أحمد، من طريق حماد بن سلمة، ثنا المغيرة بن زياد الثقفي أنه سمع أنس بن مالك فذكر حديث (لا إيمان لمن لا أمانة له)، ولم أر له ذكرا في رجال الكتب الستة، ولا عند الحسيني ومن تبعه، ولا ذكر له في تاريخ البخاري ولا من تبعه، ولا في ثقات ابن حبان، وإنما عندهم المغيرة بن زياد الموصلي، وكنيته أبو هاشم، وقيل أبو هشام، ونسبوه بجليا، وقد ذكره ابن حبان في الضعفاء، وهو موثق عند جماعة، ولم يذكر ابن عساكر روايته عن أنس مع استيعابه، ولا في الرواة عنه حماد بن سلمة، ووجدته في النسخة التي بخط ابن قريش، وكذا وجدته في ترتيب المسند لأبي بكر بن المحب، وأقره الشيخ عماد الدين بن كثير). =

وعن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ : (ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم، وما ظهرت الفاحشة في قوم قط إلا سلط الله عز وجل عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر)⁽¹⁾.

= وأخرجه أبو يعلى (برقم 3445)، وعنه ابن حبان (برقم 194) من طريق مؤمل بن إسماعيل عن حماد عن ثابت عن أنس به. ومؤمل سيئ الحفظ.

وأخرجه ابن عدي في الكامل (4/1192) والبيهقي في الكبرى (4/97)، من طريق ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن ابن أبي حبيب، عن سنان بن سعد الكندي، عن أنس. وسنان الكندي ضعيف يعتبر به.

وجاء الحديث عن ابن عمر عند الطبراني، وعن ابن عباس عند أبي يعلى، وعن أبي أمامة عند الطبراني في الكبير.

وقد صححه علامة الشام رحمه الله في صحيح الجامع (برقم 7179).

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (3/483 برقم 6397، 9/386 برقم 18850)، وفي شعب الإيمان (6/485 برقم 3040/ط: الدار السلفية الهند)، والحاكم في المستدرک (2/126)، والبخاري (10/333 برقم 4463-البحر الزخار)، وابن المنذر في الأوسط (11/326 برقم 6692) من طريق عبيد الله بن موسى، حدثنا بشير بن مهاجر، عن ابن بريدة، عن أبيه به.

قال الحافظ الإمام أبو بكر البزار: (وهذا الحديث لا نعلمه يروى إلا عن بريدة ولا نعلم له طريقا عن بريدة إلا هذا الطريق).

قلت: وفي سنده بشير بن المهاجر الكوفي الغنوي، قال الحافظ في التقریب: صدوق لين الحديث، رمي بالإرجاء.

ولعل بشيرا إلى الضعف مع الاعتبار أقرب منه إلى الصدق مع اللين، فقد قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: منكر الحديث، قد اعتبرت أحاديثه فإذا هو يجيء بالعجائب، وقال ابن عدي بعد أن خبر حديثه أيضا: روى ما لا يتابع عليه، وهو ممن يكتب حديثه وإن كان فيه بعض الضعف. وقال العُقيلي: منكر الحديث.

ومع ضعف ابن المهاجر وروايته للعجائب فإنه قد خُلف.

=

= قال البيهقي رحمه الله في الكبرى (483/3)، (378/9): (كذا رواه بشير بن المهاجر، خالفه الحسين بن واقد فرواه عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله أتم منه).

ثم ساق البيهقي (483/3 برقم 6398) بإسناده أثر ابن عباس من طريق الفضل بن موسى، ثنا الحسين بن واقد، عن عبد الله بن بريدة، عن ابن عباس قال: (ما نقض قوم العهد قط إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا فشت الفاحشة في قوم إلا أخذهم الله بالموت، وما طفف قوم الميزان إلا أخذهم الله بالسنين، وما منع قوم الزكاة إلا منعهم الله القطرة من السماء، وما جار قوم في الحكم إلا كان البأس بينهم. أظنه قال: والقتل).

قلت: وأثر ابن عباس إسناده صحيح، وهو أشبه كما قال الحفاظ.

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في الصحيحة (219/1): (إسناده صحيح، وهو موقوف في حكم المرفوع، لأنه لا يقال من قبيل الرأي).

جاء في علل الحديث لابن أبي حاتم (109/4 برقم 2773): (وسألت أبي عن حديث: رواه علي بن الحسن بن شقيق، عن الحسين بن واقد، عن عبد الله بن بريدة عن ابن عباس: ما نقض قوم العهد إلا أظهر عليهم عدوهم، وما جار قوم في الحكم إلا كان القتل بينهم، وما فشت الفاحشة في قوم إلا أخذهم الله بالموت، وما طفف قوم في الميزان إلا أخذهم بالسنين، وما منع قوم الزكاة إلا منعهم الله القطر من السماء).

قال أبي: حدثنا به عبيد الله بن موسى، عن بشير بن مهاجر، عن ابن بريدة عن أبيه، عن النبي ﷺ؛ وهو وهم، عن ابن عباس أشبه).

تنبيه 1: عد محقق مسند البزار عادل بن سعد حديث الحسين بن واقد من مسند بريدة، والأغرب من ذلك أن المتقدمين له وهما بدر البدر، ومشهور حسن لم ينبها إلى هذا الوهم والله المستعان.

وحديث بريدة بدون ذكر الشاهد المبوب له جاء من طرق عديدة كلها فيها مقال.

تنبيه 2: جاء في الأوسط لابن المنذر عبد الله بن موسى، والصواب عبيد الله بن موسى، وهو بن باذام العبسي الكوفي أبو محمد ثقة كان يتشيع كما قال الحافظ في التقریب.

فقد أخرجه التمام في فوائده (129/2 برقم 519 الروض البسام)، والطبراني في الأوسط (26/5 برقم 4577)، (40/7 برقم 6788) من طريق سليمان بن موسى، نا فضيل بن غزوان، [عند الطبراني في الطريق الأول: فضيل بن مرزوق]، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين).

=

قلت وبالله أستعين: متى أخلَّ المسلمون بالعهود والمواثيق سلَّط الله عليهم أعداءهم، وتحولت ديارهم إلى بؤر للقتل والفتن، وهو عامل من عوامل هلاك هذه الأمة، فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف⁽¹⁾ من طريق عبد الأعلى، عن الجريري، عن أبي العلاء قال: لما أصيب زيد بن صوحان يوم الجمل قال: هذا الذي حدثني خليلي سلمان الفارسي: إنما يهلك هذه الأمة نقضها عهودها.

وعن سليم بن عامر -رجل من حمير- قال: كان بين معاوية وبين الروم عهدٌ، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد؛ غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون؛ وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر! فنظروا فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشدَّ عُقدة ولا يحلَّها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء)، فرجع معاوية⁽²⁾.

= راجع الصحيحة للعلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله (برقم 107).

(1) (543/7 كتاب الجمل برقم 37806).

(2) صحيح بشواهد كما يأتي بيانه، وهذا إسناد منقطع بين سليم بن عامر الخبائري، وبين عمرو بن عبسة. قال أبو حاتم في المراسيل (ص 85 برقم 310): (سمعت أبي يقول: سليم بن عامر لم يدرك عمرو بن عبسة، ولا المقداد بن الأسود).

ويبدو أنه سمعه من معاوية بن أبي سفيان، فإنه محتمل السماع، فقد توفي سليم في سنة 102هـ، وبقيّة رجال الحديث رجال الشيخين غير أبي الفيض وهو موسى بن أيوب الحمصي فقد روى له أصحاب السنن إلا ابن ماجه، وهو ثقة.

وأخرجه الطيالسي في مسنده (1155)، وأبو عبيد في الأموال (برقم 448)، وابن زنجويه في الأموال (660)، وأبو داود في السنن (برقم 2753 ط: عوامة)، والترمذي (برقم 1580)، والنسائي في الكبرى (برقم 8732)، والبيهقي في الكبرى (386/9 برقم 18847)، وفي الشعب (307/8 برقم 4049-4050)، والإمام أحمد في المسند (111/4)؛ من طرق عن شعبة عن أبي الفيض عن سليم به.

=

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومعلوم أنه نهى عن ذلك لئلا يكون فيه خديعة بالمعاهدين، وإن لم يكن في ذلك مخالفة، لما اقتضاه لفظ العهد، فعلم أن مخالفة ما يدل عليه العقد لفظاً، أو عرفاً خديعة، وأنه حرام⁽¹⁾).

وعن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قتل مُعاهداً في غير كنهه؛ حرّم الله عليه الجنة)⁽²⁾.

قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ: كنهه: حقّه [ه].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قتل نفساً معاهدة بغير حلها، حرّم الله عليه الجنّة أن يجد ريحها)⁽³⁾.

= انظر الصحيحة للشيخ الألباني رحمه الله (برقم 2357، وبوّب الشيخ للحديث: تحريم الغدر بالمعاهد).

قال أبو عبيد في الأموال: (قال يزيد -ابن هارون راوي الخبر عن شعبة-: لم يرد معاوية أن يغير عليهم قبل انقضاء المدّة، ولكنه أراد أن تنقضي المدّة وهو في بلادهم، فيغير عليهم وهم غارون، فأنكر ذلك عمرو بن عبسة إلا أن لا يدخل بلادهم حتى يعلمهم ويخبرهم أنه يريد غزوهم.

قال أبو عبيد: وكذلك فعل رسول الله ﷺ بكل من كان بينه وبينه عهدٌ إلى مدة ثم انقضت، وزادهم في الوقت أيضاً، وبذلك نزل الكتاب.

قال العلامة الألباني رحمه الله في حاشية صحيح موارد الظمآن (2/125): (أي: يعلمهم أنّه يريد أن يغزوهم، وأن الصّـلح الذي كان بينه وبينهم قد ارتفع، فيكون الفريقان على سواء، ولكن لا يجوز أن يفعل ذلك إلا بعد الإعلام والإنذار فيه).

(1) بيان الدليل على بطلان التحليل (ص 65 تحقيق فيحان المطيري).

(2) إسناده صحيح: أخرجه الإمام أبو داود (برقم 2760)، وابن أبي شيبة في المصنف (425/9)، والإمام أحمد في مسنده (36/5)، والنسائي في الكبرى (برقم 6949)، والطبائسي (برقم 879)، والبيهقي (231/9)، وابن أبي عاصم في الديات (ص: 87)، والحاكم في المستدرک (142/2)، وغيرهم من طرق عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بكرة به.

(3) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (425/9)، والبخاري في تاريخه (428/1)، والبيهقي في الكبرى (205/9)، وابن أبي عاصم في الديات (ص: 86)، والإمام أحمد في المسند =

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما)⁽¹⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (من قتل معاهدا، له ذمة الله، وذمة رسوله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما)⁽²⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (...ومن خرج على أمّتي يضرب برّها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس منّي ولست منه)⁽³⁾.

ثالثا: تحريم الاعتداء على سفراء الدّول الكافرة القائمين بأعمال دولهم في ديار المسلمين.

عن سلمة بن نعيم بن مسود الأشجعي عن أبيه نعيم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب، قال للرسولين: (فما

= (36/5) وغيرهم من طرق عن يونس بن عبيد عن الحكم بن الأعرج، عن الأشعث بن ثمرمة عن أبي بكرة به.

(1) صحيح أخرجه الإمام البخاري (برقم 3166-6914) من طريق عبد الواحد بن زياد عن الحسن بن عمرو، حدثنا مجاهد، عن عبد الله بن عمرو به.

وأخرجه الإمام أحمد (2/186)، والنسائي في المجتبى (8/25)، وفي الكبرى (برقم 8742)، والبيهقي في السنن (9/205)، والحاكم (2/126)، وغيرهم من طرق عن مروان بن معاوية، حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي، عن مجاهد، عن جنادة بن أبي أمية، عن عبد الله به.

قلت: زاد مروان جنادة بين مجاهد وعبد الله، وسماع مجاهد من عبد الله ثابت، وهو ليس مدلسا، فيحمل أن يكون مجاهد سمعه أولا من جنادة، ثم لقي عبد الله فسمعه منه.

(2) إسناده حسن؛ أخرجه ابن ماجه (برقم 2687) من طريق محمد بن عجلان عن أبيه، عن أبي هريرة به.

(3) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (برقم 1848).

تقولان أنتما؟)، قالوا: نقول كما قال، فقال رسول الله ﷺ : (والله لولا أن
الرُّسُل لا تقتل، لضربت أعناقكم)⁽¹⁾.

(1) صحيح: أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في المسند (488/3)، وابن أثير في أسد الغابة (348/5)؛ من طريق إسحاق بن إبراهيم الرازي، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، قال: حدثنا محمد بن إسحاق، قال: حدثني سعد بن طارق الأشجعي وهو أبو مالك، عن سلمة بن نعيم بن مسعود به.

إسحاق بن إبراهيم الرازي؛ ختن سلمة بن الفضل الأبرش، روى عن سلمة وغيره، وعنه أحمد، والحسن بن علي بن مهران، ومحمد بن منصور القُهستاني، وغيرهم. قال الحسيني في الإكمال: فيه نظر. انظر تعجيل المنفعة للحافظ (288/1 برقم 34). وقال ابن أبي حاتم: (سمعت أبي يقول: سمعت يحيى بن معين وذكر إسحاق ختن سلمة فأثنى عليه خيرا).

وقال سمعت أبي يقول: هو المقدم من أصحاب سلمة بن الفضل، انظر الجرح والتعديل (208/2 برقم 709).

وقد توبع إسحاق كما سيأتي.

وسلمة بن الفضل الأبرش مولى الأنصار وقاضي الري، وإن كان ضعيفا يعتبر به إلا أنه قوي في المغازي، فهو صاحب مغازي ابن إسحاق، وقد توبع أيضا. وباقي رجال الحديث ثقات، ومحمد بن إسحاق صرح بالتحديث، وسلمة بن نعيم الأشجعي له صحبة.

وأخرجه أبو داود في سننه (برقم 2761، باب في الرسل)، والحاكم (142/2-143) من طريق محمد بن عمرو الرازي -وهو ثقة- عن سلمة بن الفضل، بإسناد السابق. وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (برقم 2863)، والحاكم (52/3)، والبيهقي (356/9 برقم 18776)، وفي الدلائل (332/5)، من طريق يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق به.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

قلت: وابن إسحاق لم يخرج له مسلم إلا مقرونا.

وأخرجه ابن أبي عاصم مطولا في الأحاد والمثاني (24/3 برقم 1309) من طريق جرير بن حازم، عن ابن إسحاق، عن شيخ من أشجع، عن سلمة بن نعيم به.

قال العظيم آبادي في شرح الحديث: (فيه دليل على تحريم قتل الرُّسل
الواصلين من الكفار وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام).

وعن حارثة بن مُضَرَّب قال: قال عبد الله بن مسعود لابن النّواحة:
سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لولا أنك رسولٌ لقتلتك)، فأما اليوم فلست
برسولٍ، يا خرشة قم فاضرب عنقه، قال: فقام إليه فاضرب عنقه⁽¹⁾.

(1) صحيح: أخرجه الإمام أحمد (384/1)، وابن أبي شيبة (268/12)، والنسائي في الكبرى
(برقم 8675)، وأبو يعلى (برقم 5221)، والطبراني في الكبير (8958)؛ من طريق أبي
معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب به.
وأخرجه أبو داود (2762)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (61/4)، وابن حبان (برقم
4879)، والبيهقي في السنن (356/9 برقم 18777)، من طريق سفيان، عن أبي إسحاق
عن حارثة بن مُضَرَّب أنه أتى عبد الله، فقال: ما بيني وبين أحد من العرب حنّة، وإنني
مررت بمسجد لبني حنيفة، فإذا هم يؤمنون بمسيّلة، فأرسل إليهم عبد الله، فجيء بهم،
فاستتابهم، غير ابن النّواحة قال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لولا أنك رسول
لضربت عنقك)، وأنت اليوم لست برسول، فأمر قرظة بن كعب فاضرب عنقه في السوق،
ثم قال: من أراد أن ينظر إلى ابن النّواحة قتيلا بالسوق).

وأخرجه عبد الرزاق (برقم 18708)، ومن طريقه الطبراني في الكبير (برقم 8956)، عن
سفيان بن عيينة، وابن أبي شيبة (269/12) عن وكيع، والشاشي (برقم 746) من طريق
يزيد بن هارون؛ كلهم عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: جاء رجل
إلى ابن مسعود فقال: إنني مررت بمسجد من مساجد بني حنيفة فسمعتهم يقرؤون شيئا لم
ينزله الله: الطاحنات طحنا، العاجنات عجنا، الخابزات خبزا، اللاقمات لقما، فقدم ابنُ
مسعود ابنَ النّواحة فقتله.. وقال: قال النبي ﷺ: (لو كنت قاتلا رسولا لقتلتك). وإسناده
صحيح.

وللحديث طرق أخرى انظرها في صحيح سنن أبي داود للعلامة الألباني (105/8). قال
الخطابي في معالم السنن (65/4): (ومعلوم أن هؤلاء لا يمكنهم إظهار الكفر بالكوفة في
مسجدهم، وهي دار الإسلام، وإنما كانوا يستبطنون الكفر ويُسرّون الإيمان بمسيّلة،
فاطلع على ذلك منهم حارثة، فرفع أمرهم إلى عبد الله، وهو وإلٍ عليها، فاستتاب قوما
منهم، وحقن بالتوبة دماءهم، ولعلهم قد كانت لهم شبهة في أمر مسيّلة، ثم تبينوا الحق،

وقال عبد الله ابن مسعود: مضت السنة بأن الرُّسل [أي السفراء] لا تقتل.
وعن أبي رافع وكان قبطياً، قال: بعثني قريش إلى رسول الله ﷺ، فلما
رأيت رسول الله ﷺ ألقى في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله ﷺ لا أرجع
إليهم أبداً، فقال رسول الله ﷺ: (إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البُرد،
ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن، فارجع)، قال: فذهبت
ثم أتيت النبي ﷺ وأسلمت⁽¹⁾.

قال ابن قَيِّم الجوزية رحمه الله: (وكانت تقدم عليه رسل أعدائه، وهم
على عداوته، فلا يهيجهم، ولا يقتلهم،... [وقال]: وكان هديه أيضاً ألا
يحبس الرسول عنده إذا اختار دينه، فلا يمنعه من اللحاق بقومه، بل يرده
إليهم، [وقال]: وفي قوله ﷺ (لا أحبس البُرد) إشعار بأن هذا حكم يختص
بالرسل مطلقاً)⁽²⁾.

قلت: إن الأعمال التي يقوم بها من يمتنون البشرية بحياة الملائكة،
وعالم خال من المعاصي والكفر؛ -وهو أمر يناقض قدر الله الكوني- من
خطف للسياح في ديار الإسلام، وهجوم على مواقع القنصليات والسفارات،
وتعرض للعمال الأجانب من أمريكان أو غيرهم بحجة هزّ كيان العدو في
عقر داره، أو نصرة المجاهدين في بقعة أخرى من الأرض، أو إحراج
وإرباك الدولة التي يسعون لإسقاطها بأي وسيلة كانت؛ مناقض تماماً لروح
الشرعية ونصوصها النيرة، بعيد كل البعد عن هدي السلف في باب الجهاد
والسياسة الشرعية، يدل بوضوح عن ضحالة عقول القوم، وأنهم لا يملكون

= فراجعوا الدين، فكانت توبتهم مقبولة عند عبد الله، ورأى أن أمر ابن التَّوَّاحة بخلاف
ذلك، لأنه كان داعية إلى مذهب مسيلمة، فلم يعرض عليه التوبة، ورأى الصلاح في قتله،
وإلى نحو من هذا ذهب بعض العلماء في أمر هؤلاء القرامطة الذين يلقبون بالباطنية).

(1) إسناده صحيح، وقد سبق تخريجه.

(2) زاد المعاد (3/138-139).

بين أيديهم مشروعا متكاملا يسوسون به البشرية، بل يدلّ صنيعهم عن سفول القوم إلى برائين الجريمة، والانضمام إلى منظمات المافيا العالمية بلباس إسلامي ليواروا به سوءاتهم، ومن درس حالة القوم النفسية اكتشف أنهم يعيشون حياة بهيمية في صورة إنس، والله تعالى يتولى الصالحين من عباده⁽¹⁾.

(1) لقد درستُ بعضَ البحوث حول الجماعات الإسلامية المسلحة، و سبب جنوحها إلى طرق المنظمات الإجرامية في منظور علم النفس والاجتماع، فلم أحض ببحث وافر عالج المعضلة من جميع جوانبها، وأماتها بحثا، وكشف عن خفاياها، وأظهر عللها، ولعلي إن شاء الله أفرد لهذا الموضوع مصنفا أجمع فيه شتات المسألة، وأقرب صورة القوم للناظرين حتى يتسنى لهم معرفتهم عن كثب، جامعا في الطرح بين نصوص الكتاب والسنة الغراء، والبحوث التي قام بها بعض الخبراء في علم الاجتماع، عسى أن ينتفع بها المسلمون، وتكون نبراسا للشاردين عن طريق أهل الحديث من المغرر بهم والتائهين في وديان الأماني والخيال. والله تعالى يعلم المصلح من المفسد.

باب

ذِكْرُ بَعْضِ الْأَسْبَابِ السَّالِبَةِ لِلْأَمْنِ مِنَ الْمَجْتَمَعَاتِ.

ولقد بيّن الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الأسباب السَّالِبَة للأمن والجلابة للخوف، فجعل منها محاربة دين الله تعالى بالمعاصي والبدع، والتعدي على حدود الله، وفي ذلك يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِيَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ البقرة: ١١٤.

وكما تهدد تبارك وتعالى من كفر بنعمة الله أن يبذله من بعد أمنه خوفاً، وأن يلبسه لباس الجوع وفي ذلك يقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ النحل: ١١٢ - ١١٤.

ولقد أشار نبي الله صالح ﷺ إلى عظيم نعمة الأمن، وطلب من قومه أن يشكروا الله عز وجل عليها، وأنذرهم بأنها ستسلب منهم إن لم يعترفوا لله عز وجل بها، وفي ذلك يقول الله عز وجل مخبراً عن صالح ﷺ: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنَجُّوتَ مِنْ أَلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ هَآ شَرِبَ وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا

تَسُوهُنَّ يَوْمَ لَا يُخَذُّكُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

ولقد ضرب الله تبارك وتعالى بسبأ مثلاً، إذ كانوا يعيشون آمنين في بلاد لهم فيها آية؛ جنتان عن يمين وشمال، فلما أعرضوا عن دين الله مزقهم كل ممزق وجعلهم أحاديث، وعبرة لكل من أراد أن يعتبر؛ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٥٧﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٥٨﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَى الَّذِي بَرَكْنَا فِيهَا فَرًى ظَهَرَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٥٩﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٦٠﴾﴾ سبأ: ١٥ - ١٩.

إنَّ انتشار المعاصي في المجتمع، وظهور فقايع البدع والشرك مؤثر وجيه لزوال نعمة الأمن، وحلول نقمة الخوف.

أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد (86/1) بإسناد صحيح قال: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: (لما فُتحت قبرص فُفرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، رأيت أبا الدرداء جالسا يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله عزَّ وجل إذا أضاعوا أمره، بينا هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى).

وقال أبو البختری أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: (لن يهلك الناس حتى يعذروا - يعذروا - من أنفسهم)⁽¹⁾.

ومعنى (يعذروا من أنفسهم)؛ أي تكثر ذنوبهم وعبوبهم، ويتركون العمل بالحق بعد ظهوره فيستوجبون العقوبة.

وعن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ، فيما روى عن ربّه؛ قال: قال رسول الله ﷺ (... ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك)⁽²⁾.

وليس أهل العراق عنا بغائبين حين ضيعوا أمر الله، وأحلّوا ديارهم الفتن والرفض وفكر الخوارج وعفن البعثين، والله المستعان.

ولعلي أُلخص في هذا الجزء بعض الأسباب التي إن حلت بديار المسلمين، ساهمت في زوال الأمن، وظهور الفتن، وبوادى الفساد والانحراف، دون استقصاء وتتبع، ولعلها تحرر في جزء آخر بشيء من التوسع.

السبب الأول: ظهور الشّرك والبدع والمعاصي في الأمة:

إنّ الذنوب والمعاصي والبدع، وعلى رأسها الشّرك وهو أظلم الظلم، وأكبر الكبائر على الإطلاق، سبب الفساد في الأرض، وحقيقة الشّرك؛ التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به، فالمشرك بالله مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع

(1) إسناده صحيح: أخرجه الإمام أبو داود (برقم 4347/كتاب الملاحم)، والإمام أحمد في المسند (260/4)، (293/5) وأبو القاسم عبد الله البغوي في (الجعديات) (1/ 62) برقم 132، والحسين بن مسعود البغوي في شرح السنة (14/349 برقم 4157) من طرق عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختری به.

(2) إسناده صحيح على شرط مسلم؛ أخرجه الإمام أحمد (1/279)، وأبو عوانة (1/84-85)، وابن منده في الإيمان (1/495 برقم 381) من طريق جعفر بن سليمان، حدثنا الجعد أبو عثمان، عن أبي رجاء العطاردي، عن ابن عباس به. وأصل الحديث بدون الزيادة في الصحيحين.

والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل عليه وحده، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه نفعا وضرا ولا موتا وحياة ولا نشورا شبهها لمن له الخلق والأمر كلّهُ، فلا صلاح للموجودات إلا بأن تكون أنفاسُها وحركاتها وإراداتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده لا شريك له، لهذا قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الأنبياء: ٢٢.

إنّ الفساد الذي حلّ بنظام العالم، والفتن التي ظهرت في ساحة الأمة، والقتل والقلاقل التي أقضّت مضاجع البشرية؛ كل هذا العفن سببه انتشار الشرك في الكرة الأرضية؛ حتى صارت له صورة قانونية في بعض الدول الإسلامية كما هو مشهود ومعروف.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم: ٤١.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ: (فكلُّ فساد ونقص في العلوم، والأعمال، والعقول، والسياسة، والمعاش، وغير ذلك، فسببه المعاصي)^(١).

وقد نهى المولى جلّ وعلا عن الإفساد في الأرض فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدِينِكَ أَخَاهُم شُعَيْبٌ قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ الأعراف: ٨٥.

(١) الدرر السنية (١٤/٤٣٨- كتاب النصائح).

وقال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال العلامة ابن كثير رحمه الله: (ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضربه بعد الإصلاح؛ فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضرب ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه)^(١).

وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله في تفسير هذه الآية: (قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به؛ هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك به، ومخالفة أمره، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم^(٢)، وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عُصاة بني آدم، وتقول: اللهم عنهم، فبسببهم أجذبت الأرض، وقحط المطر.

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٢٤/٦ ط: أولاد الشيخ).

(٢) قلت: إن كمية المطر ثابتة منذ أن خلق الله الخلق إلى قيام الساعة، ولكنها حبست عن الخلق، وصرفت إلى الفياضي والقفار بسبب المعاصي، فقد جاء عن عبد الله بن عباس أنه قال: (ما من عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه بين خلقه حيث يشاء، ثم قرأ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ الآية أخرجه ابن جرير في تفسيره والحاكم بإسناد صحيح، وجاء عن عبد الله بن مسعود أنه قال: (.. وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعا صرف الله ذلك إلى الفياضي والبحار).

قلت: ومنذ أن أعلن حاكم البلاد وفقه الله إلى طاعته عن المصالحة الوطنية، وانحصرت أعمال القتل والتدمير والعنف، وهي إن شاء الله وبالعون الله إلى أقول جاءنا نصيبنا من المطر والخير الذي حُبس عنا لسنوات عديدة بسبب المعاصي والفتن، فلله الحمد والمنة.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ: هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والإتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه، وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به، وبمخالفة رسوله، ومن تدبّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسلط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله..⁽¹⁾.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهذه الفتن سببها الذنوب والخطايا، فعلى كل من الطائفتين أن يستغفر الله ويتوب إليه، فإن ذلك يرفع العذاب، وينزل الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانُوا لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾⁽²⁾).

قلت: فإن الفساد الإداري والاقتصادي الذي يشتكي منه المسلمون، وما نجم عنه من انحرافات سلوكية للموظفين، وتفش واسع للرشوة، وتكالب وحشي على حُطام الدنيا، وتعاسة ظاهرة على أوجه الناس، وتخلف ملموس للأمة؛ سببه ضعف التوحيد في أنفس المسلمين، ووهن الصلة برّب العالمين، وصدق رسول الله ﷺ حين قال من حديث أبي هريرة في الصحيح⁽³⁾: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط..)، ولا يجوز أن نقيس أنفسنا على الكفار، فقد يقول غافل: هاهم الأمريكان والأوروبيون كفار، ويتكالبون على الدنيا، ومع

(1) بدائع التفسير (2/234) جمع يسري السيد.

(2) مجموع الفتاوى (83/35).

(3) صحيح البخاري (برقم 2886).

ذلك اقتصادهم نام ومزدهرا، فإن هذه المعادلة جائرة، وباطلة من كل الوجوه، قال تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ الْمُتَسِلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فبين الله في هذه الآيات الكريمات أن حكم التسوية بين المضادات قبيح ينتزه عنه الله تعالى رب البريات، فلا يليق بنا نحن أمة التوحيد أن نجعل البر كالفاجر، والمحسن كالمتسيء، والموحد كالمشرك؛ فهذا أمر منكر في نفسه، تنتزه عنه العقول السليمة، والفطر السوية.

أخرج الإمام مسلم⁽¹⁾ من طريق سهيل بن أبي صالح، عن أبيه عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ ضافه ضيف وهو كافر، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فحلبت، فشرب حلابها، ثم أخرى فشربه، ثم أخرى فشربه، حتى شرب حلاب سبع شياه، ثم أنه أصبح فأسلم، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة فشرب حلابها، ثم أمر بأخرى فلم يستتمها، فقال رسول الله ﷺ: (المؤمن يشرب في معي واحد، والكافر يشرب في سبعة أمعاء).

وقد اختلفت كلمة الشراح في بيان معنى هذا الحديث، والذي يعيننا أن الرجل لما كان على كفره كان شرها أكولا لا يملأ بطنه إلا التراب، ولكن حين نطق بكلمة التوحيد اعتدل مزاجه، وقنعت نفسه، وكفاه من الدنيا حلوبا من اللبن يسد به جوعته، ومن كان هذا حاله فلا يمكن أن يبيع ذمته لمنحرف عن الجادة، أو أن يخون وطنه طرفة عين، وبكف من شعيرا، فإن الذين يركزون على تطوير الاقتصاد بالمنظور الإسلامي، وفي ديار الإسلام مع تغريبهم لجانب التوحيد والعقيدة، فإنهم مهما أنتجوا أو استوردوا فلا

(1) صحيح مسلم (برقم 2063 كتاب الأشربة، باب: المؤمن يأكل في معي واحد)، وهو في صحيح الإمام البخاري مختصرا (برقم 5396).

يمكنهم أبدا أن يُلَبُّوا رغبة النَّاسِ للنقص الذي يعترِيهم بسبب ضعف صلتهم بالله تعالى، وليس لنا بحال أن نقيس أمة الاستجابة على أمة الدعوة كما سبق الإشارة إليه.

وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم بيّن أصل الأمن وهو توحيد الله، ومنبع الخوف وهو الشرك به جل وعلا فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فإنَّ الشرك إذ انتشر في ربوع الأمة، من بناء القباب والطواف بها، ومن الذبح لغير الله، وغيرها من الأعمال الشركية التي حذر منها الله تعالى في كتابه ونبيّه المصطفى ﷺ في سنته، وبينها علماء الأمة في مصنفاتهم أتم بيان، ظهر القلق والخوف من المجهول على تعبير القوم!، و تفشت الأمراض النفسية، وتسلمت الجن على الإنس فأرهبوهم، وحولوا حياتهم إلى جحيم، وضعف الإيمان بالقضاء والقدر، وتفشت كبيرة الانتحار، وساد المجتمع قانون الغاب والعياذ بالله تعالى، وهو وحده تعالى العاصم من شر كل ذي شر، ولهذا يجب على من ولاه الله تعالى زمام أمر المسلمين الاعتناء بجانب تركيز توحيد الله في أنفس رعيته، وتوظيف وسائل الدولة الإعلامية للقيام بهذا الواجب، بالاستعانة بعلماء الأمة وطلابها إذا أراد الحفاظ على نفسية مواطنيه خالية من الأمراض والتناقضات.

السبب الثاني: انتشارُ فكر الخوارج في الأمة لعوامل شتى منها: ظهور دعاة الضلالة الذين استغلوا وضع الأمة المؤلم وبثوا من ثقبه سمومهم: إن العالم الحديث يعاني من موجات الإرهاب المنظم⁽¹⁾، والمسند من جهات

(1) اختلفت كلمة الباحثين والدارسين في تحديد معنى الإرهاب، وأعجمته بعض الدول الكبرى قصداً أو عجزاً عن تحديد معناه، وأقرب عبارة وجدتها تطابق معنى الإرهاب على مصطلح العصر الحديث ما دونه الدكتور أحمد جلال عز الدين في (الإرهاب والعنف =

غربية صليبية؛ إرهابٌ أعمى يقذف بالبشرية في أتون المصائب والشدة، ويستنزف اقتصاد الدول الصاعدة كالجزائر، والمملكة العربية السعودية، وجمهورية مصر، فلا يكاد يمر يوم دون أن تُسجل فيه عملية إرهابية يتردد صداها عبر أجهزة الإعلام المختلفة، حتى أصبح للعمليات الإرهابية أثرٌ بالغ في توجيه دفة كثير من الدول، وصار لدعاة الإرهاب ومن يمدّهم من وراء البحر سلطةً في تغيير موازين الاقتصاد، وإحداث تغييرات جوهرية في أنظمة بعض الدول المستهدفة، وقد استغل دعاة الضلالة ممن تغذى من عقائد الفرق الضالة عبر التاريخ الإسلامي؛ كالخوارج والرافضة وضع الأمة المؤلم، وكونوا أحزاباً وجماعاتٍ لمناهضة دولهم المسلمة باسم الإسلام، واسترجاع الخلافة الضائعة:

= السياسي (ص 49): وينظر معه كتاب الغلو في الدين لعبد الرحمن اللويحق (ص 135): (عنف منظم ومتصل بقصد خلق حالة من التهديد العام الموجه إلى دولة، أو جماعة سياسية، والذي ترتبته جماعة منظمة بقصد أهداف سياسية)، وقد أسهبت في كتابي (الإذاعة) في ذكر تعريفات المعاصرين لمعنى الإرهاب. وللتنبية فقط: فكثيراً من الدول الكبرى اتخذت من نظام مكافحة الإرهاب طريقاً لخنق الحريات الشرعية والعقلية، والتدخل في مصالح الدول المستضعفة، وإنشاء سجون سرية في بعض الدول المستهدفة لتمرير أنافة قاداتها في التراب، وقد شهد رجل من أهلها على صدق ما قلت، فهذا بول فندلي وهو عضو في الكونجرس الأمريكي لمدة 22 عاماً، (1961-1983)، وهو صاحب الكتب الخمسة المشهورة، وأبرزها: (من يجرؤ على الكلام)، (*they dare speak dut*)، وكتاب آخر؛ (لا سكوت بعد اليوم)، (*no silent more*) يقول: (إن أنظمة مكافحة الإرهاب أصبحت تمثل تهديداً لمصالح مجتمعنا أكثر من الإرهاب نفسه... وإن جميع الأمريكيين، وبالذات المسلمون منهم أصبحوا ضحية لهذه القضية).

وقد أطلق بعض الباحثين على مشروع مكافحة الإرهاب الذي فرضته أمريكا على دول العالم بالحرب العالمية الرابعة!، والله العاصم من كيد الكفار.

فوظفوا غربة الإسلام في ديار بعض المسلمين، واستغلوا الأسلوب الخاطئ من بعض الأنظمة الإسلامية؛ من تعذيب، وسجن، وقتل، وتشريد، واعتقال عشوائي في علاج اعوجاج الفرق المنحرفة.

وأوقفوا الناس عبر خطبهم النارية، وأشرطتهم الملتهبة، على تضيق الأنظمة الإسلامية على علماء الأمة وطلابها، وفي الوقت نفسه بينوا لهم أن المجال قد فُتح للاتجاه العلماني، وأن العنان قد أُطلق لهم في شتى مؤسسات الأمة؛ من جامعات، ومراكز ثقافية، وأنظمة شبابية، ومعلوم أن وضعاً كهذا يدفع بكثير من الشباب المتحمس، والجاهل بمنهج السلف الصالح في التعامل مع جور السلطان إلى العنف والسرية في مواجهة الخطر الذي تصوّروه، أو الذي أوقفوا عليه.

أضف إلى ما ذكرت الانهيار الاقتصادي الذي تشهده بعض الدول الإسلامية، والظلم في توزيع ثروات الأمة، والبطالة التي خيم شبحها على كثير من البيوت، وظهور الطبقة، والتمييز بين أفراد الأمة في المعاملة، فالشاب الملتحي يرى نفسه منبوذاً بالأبواب، لا يسمح له باستخراج جواز سفر بصورة تظهر فيها لحيته⁽¹⁾، والمرأة المتحجبة تجد نفسها تتنفس من ثقب إبرة، وفي المقابل يرون شباباً واضعين القراط والشُّنوف في آذانهم، ويرتدون ألبسة الهنود الحمر، ونساء تسعون بالمائة من أجسادهن عارٍ، يُقدّمون ويبجّلون ويوصفون برواد الحضارة والتقدم.

(1) هذا تعدٍ واضح على حقوق الفرد؛ الشرعية والعقلية والوطنية، ومناهضة جلية لمشروع المصالحة الوطنية الذي تبناه الشعب الجزائري بأغلبية ساحقة، ودفع ظاهر لعدد هائل من أبناء الأمة إلى التضمير والسخط والتمرد على الدولة، وقطيعة مكشوفة بين الإدارة وأفراد الأمة، بل هذا الصنيع يمد دعاء الإرهاب بالحجج للبقاء على قمم الجبال، ويكسبهم شيئاً من القوة المعنوية لمناهضة الدولة، فليتنق الله القائمون على شؤون الأمة الإدارية، وليتخلصوا من هذه النزعة الاستئصالية القائمة والبالية، التي لا وجود لها حتى في دول الغرب أثناء القرون الوسطى!

إنّ العوامل⁽¹⁾ كالتّي ذكرت، وأخرى لم أذكرها قد استغلها رؤوس

(1) قلت: إنّ كلّ عاقل يدرك أنّ الظلم والجور وغيرها من المخالفات الشرعية التي تصدر من بعض الحكّام وأعوانهم حرامّ في ميزان الله تعالى، وأنّ فشوّ المعاصي والكبائر في المجتمع المسلم منكرٌ جليّ، لا يختلف في هذا مسلمان، ولكن الذي غاب عن قلوب المغرر بهم المنهج الذي يتبعون الله به في مثل هذه الحالة. فهل يسلكون منهج أهل الحديث والأثر، وهو عبادة الله تعالى بالصبر على جور السلطان المسلم، ودعوة الخلق إلى الحق، وإصلاح عقائدهم وأحوالهم بالعلم والحلم، ومناصحة ولاة الأمور والمسئولين بالتّي هي أحسن، وبالموعظة الحسنة حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، أم أنّهم والعياذ بالله من سخطه يلجئون إلى التفجيرات والاغتيالات مقتفين سبيل الخوارج كلاب النار، في زرع الفتنة والضغينة في قلوب أبناء الأمة، غافلين أنّ المستفيد الأول من هرجهم ومرجهم هم الطفيلون، ودول الغرب التي تتخذ من الصراعات الداخلية في الدول الإسلامية طريقاً لاستغلال ثرواتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني رحمه الله: (وأصل ذلك-يعني الصّبر- العلم، فإنّه لا يُعلم العدل والظلم إلا بالعلم، فصار الدين كلّ العلم والعدل، وضد ذلك الظلم والجهل، قال تعالى: ﴿وَمَلَأَ الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، ولما كان ظلوما جهولا، وذلك يقع من الرعاة تارة، ومن الرعية تارة، ومن غيرهم تارة، كان العلم والعدل المأمور به: الصّبر على ظلم الأئمة وجورهم، كما هو من أصول أهل السنة والجماعة)، انظر مجموع الفتاوى (179/28).

والأدلة المحكمة من الكتاب والسنة الصحيحة جاءت جلية في منع قتل المسلم لأخيه المسلم، وواضحة في الصّبر على جور السلطان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. وقال ﷺ: (تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع) رواه مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وقال النبي ﷺ: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة). متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وعن سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ قال: يا نبي الله أرايت إنّ قامت علينا أمراء يسألون حقهم، ويمنعوننا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأل =

الضلال من دعاة الخروج والعصيان المدني، وهيّجوا بها أبناء الأمة العاطفين على حكّامهم، ودفعوهم إلى الانتقام واسترجاع الحقوق الضائعة، وغرّروا بهم، وأشعروهم أنهم من المجاهدين، وأنهم ظاهرون على الطواغيت وأعدائهم لا محالة، وحتى يُعطي رؤوس الضلال للمغرر بهم حُجَج القتل والبتر وخلع الرؤوس، أفهموهم أن القائمين على النظام في الدّول الإسلامية كفارٌ مرتدون، وخارجون عن الشريعة الربانية وعن كلّ قانون!، وأنهم عملاء لدولة صهيون، وأنّ كل من ساعدهم أو كان منضوياً في سلوكهم فهو منهم، ودواؤه القتل والإبادة بكلّ بسالة وضراوة، والله المستعان، ولقنوا الشّباب المتحمس أنّ عليهم واجباً لا بد أن يقوموا به وفاء لعقيدتهم، وهو إقامة دولة الإسلام التي طمس معالمها مصطفى أتاترك، وفي

= فأعرض عنه، ثم سأله الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ : (اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حُجِّلوا وعليكم ما حُجِّلتم) رواه مسلم في صحيحه. والصبر الذي نطالب به أبناء الأمة التحلي به حتى لا يقعوا في براثن الخوارج يحتاج إلى مادة حلوة تكسر مرارة العلل التي يرونها في مجتمعاتهم وفي أروقة الإدارة، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (154/28): (..فإن النفوس لا تصبر على المرّ إلا بنوع من الحلوى لا يمكن غير ذلك)، ثم ذكر شيخ الإسلام الحلوى الذي نكسر به المر: (..ولهذا أمر الله تعالى بتأليف القلوب، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً في الصدقات، وقال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾، وقال تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴾، فلا بد أن يصبر وأن يرحم، وهذا هو الشجاعة والكرم). قلت: فإن اليقين بشرع الله ونصوصه، والتحلي بالعفو والرحمة والدعوة إلى الصلح غداء للصبر وقوت له، وجزاء ذلك الإمامة في الدين، والهداية في الأمر قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا أَمْرُنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (444/4) بعد ما ذكر الحوادث التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنها: (ولهذا كان مذهب أهل الحديث ترك الخروج بالقتال على الملوك البغاة، والصبر على ظلمهم إلى أن يستريح برّ، أو يستراح من فاجر..).

الوقت نفسه يحسسونهم أنهم ممنوعون من إظهار هذا الواجب، فيوقعون الشباب في صراع دائم، وتمزق قائم، بين دافع العقيدة، ومانع الواقع، وحينها يشعر الشباب المغرر بهم أنهم عاجزون عن تلبية نداء العقيدة، وأنهم في دوامة ضغطٍ ما تفتأ تُفقدتهم صوابهم، صرخوا صرخةً أخرجتهم عن صفتهم البشرية، وصيرت حالهم إلى وحوش ضارية؛ حالة آلت بهم إلى انفصام بين الإرادة والعلم والواقع، وأنذاك أضحى أبناء الأمة مسلوبي التفكير، وعجينة في أيدي دعاة الدمار والشبه وشراء الذمم، يقذفونهم شمالاً ويمينا، ويتلاعبون بمصيرهم على الصورة التي تحلو لهم، وحتى يُفضي زعماء الخروج والتمرد على أفكارهم الصبغة الشرعية، يُهرعون إلى الاستدلال بالمتشابه من النصوص الشرعية من قرآن وسنة، وإسقاط آيات نزلت في الكفار على المؤمنين كاستدلالهم بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتُكَنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا يُحْذَرُونَ﴾، وغيرها من آي القرآن الكريم، وكاستدلالهم بقوله ﷺ لأهل مكة (بعثت بالسيف، وحرف يده)، والاستئناس بفتاوى المرضى نفسياً والمشكوك في عدالتهم، ممن يقيم بديار الصלבان، وبسط هذا الأمر يأتي في كتابي «الإذاعة» يسر الله المنان صدوره.

إذا: من هم الخوارج الذين انتشر فكرهم في صفوف الأمة، واغتر بهم الأحداث، وكانوا سببا في فشوّ الخوف، وانتشار الشبه، وزعزعة الأمن في الأوطان، وتسلط دول الشر على ديار الإسلام؟

قال الشهرستاني في الملل والنحل: (كلّ من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان)⁽¹⁾.

(1) الملل والنحل (1/114).

وزاد بعض العلماء قيذا آخر في تعريف الخوارج فقال: (هم الذين يكفرون بالمعاصي، ويخرجون على أئمة المسلمين وجماعتهم)⁽¹⁾.

وقال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله بعد ما ذكر النصوص النبوية الواردة في الخوارج، والتي سأذكرها فيما بعد: (فهؤلاء أصل ضلالهم: اعتقادهم في أئمة الهدى، وجماعة المسلمين أنهم خارجون عن العدل، وأنهم ضالون، وهذا مأخذ الخارجين عن السنة من الرافضة ونحوهم، ثم يغدّون ما يرون أنه ظلم عندهم كفرا، ثم يُرتّبون على الكفر أحكاما ابتدعوها، فهذه ثلاث مقامات للمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم، في كل مقام تركوا بعض أصول دين الإسلام، حتى مرقوا منه كما مرق السهم من الرمية)⁽²⁾.

وقال محمد بن الحسين الآجري رحمه الله في الشريعة (325/1): (لم يختلف العلماء قديما وحديثا أنّ الخوارج قوم سوء، عصاة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وإن صلّوا وصاموا، واجتهدوا في العبادة، فليس ذلك بنافع لهم، ويظهرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس ذلك بنافع لهم، لأنهم قوم يتأولون القرآن على ما يهوّون، يُمَوّهون على المسلمين، وقد حذّر الله تعالى منهم، وحذّر النبي ﷺ، وحذرناهم الخلفاء الراشدون بعده، وحذرناهم الصحابة رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان).

والخوارج هم الشّراة الأنجاس الأرجاس، ومن كان على مذهبهم من سائر الخوارج، يتوارثون هذا المذهب قديما وحديثا، ويخرجون على الأئمة والأمراء، ويستحلون قتل المسلمين) اهـ.

(1) ينظر كتاب الخوارج أوّل الفرق في تاريخ الإسلام (ص: 28)، لصاحبه ناصر العقل.

(2) مجموع الفتاوى (497/28).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مبيناً أصليين للخوارج: (ولهم خاصتان مشهورتان فارقوا بها جماعة المسلمين وأئمتهم:

أحدهما: خروجهم عن السنة، وجعلهم ما ليس بسنة سيئة، أو ما ليس بحسنة حسنة، وهذا هو الذي أظهره في وجه النبي ﷺ حيث قال له ذو الخويصرة التميمي: "اعدل فإنك لم تعدل"، حتى قال له النبي ﷺ: (ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إذا لم أعدل)، فقله: "فإنك لم تعدل" جعل منه لفعل النبي ﷺ سفها وترك عدل، وقوله: "اعدل" أمر له بما اعتقده هو حسنة من القسمة التي لا تصح، وهذا الوصف تشترك فيه البدع المخالفة للسنة، فقائلها لا بد أن يثبت ما نفتته السنة، وينفي ما أثبتته السنة، ويحسن ما قبحته السنة، أو يقبح ما حسنت السنة، وإلا لم يكن بدعة....

الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع: أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دارُ حرب، ودارهم دارُ الإيمان... فهذا أصل البدع التي ثبت بنص سنة رسول الله ﷺ وإجماع السلف أنها بدعة؛ وهو جعل العفو سيئة، وجعل السيئة كفراً، فينبغي للمسلم أن يحذر من هذين الأصلين الخبيثين، وما يتولد عنهما من بغض المسلمين، وذمهم، ولعنهم، واستحلال دمائهم وأموالهم. وهذان الأصلان هما خلاف السنة والإجماع، فمن خالف السنة فيما أتت به، أو شرعته فهو مبتدع خارج عن السنة، ومن كفر المسلمين بما رآه ذنباً سواء كان ديناً، أو لم يكن ديناً، وعاملهم معاملة الكفار فهو مفارق للجماعة، وعامة البدع والأهواء إنما تنشأ من هذين الأصلين⁽¹⁾.

وسيرا على طريقة الأسلاف الكرام أسرد ما يحضرني من نصوص في ذم الخوارج ومذهبهم الفاسد، حتى يدرك القراء أن الخروج على أئمة

(1) مجموع الفتاوى (72/19-74).

الجور شرّ كلّ، وأنّه مهما سعى المحرفون للنصوص إلى تغيير اسمه إلى أسماء أخرى كالجهاد، فإن النقاط المشتركة بين مذهب الخوارج والأسماء التي أحدثوها تبقى بارزة لكل عاقل؛ من تكفير للمسلمين، وسفك لدماء الأبرياء، وبثّ للفتن في صفوف أبناء الأمة، واستجلاب للأعداء إلى ديارنا، وبثّ لبوادر الحروب الأهلية وغيرها من الصواعق التي حذّر منها علماء الأمة والمخلصون من أبنائها.

أخرج الخلال في السنة⁽¹⁾، قال: أخبرني محمد بن أبي هارون، وحمد بن جعفر؛ أنّ أبا الحارث حدثهم قال: سألت أبا عبد الله في أمر كان ببغداد، وهم قوم بالخروج فقلت: يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟ فأنكر ذلك عليهم وجعل يقول: (سبحان الله! الدماء الدماء، لا أرى ذلك ولا أمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه (يعني: أيام الفتنة)، قلت: والناس اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟ قال: (وإن كان، فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك)، ورأيت ينكر الخروج على الأئمة، وقال: (الدماء؛ لا أرى ذلك ولا أمر به).

وقال المروزي كما في السنة للخلال (ص131): (سمعت أبا عبد الله يأمر بكفّ الدماء، وينكر الخروج إنكارا شديدا).

وقال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل الكرمانى أن أبا عبد الله قال: (الخوارج قوم سوء، لا أعلم في الأرض قوما شرا منهم، وقال: صحّ الحديث فيهم عن النبي ﷺ ومن عشرة أوجه)⁽²⁾.

(1) (132/1) وإسناده صحيح، وقد مرّ ذكره وأعدته في هذا الباب لأهميته.

(2) صحيح أخرجه الخلال في السنة (145/1 برقم 110).

وقد أورد ابن القيم الجوزية رحمه الله طرق الأحاديث الواردة في الخوارج في تعليقه على سنن أبي داود وقال كما في التهذيب (153/7): (وهذه العشرة التي ذكرناها، وقد استوعبها مسلم في صحيحه والله أعلم).

وأذكر في هذا المقام ما يحضرني من نصوص في ذم الخوارج، والله تعالى وليّ التوفيق:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله عدل؛ فقال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل)، فقال عمر: يا رسول الله أئذن لي فيه فأضرب عنقه؛ فقال: (دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية؛ ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه -وهو قدحه- فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس)، قال أبو سعيد: فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته⁽¹⁾.

وأخرجه البخاري (برقم 3344) عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهبية فقسمها بين الأربعة: الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: (إنما أتألفهم)؛

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم: 3610).

فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، مخلوق؛ فقال: اتق الله يا مُحَمَّد؛ فقال: (من يطع الله إذا عصيتُ، أيا مُنني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني؟).

فسأله رجل قتله -أحسبه خالد بن الوليد- فمنعه فلما ولى قال: (إن من ضئضي هذا -أو في عقب هذا- قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد).

وأخرج الإمام البخاري (برقم 6931)، والإمام مسلم (برقم 1064) في صحيحيهما؛ من طريق أبي سلمة وعطاء بن يسار أنهما أتيا أبا سعيد الخدري فسألاه عن الحرورية هل سمعت رسول الله ﷺ يذكرها؟ قال: لا أدري من الحرورية ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يخرج في هذه الأمة -ولم يقل: منها-) قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم فيقرءون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فينظر الرامي إلى سهمه إلى نصله إلى رصافه فيتمارى في الفؤقة هل علق بها من الدم شيء).

وأخرج البخاري (برقم 3611) عن سويد بن غفلة قال: قال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلا أن آخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يأتي في آخر الزمان قوم حُذثاء الأسنان، سُفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة).

وأخرج البخاري (برقم 7562): عن معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يخرج ناس من قبل المشرق،

ويقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه) قيل: ما سيماهم؟ قال: (سيماهم التحليق -أو قال- التسبيد).

وأخرج مسلم (برقم 1066) عن سلمة بن كهيل قال: حدثني زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي رضي الله عنه، الذين ساروا إلى الخوارج فقال علي رضي الله عنه: أيها الناس إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية). لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم ﷺ لا تكلوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض....).

وفي رواية لمسلم (برقم 1066) أيضًا: عن عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن الحرورية لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قالوا: (لا حكم إلا لله)، قال علي: كلمة حق أريد بها باطل، إن رسول الله ﷺ وصف ناسًا إنني لأعرف صفتهم في هؤلاء، يقولون الحق بالستهم لا يجوز هذا منهم -وأشار إلى حلقه-، من أبغض خلق الله إليه، منهم أسودٌ إحدى يديه طبي شاة أو حلمة ثدي؛ فلما قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انظروا، فنظروا فلم يجدوا شيئًا، فقال: ارجعوا فوالله ما كذبت ولا كذبت -مرتين أو ثلاثًا- ثم وجدوه في خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه).

وأخرج البخاري في صحيحه (برقم 6934)، ومسلم (برقم 1068) واللفظ له: عن يسير بن عمرو قال سألت سهل بن حنيف هل سمعت

النبي ﷺ يذكر الخوارج؟ فقال: سمعته (وأشار بيده نحو المشرق): (قوم يقرءون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم يَمرقون من الدين كما يَمرق السهم من الرمية).

وعن أبي سعيد الخدري، وأنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: (سيكون في أمتي خلاف وفُرقة، قوم يحسنون القيل ويسئون الفعل، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يَمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، ثم لا يرجعون حتى يرتد على فوقه، هم شرّ الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم [وقتله]، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء، مَنْ قاتلهم كان أولى بالله منهم)، قالوا يا رسول الله ما سيماهم؟ قال: (التحليق)⁽¹⁾.

وأخرجه أبو داود (برقم 4733) من طريق معمر عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ ذكر نحوه، قال: (سيماهم التحليق والتسيد، فإذا رأيتموهم فأنيموهم)، وفي رواية ابن العبد: (فاقتلوهم)⁽²⁾.
قال الإمام أبو داود: (التسيد: استئصال الشعر).

(1) إسناده صحيح إلى أنس، ورجاله رجال الشيخين، وقاتدة لم يسمع من أبي سعيد الخدري، وإنما سمعه من أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد كما صرح بذلك الحاكم وأخرجه في المستدرک (177/2 برقم 2708 ط: مقل)، انظر المراسيل لأبي حاتم الرازي (ص 186).
وأخرجه الإمام أبو داود (4732 ط/ عوامة)، والإمام أحمد في المسند (224/3)، ومحمد بن نصر المروزي في السنة (ص 71 برقم 53 تحقيق البصري)، والحاكم (176/2 برقم 2706-2707)، والبيهقي في دلائل النبوة (430/6)، والبيهقي في السنن (171/8) وغيرهم من طريق الأوزاعي عن قتادة عن أنس.

(2) إسناده صحيح: رواه ابن ماجه في السنن (برقم 174)، والحاكم (175/2 برقم 2705 ط/ مقل)، وأحمد (197/3).
وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (برقم 973) من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن أنس به. وسعيد: ضعيف.

وأخرج ابن أبي عاصم في السنة (برقم 937) بسنده إلى سعيد بن جُمهان قال: دخلتُ على ابن أبي أوفى وهو محجوب البصر؛ فسَلَّمْتُ عليه فرد عليَّ السلام فقال: من هذا؟ فقلت: أنا سعيد بن جُمهان، فقال: ما فعل والدك؟ فقلت: قتلته الأزارقة، قال: قاتل الله الأزارقة كلَّها، ثم قال: حدثنا رسول الله ﷺ: (ألا إنَّهم كلابُ أهل النار)، قال: قلت: الأزارقة كلَّها، أو الخوارج؟ قال: الخوارج كلَّها⁽¹⁾.

وأخرج ابن أبي عاصم في السنة (برقم 967): عن عقبة بن وساج قال: كان صاحب لي يحدثني عن شأن الخوارج، وطعنهم على أمرائهم؛ فحججت فلقيتُ عبد الله بن عمرو؛ فقلت له: أنت من بقية أصحاب رسول الله ﷺ، وقد جعل الله عندك علمًا، وأناس بهذا العراق يطعنون على أمرائهم، ويشهدون عليهم بالضلالة، فقال لي: أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، أتى رسول الله ﷺ بقليد من ذهب وفضة، فجعل يقسمها بين أصحابه، فقام رجل من أهل البادية فقال: يا محمد! والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك أن تعدل؟ فقال: (ويحك من يعدل عليه بعدي)، فلما ولَّى قال: (ردوه رويدًا)، فقال النبي ﷺ: (إن في أمتي أخًا لهذا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرجوا فاقتلوهم ثلاثًا)⁽²⁾.

(1) إسناده حسن: في سنده ابن أبي عاصم حشر بن نباتة؛ صدوق يهم، وقد توبع، ومثله سعيد بن جُمهان، وقد أخرجه الطيالسي في مسنده (2/163 برقم 860 ط/التركي)، والإمام أحمد (4/382 برقم 19434)، والحاكم (3/571) من طريق حشر بن نباتة به. وأخرجه ابن أبي عاصم (برقم 936 ط/الجوابرة)، وأحمد (4/355 برقم 19153)، وابنه عبد الله في السنة (برقم 1513)، وابن ماجه في المقدمة (برقم 173)، واللالكائي (برقم 2311)، وأبو نعيم في الحلية (5/56)، والخطيب في تاريخه (6/319) من طريق الأعمش عن ابن أبي أوفى به، ولم يسمع الأعمش منه.

(2) إسناده صحيح، وقد رواه البزار كما في كشف الأستار (2/359 برقم 1850)، من طريق معاذ بن هشام به.

وأخرج الإمام أحمد (36/5-44): عن مسلم بن أبي بكرة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (سيخرج قوم أحداث أجداء أشداء ذليقة ألسنتهم بالقرآن، يقرؤونه لا يجاوز تراقيهم، فإذا لقيتموهم فأنيموهم، ثم إذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإنه يؤجر قاتلهم)⁽¹⁾.

وأخرج الإمام أحمد (183/3-189): من طريق سليمان بن طرخان التيمي عن أنس بن مالك قال: ذكر لي أن نبي الله ﷺ قال ولم أسمعه منه: (إن فيكم قومًا يعبدون ويدأبون، حتى يعجب الناس، وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية)⁽²⁾.

وأخرج ابن ماجه (174): من طريق الأوزاعي عن نافع عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: (ينشأ نشء يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج قرن قطع)، قال ابن عمر سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كلما خرج قرن قطع -أكثر من عشرين مرة- حتى يخرج في عراضهم الدجال)⁽³⁾.

وفيما ذكرت من النصوص كفاية في بيان مذهب الخوارج الفاسد، وأنه سبب لضياع كثير من الحق، وطريق إلى الشرور، ومور فسيح يتسرب منه أعداء الدين إلى صرح الأمة المتماسك، وبلاء عظيم مازالت الأمة تتجرع مرارته إلى حين.

(1) صحيح: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (برقم 970) من طريق وكيع. وأخرجه البزار في مسنده (برقم 3676)، والحاكم (246/2) من طرق عن عثمان الشحام به. وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (برقم 969) من طريق قتادة عن نصر بن عاصم، عن أبي بكرة به.

(2) إسناده صحيح: وأخرجه بن أبي يعلى (برقم 4066) من طريق خالد بن الحارث، عن سليمان به.

(3) إسناده صحيح: وأخرجه الإمام أحمد (84/2) مطولا.

قال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله: (نهيه ﷺ عن قتال الأمراء أو الخروج على الأئمة - وإن ظلموا أو جاروا - ما أقاموا الصلاة، سدا لذريعة الفساد العظيم، والشر الكثير بقتالهم كما هو واقع، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعافاً أضعاف ما هم عليه، والأمة في بقايا تلك الشرور إلى الآن)⁽¹⁾.

وتقريباً للمعنى ألخص بعض صفات الخوارج من النصوص السابقة كما قال أبو إسحاق إبراهيم الجوزجاني (م259): (حين وصف رسول الله ﷺ أشياعه وحلّاهم ونعتهم وأحسن نعتهم، ثم هم تحركوا بعد رسول الله ﷺ حين فرقوا جماعة الأمة، وميّلوا اعتدال الألفة، فشأموا أنفسهم أولاً، والأمة بعدها آخراً، فنبذ الناس حديثهم اتهماء لهم).

1 : أنهم أصحاب اجتهاد في العبادة لدرجة أنّ أحدنا يحقر عبادته مع عبادتهم، وهذا الأمر قد انفرد به الخوارج القدامى فيما يظهر لي، وأما بعض الخوارج العصرية فيغلب عليهم الفجور والفسوق، فتراهم يحلقون لحاهم، ويتشبهون بالنصارى في لباسهم، ويكذبون في حديثهم، وبعضهم يتلفظ بعبارات الفجور والفسوق، وبعضهم يضع الشنوف في أذنيه بعلّة التعمية عن رجال الأمن، والانخراط في صفوف أبناء المجتمع المتأثر بالغرب.

وصفة الاجتهاد في العبادة كانت مدخلاً لكسب قلوب العامة والشباب.

أخرج الإمام الآجري بإسناد صحيح في كتابه العظيم الشريعة (344/1) برقم (46) من طريق عبيد الله بن أبي يزيد قال: سمعت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وذكر له الخوارج واجتهادهم وصلاتهم فقال: (ليسوا هم بأشدّ اجتهاداً من اليهود والنصارى وهم على ضلالة).

(1) إعلام الموقعين (5/64 ط: مشهور حسن).

وقال الإمام الآجري رحمه الله في الشريعة (345/1): (فلا ينبغي لمن رأى اجتهاد خارجي قد خرج على إمام، عدلاً كان الإمام أو جائراً، فخرج وجمع جماعةً، وسلّ سيفه، واستحل قتال المسلمين، فلا ينبغي له أن يغتر بقراءته للقرآن، ولا بطول قيامه في الصلاة، ولا بدوام صيامه، ولا بحسن ألفاظه في العلم، إذا كان مذهبه مذهب الخوارج).

2 : اتهمهم لولاة أمر المسلمين -عدولاً كانوا أم جائرين- بالجور في الأحكام؛ ثم تكفيرهم بذلك كما قال ذو الخويصرة الخاسر للنبي ﷺ : (يا رسول الله عدل) كما في حديث أبي سعيد، وفي رواية: (اتق الله يا مُحَمَّد)، وفي حديث ابن عمرو عند أحمد: (لم أرك أن تعدل).

3 : تكفيرهم لولاة أمر المسلمين، ومن يساندهم بالمعروف بالمتشابه من الأدلة، ويعدون ذلك تحقيقاً لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أخرج الآجري في الشريعة (345/1) بإسناده إلى المعلى بن زياد قال: قيل للحسن: يا أبا سعيد! خرج خارجي بالخريبة، فقال: (المسكين رأى منكراً فأنكره فوق فيما هو أنكر منه).

4 : ليس لهم فقه بالقرآن الكريم⁽¹⁾ رغم اجتهادهم في تلاوته، وعندهم جهل فاضح بالسنة الصحيحة، وقد جاء في حديث أبي سعيد: (يقرون القرآن لا يجاوز تراقيهم)، وفي حديث أبي بكره عند أحمد: (ذلقة ألسنتهم بالقرآن يقرؤونه لا يجاوز تراقيهم).

وهذا الصنف يعتني كثيراً بأحكام التلاوة، ويوغل في تعلّمها وتعليمها، دون أن يعرج على تفسير السلف لأي القرآن الكريم، وعندهم تشدق واضح في القراءة، ويا ويل إذا أخطأ أمامهم قارئ فأظهر حرفاً أو أخفاه، والله الحافظ من غيرة لا يصاب بها عرض ولا يحقن بها دم، وبسبب جهلهم

(1) ينظر كتابنا "دعوة إلى الحكمة والتعقل".

الظاهر بتفسير السلف للقرآن أنهم ظنوا أن ما استدلوا به لتقوية بدعتهم يؤيدهم، وفي الحقيقة هو عليهم، كما أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث زيد بن وهب الجهني عن عليّ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (يقرؤون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم).

وعن أبي عبد الرحمن السلمي عبد الله بن حبيب قال: إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يعلموا ما فيهن من العلم، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعاً، وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء، لا يجاوز هذا وأشار بيده إلى حنكه⁽¹⁾.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: (فإن القرآن جعله الله شفاءً لما في الصدور، وبياناً للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك، لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ؛ إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشرك، وتفريق الدين شيعاً كالفتن التي تُحدثُ السَّيفُ).

فالفتن القولية و العملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم، كما قال مالك بن أنس: "إذا قل العلم ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء"⁽²⁾.

وقال الشاطبي -رحمه الله-: (ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمي؟ لأن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم

(1) إسناده صحيح؛ أخرجه ابن أبي شيبة (460/10 برقم 9978)، وأبو بكر الفريابي في فضائل القرآن (ص 241 برقم 169)، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير ابن جرير الطبري.

(2) مجموع الفتاوى (307/17-308).

يقرؤون القرآن لا يجوز تراقيهم، يعني -والله أعلم- أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم؛ لأن الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل به فهم على حال، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف المسموعة فقط، وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لا يفهم⁽¹⁾.

5 : مشهورون بتتبع المتشابه من آيات الكتاب الكريم، حيث أنهم عمدوا إلى نصوص نزلت في الكفار فأنزلوها على المسلمين.

عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: (إن مما أتخوف عليكم: رجل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه، وكان ردة الإسلام؛ اعتراه إلى ما شاء الله، فانسلك منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك) قال: قلت: يا رسول الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: (بل الرامي)⁽²⁾.

وأخرج الإمام الأجرى رحمه الله في الشريعة (343/1)، وابن أبي شيبه في المصنف (برقم 19748) من طريق طاوس قال: ذكر لابن عباس الخوارج وما يصيبهم عند قراءة القرآن؛ قال: (يؤمنون بمحكمه، ويضلون عند متشابهه) وقرأ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ﴾.

وقد ذكر البخاري تعليقا عن ابن عمر وأوصله الطبري كما قال الحافظ في الفتح (357/12) في مسند علي من تهذيب الآثار من طريق

(1) الاعتصام (691/2).

(2) إسناده حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه (281/1) برقم 81 الإحسان)، وأخرجه البزار في مسنده (220/7 برقم 2793)، وأبو يعلى كما قال الإمام ابن كثير في تفسير سورة الأعراف الآية (175) من طريق محمد بن مرزوق، والحسين بن أبي كبيشة قال: حدثنا محمد بن بكر البرساني، قال: أخبرنا صلت بن مهران، حدثنا الحسن، حدثنا جندب في هذا المسجد - يعني مسجد البصرة - أن حذيفة حدثه قال: قال رسول الله ﷺ به. وقال ابن كثير: هذا إسناده جيد.

بكير بن عبد الله بن الأشج أنه سأل نافعا كيف كان رأي ابن عمر في الحرورية؟ قال: (كان يراهم شرار خلق الله، انطلقوا إلى آيات [نزلت في] الكفار فجعلوها في المؤمنين) وقال الحافظ: وسنده صحيح⁽¹⁾.

وقال الإمام الآجري رحمه الله (338/1): (هذه صفة الحرورية، وهم الشّرة الخوارج، الذي قال الله تعالى ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾).

وقال كذلك في الشريعة (342/1) بعد ما أورد أثر سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْكُمْ شُرَكَاءَ﴾: (ومما يتبع الحرورية من المتشابه قول الله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ويقرءون معها ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق، قالوا: قد كفر، ومن كفر عدل بربه فقد أشرك؛ فهذه الأمة (وفي نسخة: فهؤلاء الأئمة) مشركون، فيخرجون فيفعلون ما رأيت، لأنهم يتأولون هذه الآية).

6 : عندهم تقعر وتعمق في الدين من غير فقه، كما جاء في حديث أبي بكرة، وهذا الصنيع جرهم إلى المروق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ومعلوم كما قال النبي ﷺ من حديث معن بن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة: (إن الدين يُسر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 39).

قال الحافظ ابن رجب في فتح الباري (136/1): (النهي عن التشديد في الدين، بأن يُحمَل الإنسان نفسه من العبادة ما لا يحتمله، إلا بكلفة

(1) فتشت على الأثر في نسختي من تهذيب الآثار لأبي جعفر الطبري من مسند علي رضي الله عنه فلم أهدأ إليه والله أعلم.

شديدة، وهذا هو المراد من قوله ﷺ (لن يشاد الدين أحدًا إلا غلبه)، يعني: أن الدين لا يؤخذ بالمغالبة، فمن شاد الدين غلبه وقطعه).

7 : أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، وهذه صفة كاشفة لحال كثير ممن وقع في فكر الخوارج، أو اصطاده رؤوسهم، ودعاة الإرهاب منهم. قال الحافظ النووي: (يستفاد منه -أي حديث علي السابق- أن التثبت، وقوة البصيرة تكون عند كمال السن، وكثرة التجارب وقوة العقل).

والحديث علامة من علامات نبوته ﷺ ، فإن جلّ من يقع في شباك الخوارج وصناع جرم الإرهاب في العالم هم الشباب الذين لم يتربوا في أحضان أهل العلم، ولم يروضوا في حلق أهل السنة الخالص، بل ربّاهم رؤوس الضلال على الأوهام، وأغرقوهم في الأحلام، وصوروا لهم أن قيام دولة بمبادئها الإسلامية، وعقيدتها السلفية في عصر العولمة والهيمنة الغربية، يكون بسيف صديء، أو مسدس صُنع في الحرب العالمية الأولى، أو بالتخندق في جحر وتفجير مبنى والله المستعان!!، مع جهل لا يتصور بالشريعة الغراء، بل بعضهم ممن ينادي بقيام دولة إسلامية في دولة إسلامية قائمة من سنين لا يعرف آداب قضاء الحاجة، وأحكام الوضوء، وهذا حال من لم يروض في مدرسة أهل الحديث، ولم يرب على كتب أئمة الإسلام الأئمة. قال العلامة القيرواني رحمه الله في رسالته: (وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون: إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين؛ ليرسخ فيها، وتنبههم على معالم الديانة وحدود الشريعة؛ ليُراضوا عليها...).

إن الشاب إذا لم تُحمل طباعه على الانقياد للحق، ويذلل على الوقوف عند حدود الشريعة، ويراض على ذلك، فإنّه كالحصان الجموح الذي يستعصي على صاحبه، ولا يكون نافعا لمالكه، وهكذا حال الشباب الذين لم يروضوا في حلق أهل الحديث، فإنهم يصبحون متفلتين ضائعين

تأهين كالريشة في مهب العواصف، تقذفهم الشبه يمينا، وتجذبهم الشهوات شمالا، ويصيرون كالعجينة في يدي من يُشبع لهم نزواتهم، ويعيشهم في عالم الأحلام والله المستعان.

8 : يقتلون أهل الإيمان ويذرون أهل الأوثان، ويختبئون في قباب أهل الشرك والبهتان!، بل نراهم ينزحون إلى ديار أهل الصلبان ويتخذونها وطنا، ويجتمعون في كنائسهم، ويتقربون إلى قساوستهم، وفي الوقت نفسه يصدرون الفتاوى بقتل الأطفال والنسوان، ويمدون رؤوس الخوارج من وراء البحر بالعتاد والمال والسنان، والله الحافظ من شر كلاب النار.

9 : يتقربون إلى الله بحلق رؤوسهم في غير المناسك كما قال ﷺ (سيماهم التحليق والتسييد).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مختصر الفتاوى المصرية (94/1): (وليس حلق الرأس في غير نسك بسنة، ولا قرينة باتفاق المسلمين، وتنازعوا في كراهيته، وكان عمر رضي الله عنه يعزر بحلق الرأس، فإنه كان عند السلف مثلة).

وفي هذا العصر المتأخر نرى صنفا من الشباب هداهم الله يحلقون رؤوسهم في غير نسك أو حاجة، ويتركون رؤوسهم مكشوفة دون أن يستروها بشيء، ويُرخون لحاهم دون أن يسرحوها أو يكرموها، مع ارتدائهم لنوع من الألبسة الممزوجة؛ حذاء رياضي مع قميص نوم!، مع جوارب تحمل ألوان الطيف، ثم تراهم يمشون في الشوارع والأماكن العامة، في منظر مقزز ومنفر، يعطي المجال للعلمانيين للطعن في أهل الحق، غفر الله لهم ورزقهم الحلم والأناة، والسّمت الحسن.

السبب الثالث: ظهور الطائفية والحزبية الضيقة في المجتمعات الإسلامية⁽¹⁾.

(1) يراجع كتاب الأخ حمد العثمان: الصوارف عن الحق (ص 47)، وكتاب الشيخ الفاضل والأخ الكريم عبد السلام بن برجس رحمه الله (الأمر بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم والتحذير من مفارقتهم).

قلت وبالله تعالى التوفيق: إنّ خطر الطائفية الشمطاء على أمن الأمة واقتصادها لا يختلف في شره اثنان، وخاصة إذا كان مكسوا بلباس السياسة العرجاء، ومدفوعا من جهات مستثمرة في باب الهيمنة الأيديولوجية، والسيطرة على الأقاليم، والتوسع الأخطبوطي، ومنطويا على نية الانفصال وتفكيك الوطن إلى كتتنوات وأقاليم، وما يراه المسلم ويسمعه من حوادث رهيبة تقع في العراق الشقيق بسبب العنف الطائفي، والقتل على الهوية، وما وقع في يوغزلافيا ولبنان سابقا، يجعله يعد مشروعا وقائيا محكم البنيان يعصم من خطر الطائفية النائمة في بعض المجتمعات الإسلامية، والتي أصبحت ورقة رابحة في أيدي بعض الدول الكافرة، وأحيانا في أيدي بعض الدول الإسلامية حين يأتيها شيطانها لبذر سموم الفتن في ربوع الدولة المجاورة من أجل بعض المكاسب الفانية والله المستعان.

والطائفية تتغذى من الدافع العقدي الفاسد، كما هو الشأن عند الروافض الصفويين الأنجاس، أو من الدافع الأيديولوجي كما صنع الشيوعيون بقيادة ستالين وأعوانه في الأقاليم التي استولوا عليها، وأحيانا من الجنس البشري ذاته، من عرب أو عجم، أو لسان، ولهذا جاء الإسلام إلى البشرية كلها وأذاب الطائفية في قالب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسير آية الحجرات: (قيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباب بطون بني إسرائيل، ثم قال رحمه الله: فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ) اهـ، وذابت في قوله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِي، وَفَاجِرٌ شَقِي، أَنْتُمْ بَنُوا آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ، لِيَدْعَنَّ رِجَالٌ فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ النَّتْنَ بِأَنْفِهَا) إسناده حسن، أخرجه الإمام أبو داود والترمذي وغيرهما. وما جاء في حديث أبي هريرة مرفوعا: (من بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه)، =

قال الشيخ عبد السلام البرجس رحمه الله: (التحزب هو: التجمع على شيء معين، يقال للجماعة من الناس: حزب، قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. والتحزب قد يكون محمودا، وقد يكون مذموما.

فالمحمود: ما كان لجماعة المسلمين، الذين انتظم جمعهم بإمام [مسلم] ظاهر [له الأمر والنهي]، فهو لاء هم حزب الله الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فواجب المسلم: أن يلزم هذا الحزب، وأن يدافع عنه، وأن ينصح له.

= وأخرج الإمام أحمد وإسناده حسن من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ (إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد، كلكم بنوا آدم، طَفَّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين والتقوى، وكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشا)، وأخرج الإمام أبو داود في كتاب الأدب عن عبد الله بن مسعود قال: (من نصر قوما على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدِّي، فهو ينزع بذنبه)، والنصوص في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

فيذا أدركت البشرية أن ميزان التفاضل هو الدين السليم والعمل الصالح نبذت نعمة الطائفة وطرحتها أرضا، ومن غاب عنه عامل الرفعة أو جهله اجتهد أهل العلم في إيصاله إليه وإيقافه عليه، فإذا تحقق هذا الأمر عاش الناس في أُنس ووثام، وفي جوٍّ من الاحترام والتكامل.

وكما قلت سابقا: فإن بعض الدول الغربية تحت ستار بعض المنظّمات الإغاثية تسعى إلى تقوية الطائفية في الأقاليم الإسلامية انطلاقا من اللسان، كما هو شأن منظمة اللجنة الدولية للإنقاذ الأمريكية حيث أطلقت في احتفال رسمي من شهر أكتوبر سنة 2004 مشروع كتابة لهجة (البداويت) التي يعود تاريخ ظهورها إلى أربعة آلاف سنة، بإصدار خمسة كتب بهذه اللهجة، وإعلان بدء تعليمها في (19) مدرسة في شرق السودان، وذلك تمهيدا لمحاولات الانفصال عن الدولة الأم السودان، وقد اعتمد زعماء التمرد المسلح في شرق السودان لهجة (البداويت) التي يتحدث بها أكثر من مليوني شخص كلغة رسمية، وشرعوا في تعليمها في المناطق التي يسيطرون عليها تمهيدا لعملية الانفصال عن الوطن.

وهذه الخطط المكشوفة يسعى الغرب لبسطها على بعض دول شمال إفريقيا، والله العاصم من كيد الأعداء، ولعل موضع كشف هذه الحقائق يأتي في جزء خاص.

قال الإمام أبو محمد سهل بن عبد الله التستري (م 283 هـ) رحمه الله تعالى: (هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة: اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغض السلطان، والناجية هذه واحدة التي مع السلطان).

أما التحزّب المذموم فهو: الخروج عن جماعة المسلمين إلى تجمعات أخرى، تلتقي على مفارقة الجماعة، والشذوذ عن الولاية الشرعية، واتّباع الهوى، فهؤلاء من حزب الشيطان، لأنهم فارقوا حزب الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فأيّ تجمّع على غير الإمام الظاهر ذي الشوكة والقوّة الذي يبايعه المسلمون يعتبر في الشرع تحزّبا بدعيا مفارقا للجماعة، وهو نواة [المناهج الهالكة]⁽¹⁾، التي تهلك الحرث والنسل، وتشيع في البلاد الفساد.

قال الحسن: خرج علينا عثمان بن عفان رضي الله عنه يوما يخطبنا، فقطعوا عليه كلامه، تراموا بالبطحاء حتى جعلت ما أبصر أديم السماء، قال: وسمعنا صوتا من بعض حجر أزواج النبي ﷺ، فقبل هذا صوت أم المؤمنين، قال القاضي إسماعيل: أحسبها أم سلمة رضي الله عنها، قال: فسمعتها وهي تقول: أَلَا إِنَّ نَبِيَكُمْ قَدْ بَرِئَ مِمَّنْ فَرَّقَ دِينَهُ وَاحْتَزَبَ، وتلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، فالأحزاب والجماعات فرقة نهى الله تعالى عنها، وبرأ نبيه ﷺ منها، فلا يجني منها المسلمون إلا الويل والفساد.

(1) قال الشيخ البرجس رحمه الله تعالى في جزئه: (وهو نواة الخروج المسلح)، واخترت تغييرها بما كُتِبَ أعلاه، لأن الغالب على التكتلات المعاصرة الركون إلى التقية وفكر القعدية على نمط الرافضة إلا القليل منهم من يسلك العمل المسلح، وهم في الغالب أداة في أيدي أعدائهم من المغضوب عليهم والضالين.

فلا يجوز لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقيم حزبا في بلاد المسلمين، يخرج به عن جماعتهم، ويفتات به على سلطانهم⁽¹⁾ اهـ.

قلت: لا ريب أن الرجل إذا كان متحزبا في جماعة محدودة الأطراف، وضيقة الأفق، ومنخرطا تحت لواء تنظيم وحزب من نسيج البشر، وإن تسمى بالإسلام، وقادته دون مرتبة الاجتهاد بمنازل ومنازل، فإنه سيعمل ضمن ضوابط وأطر الحزب الذي تقلد مهام تسيره ونصرته، ولا شك أن هذه البنود الاجتهادية من أناس قاصرين يغلب عليها شكلا ومضمونا الخطأ إلا أن يشاء الله، فمن كان منزويا تحت بنود مظلة، هذه هي سماتها فإنها ستقيد حريته في التفكير والمناقشة، وتحرمه من عبادة ربه بشتى فصول العبادة، وأنه إذا ظهرت له بعض أخطاء حزبه، ركن إلى الصمت والسكوت؛ هذا إذا لم يبذل ما عنده من قوة لإعطاء البند المغشوش الصورة الشرعية والعقلية السليمة، بلي أعناق النصوص وتأويلها عن حقيقتها الشرعية، مراعاة لمصلحة الحزب المتهمة، والتي يراها في خدمة الإسلام، ومتلازمة لنصرته، وطمعا في الارتقاء في سلم الحزب، ليلبغ أرقى المناصب وأعلاها.

قال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد غفر الله له وتجاوز عنه وشفاه بمنه وكرمه في حكم الانتماء: (وفي الحزبية بعثُ حرب الكلمة، بنصب عوامل الانتصار لأصول كل حزب ورد ما يخالفه، فقعد العصبية في سيرتها الأولى: «قولنا صواب لا يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، يأتي اليوم في مسلاخ آخر، فخذ ما شئت من الوضع في استعمال النصوص بلي أعناقها عن دلالتها إلى التدليل بها على واقع الحزب... وهكذا من جهود التأييد وتشبيد الأدلة، والبحث عن السنة لواقع الحزب والجماعة فيه، والرد على المخالف، فالدين دين هذا الحزب وتلك الجماعة، وهذا استخدام لكلمة «الدين للواقع»، أي لواقع الحزب وجماعته!، والحق السوي أن الدين

(1) الأمر بلزوم جماعة المسلمين (ص: 89-90-91).

للواقع الموزون بميزان الشرع: الكتاب والسنة، فيقرّ ما يقر، ويُنفي ما ينفي، لا في قالب الحزب بما رسم له من حدود وأطر ياباها ميزان الشرع، ومنهاج النبوة⁽¹⁾.

إنّ الله تعالى أمر الخلق بالتقرب إليه بجميع ما شرع فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ البقرة: ٢٠٨.

قال العلامة ابن كثير الدمشقي (م774هـ): (يقول الله تعالى أمرا عباده المؤمنين المصدقين برسوله؛ أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك)⁽²⁾.

والحزبية من صفاتها أنها تأتي إلى باب من أبواب الشريعة وتسمى به، وتهمل باقي ما أمر الله به، فتجد جماعة متحيزة على نشر الأخلاق والفضائل، جاهلة بعلم المسائل، وحق الله على الأواخر والأوائل، والمتمعن في المنخرطين في صفوفها يجدهم جهل بلغه العرب، غرباء عن أهل الحديث وأهله، وبعضهم واقع في الشرك والبدع، منكربين لبعض أبواب الدين كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن زعموا أنهم يقرون به، والله المستعان والهادي إلى طريق الرضوان.

وإذا نظرت في جماعة أخرى وجدت ديدنها علم السياسة المعاصرة الغربية، والجري وراء حصد المقاعد للوصول إلى قبب المجالس، لجلب المصالح على قولهم! ودفع المفساد على توهمهم، معرضين عن تربية الأمة وتفقيها، سآخرين ممن سلك طريق الأنبياء في إصلاح الأرض ودفع عنها المفساد، ولكن إذا عسوا في المجالس ولهسوا من لبن القبة! نسوا ما وعدوا به الأمة في العقبي، إلا من رحم الله منهم، ولو عملوا هداهم الله بالشمولية

(1) حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية (ص: 147).

(2) تفسير ابن كثير (2/273 ط/ أولاد الشيخ المصرية).

كما أعلنوا، وحققوا فقه الأولويات كما صرحوا⁽¹⁾، لأخرجوا جما غفيرا من المسلمين من دهايز الجهل والبدع، ولنظفوا مؤسسات الأمة المالية من كبيرة الربا، والتحايل على أكلها، وغيرها من المصالح العظمى التي تشوق الأمة لأن تراها أمامها في لباسها الشرعي الذي عُريت منه حقبة من الزمن.

وإذا وسعت النظر قليلا رأيت أقواما آخرين يحضرون الإسلام الحنيف في باب الجهاد، ويتسمون بهذا الكتاب، ويطلقون على أنفسهم: الجماعة الجهادية، وبعضهم للتدليس واستقطاب أكبر عدد من الشباب؛ بالجماعة السلفية للدعوة والقتال⁽²⁾، لعلهم هداهم الله إلى الحق، وألهمهم

(1) أول واجب على من سلك طريق العبودية ورغب في نفع الخلق أن يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وتحقيق العبودية له سبحانه؛ لحديث عبد الله بن عباس أن النبي ﷺ لما أرسل معاذًا إلى اليمن قال له: (ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله..)، ولقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، قال ابن عباس: وحدوه.

فإن أفراد هذه الجماعة إلا من رحم الله وقليل ما هم، مع حصولهم على التصاريح لتعليم الناس، وعلمهم بحال أبناء الأمة الغارقين في الشرك والبدع إلى أذقانهم، مع كل ذلك نجدهم يجارونهم على باطلهم، ويحسنون ما هم عليه من الخطأ، ولا نقف لواحد منهم على مجلس يقرأ فيه على الناس كتاب الشرك ومظاهره للشيخ مبارك الميلي الجزائري، ولا كتاب أصول السنة لابن أبي زمنين المالكي، ولا كتاب السنة لابن أبي عاصم، ولا صحيح البخاري، ولا صحيح مسلم، ولا موطأ الإمام مالك، ولا غيرها من كتب أئمة الإسلام، بل نراهم يشغلون الناس بقضايا سياسية زائفة، وعلوم فلسفية إغريقية سخيفة؛ وقصص مكذوبة وموضوعة وخيالية، الجهل بها لا يضر-وقد يكون نافعا!- والعلم بها لا ينفع، هذا إذا لم يؤصلوا أصولا باطلة تكون نقطة بدأ الانحراف عن الصراط الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه، والله المستعان، وهو جلّ وعزّ يعلم المصلح من المفسد.

(2) قلت: لقد أعلن رأس الفتنة والهرج أيمن الظواهري المصري انضمام الجماعة السلفية للدعوة والقتال الجزائرية إلى تنظيم القاعدة المشؤوم، لتختتم مسيرتها المشبوهة والخاطئة بوسام الظلمات والشبه!، ولا يفيدها أنها رصدت قتالها لقهر الأمريكان، فإن اعتداءها =

الرشد والبصيرة أن الناس يحبون منهج السلف الصالح، وأنه لا يكون إلا حقا.

ونحن نقول لهؤلاء: إن الجهاد أمر مشروع وهو من دين الله بلا ريب ولا شك، وهو ذروة سنام الإسلام⁽¹⁾، وإنما جاء الانحراف من سوء فهمكم

= على أي أمريكي في ديار المسلمين خففَ لزمة ولاية أمور المسلمين، وهزّ لأمن الأمة، وضرر باقتصادها الذي يتقوت منه آلاف المسلمين، قال تعالى: ﴿أَوْ كُظُمَتِ فِي بَحْرِ لُجِّي يَعْشُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

(1) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في الشرح الممتع (9/8 ط/ آسام): (وإنما جعله النبي ﷺ ذروة سنام الإسلام؛ لأنه يعلو به الإسلام ويرتفع به، كما أن سنام البعير كان فوقه مرتفعاً) اهـ.

قلت: فهل ما يصنعه زعماء الجهاد البدعي في ديار المسلمين في العصر الحديث ارتفع به شأن الإسلام، وعلت به أحكامه على قوانين البشر الباطلة؟ أترك الجواب للمغرر بهم ممن يناصرون الثوار بالباطل.

وقد أبان الشيخ محمد بن صالح العثيمين عن نكتة بدعية قلّ من يتنبه لها فقال رحمه الله في الشرح الممتع (101/8 ط/ آسام): (...لماذا جعلوا الجهاد -أي علماء الشريعة في ترتيبهم لأبواب الفقه- في قسم العبادات، ولم يجعلوه في كتاب الحدود؟ الجواب: لأن كون الجهاد عبادة أظهر من كونه انتقاماً وردعاً، ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في فضله وثوابه والحثّ عليه، فجعلوه من قسم العبادات) اهـ.

قلت: الجهاد عبادة كباقي العبادات، والأصل في العبادات المنع والتوقف، وهو منوط بإصابة السنة مع الإخلاص فيه، فمن أحدث في الجهاد ما ليس من أصوله فهو باطل وردّ عليه، والناظر في عمل الجماعات التي تزعم الجهاد في ديار المسلمين الآمنة لقهر الأمريكان يجد أن جل أعمالهم محدثة، لا يسندوها نص محكم، ولا عمل السلف، ولا فتوى عالم معاصر، فالحكم على صنيعهم أنه بدعة محدثة لا يشك في صحته صاحب فقه وعلم.

أخرج سعيد بن منصور في سننه (211/2 برقم 2546 باب: ما جاء في الرياء في الجهاد، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي) بإسناد صحيح من طريق أبي معاوية: نا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: قال حذيفة لأبي موسى: (أرأيت لو أن رجلاً خرج بسيفه =

لهذا الباب العظيم، ولاتباعكم للمتشابه من النصوص، فآل بكم الأمر إلى أن مرّغتم اسم الجهاد في الأرض، وأظهرتموه للناس في صورة مباينة تماماً لما هو في كتاب الله وسنة رسول الله، وهدي السلف الصالح، وأحدثتم فيه من البدع والتّرهات ما جعل العالم بالشرعية يتساءل بعمق وصدق؛ بأي منهج يجاهد ثوار العصر أعداءهم؟!.

فهل يُنتظر منكم فلاحٌ وخيرٌ وأمثلكم طريقة لم يجلس ربع ساعة عند كبار العلماء في هذا الزمان، ليتعلم شريعة الله التي مبناها التعرف على مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية؟.

= يتبغي وجه الله فضرِب، فقلت [ولعلها: قُتِلَ] كان يدخل الجنة؟ فقال له أبو موسى: نعم، فقال حذيفة: لا، ولكن إذا خرج بسيفه يتبغي به وجه الله، ثم أصاب أمر الله فقتل؛ دخل الجنة). وأخرج الأثر الإمام عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (267/5 برقم 9565) من طريق آخر عن معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة قال: جاء رجل إلى أبي موسى الأشعري، وحذيفة عنده فقال: أرأيت رجلاً أخذ سيفه فقاتل به حتى قتل؛ أله الجنة؟ قال الأشعري: نعم، قال حذيفة: استفهم الرجل وأفهمه، قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه مثل قول الأول، فقال له أبو موسى مثل قوله الأول، قال: فقال حذيفة أيضاً: استفهم الرجل وأفهمه، قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه مثل قوله، فقال: ما عندي إلا هذا، فقال حذيفة: ليدخلن النار من يفعل هذا كذا وكذا، ولكن من ضرب بسيفه في سبيل الله يصيب الحق فله الجنة، فقال أبو موسى: صدق).

قال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة رحمه الله في كتابه العظيم "استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية؛ وهو كتاب الردّ على الأحنائي" (ص: 607-608 ط/دار الفتح الشارقة): (والكتاب والسنة مملوءان بالأمر بالجهاد وذكر فضيلته، لكن يجب أن يُعرف الجهاد الشرعي الذي أمر الله به ورسوله من الجهاد البدعي؛ جهاد أهل الضلال الذين يجاهدون في طاعة الشيطان وهم يظنون أنهم مجاهدون في طاعة الرحمن، كجهاد أهل البدع والأهواء؛ كالخوارج ونحوهم الذين يجاهدون في أهل الإسلام، وفيمن هو أولى بالله ورسوله منهم من السابقين الأولين، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين..).

وهل يرجى منكم نصر وأكثركم قضى نصف حياته في ما حرم الله، فلما استقام بدلا من أن يصلح ما أفسد في غابر ماضيه بتعلم الشرع من بابه، والبكاء على خطيئته، واصل الإفساد باسم الدين والجهاد؟.

وما هو المشروع الذي تحملونه للأمة؟.

وعلى أي هيئة علمية كبرى عُرض⁽¹⁾؟.

وهل يجوز لكم فصل كتاب الجهاد عن كتاب الطهارة والصلاة والصوم؟.

(1) قد يقول مغرر به: إن الذين يساندوننا في جهادنا ضد الطواغيت والمرتدين، ويزكون أعمالنا عندهم شهادات عالمية عالية، ولهم كتب منشورة في الأسواق ورائجة، فلماذا تنقمون علينا أعمالنا؟.

يكون الجواب هداكم الله إلى طاعته: إنني لم أقل أنهم لا يملكون شهادات عالية، وإنما الحديث يحتاج إلى شيء من التفصيل، فالقائمون على الجهاد البدعي صنفان: صنف عنده جهل مطبق وسابغ بالشرعية، وهذه الزمرة هي عصا دعاة الخروج التي يسلطونها على رقاب الأبرياء، فإذا انتهت صلاحيتها فجروها في مقر عام والعياذ بالله. والصنف الثاني: وهم الذين يملكون الشهادات، قد تكون في الطب، أو الهندسة، وقد تكون في العلوم الشرعية، وهذا الصنف لم يترب في أحضان أهل السنة، ولم يرتو من حوضهم الأمن والسالم من الشبه، وليس له الأهلية الشرعية للفتوى في النوازل وكبرى القضايا، ولهذا لما ولج هذا الصنف باب الاجتهاد في أمور الجهاد أتى بالعجائب، وصدق النبي المصطفى ﷺ حين قال: (إِذَا وُيِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ؛ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)، ولا يلزم من كون هذا الصنف درس في السربون، أو شرح بعض المتون، أو تفتن لمخططات دولة صهيون أنه عنده فهم ودراية بالمسائل التي تعم بها البلوى، فرب حامل فقه ليس بفقيه، وهذا الصنف يساير الأحداث، فإذا رأى أن الواقع لا يخدم أهدافه طلّ على أوجه وسائل الإعلام وقال: لقد أساء الشباب فهمنا!، نحن لم نقصد ما صنعه الصنف الأول!، نحن نبرأ إلى الله من عملهم!، وفي النهاية الذي يبقى في فوهة المدفع هو الصنف الأول، فقبل أن يقع الفأس في الرأس فإنني أناشد المتورطين والعالقين في شباك دعاة الدمار بالعودة إلى الله، والتوبة من فكر الخروج، وإصلاح ما أفسدوه بالأعمال الصالحات، قال تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَّا﴾.

فما رأيكم لو ظهرت طائفة في المجتمع وتسمت بكتاب الصلاة وأطلقوا على أنفسهم بالجماعة الصلّاتية، وأخرى بالفرقة الصيامية، وطائفة أخرى بالفرقة البيوعيّة، والرابعة بالزواجية، والخامسة بالطلاقية!، وهكذا.

فإنكم -إن كان لكم علم وأنا أشك في ذلك- ستصفونهم بالبدعة، وتأمرونهم بالدخول في الإسلام كافة، وحينها نقول لكم: تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، وأنتم تزعمون الجهاد والحكم على العباد أفلا تعقلون!.

فعودوا يا قوم إلى الإسلام بكلّ فصوله، واتركوا الأوهام التي زُجِجتم فيها زجا، والأحلام التي لا تتحقق حتى في الأحلام!، والطيش عن الصراط يميناً وشمالاً.

فقلت ازدجر أحناء طيرك واعلمنْ *** بأنك إن قدّمت رجلك عائر.

واعلموا أنّ الجهادَ طاعةٌ لله كباقي الطاعات، وهو ذروة سنام الإسلام كما أخبر سيد الأنام، فإذا فُعل في غير وقته، وبغير شروطه كان على أصحابه وبال وبدعة، هذا إذا سميناه جهاداً، وإنّ حالكم يا قوم كحال مَنْ حضر درساً في وقت الضحى وفيه رَغَبَ العالم في صلاة العصر، ورَهَبَ من تركها، وذكر ما ورد فيها من النصوص والحكم والأجر، فقام متحمّس من حينه وصلى صلاة العصر في وقت الضحى، مبتهجا بسبقه إلى الصلاة، راغباً في تحصيل الأجر الذي سمعه في حلقة العلم، وما علم هداه الله أن صلاته بنية العصر باطلة، وأنه لو صلى مائة ركعة ما حصل على أجر صلاة العصر في وقت الضحى، وأنه لو صبر حتى جاء زمان صلاة العصر وصلى لكان خيراً له وأشدّ تثبّيتاً، ولأصاب الجادة والهدى.

لا أقول هذا تقليباً للمواقع، ولكن تذكرة للغافل وتعليماً للجاهل، ومع سؤال الله تعالى بقلب صادق أن يعيد جميع الجماعات الإسلامية إلى منهج أهل الحديث والأثر، وأن يغمسهم في روضة السنة على فهم السلف، وأن يُوفّقهم إلى الدّخول في الإسلام كافة؛ توحيداً، وفقهاً، وأخلاقاً،

وسياسة، وجهاداً، ولا يكون هذا إلا بنهج طريق السلف في العلم والتعليم والدعوة إلى الله.

والأخص في هذا الفصل صورتين لمعنى الحزبية لضيق المقام، ولعلي أسهب في بيانها في جزء خاص إذا يسر الله تعالى:

أولاً: عقد الولاء والبراء على موافقة شخص بعينه دون الرسول محمد ﷺ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومن نصب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو ﴿مِنَ الَّذِينَ فَارَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ الآية، وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل: أتباع الأئمة والمشايخ؛ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيار، فيوالي من وافقهم، ويعادي من خالفهم، فينبغي للإنسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به، فهذا زاجر، وكمائن القلوب تظهر عند المحن).

وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله، أو أخبر الله به ورسوله، لكون ذلك طاعة ورسوله ﷺ (1).

وقال كذلك شيخ الإسلام رحمه الله: (وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد العهد بموافقته

(1) مجموع الفتاوى (9-8/20).

على كل ما يراه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه⁽¹⁾، بل من فعل هذا كان من جنس جنكز خان وأمثاله الذين يجعلون من يوافقهم صديقا وليا، ومن يخالفهم عدوا باغيا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله، ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله...⁽²⁾.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (...وأما «رأس الحزب» فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، أي تصير حزبا، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا من التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق وبالباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو على الباطل، فهذا من التفرق الذي ذمّه الله تعالى ورسوله، فإن الله تعالى ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف، ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن الإثم والعدوان، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضا) وشبك بين أصابعه، وفي الصحيح عنه أنه قال: (المسلم أخو المسلم، لا يسلّمه ولا يخذله)، وفي الصحيح عنه ﷺ قال: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) قيل: يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال: (تمنعه من الظلم؛ فذلك نصرك إياه)، وفي الصحيح عنه أنه قال: (خمس تجب للمسلم على المسلم: يسلم عليه إذا لقيه، ويعوده إذا مرض، ويشمّمه إذا عطس، ويجيبه إذا دعاه، ويشيّعه إذا مات)، وفي الصحيح

(1) وهي البيعات البدعية التي يدعو إليها رؤوس الجماعات الحزبية، كما هو مبثوث في كتبهم ووثائقهم.

(2) مجموع الفتاوى (16.15/28).

عنه ﷺ أنه قال: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه)، فهذه الأحاديث وأمثالها فيها أمر الله ورسوله بما أمر به من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض...⁽¹⁾.

ثانيا: التقيّد بعمل واحد من أعمال العبودية والتسمي به:

قال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله شارحا لعبارات الهروي رحمه الله في أوصاف أهل المنهج السوي: (العلامة الثانية: قوله: «ولم يُنسَبُوا إلى اسم» أي لم يشتهروا باسم يُعرفون به دون الناس من الأسماء التي صارت أعلاما لأهل الطريق، وأيضا: فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد، يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمال، فإنّ هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة. وأما العبودية المطلقة: فلا يُعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنّه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فله مع كلّ أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا تقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول ﷺ، وعن طريقه؟ قال: الإتياع، وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى، وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة، وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وعن رباطه وعن خانكاه؟ قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام ولا أب لي سواه***إذا افتخروا بقبس أو تميم.

وعن مأكله ومشربه؟ قال: (مالك ولها؟ معها حذائها وسقاؤها، ترد الماء وترعى الشجر حتى تلقى ربها)⁽²⁾.

(1) مجموع الفتاوى (93.92/11).

(2) مدارج السالكين (166.165/3 منزلة السر).

وقال كذلك رحمه الله في (ص167) من نفس الجزء: (وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى السنّة. يعني: أن أهل السنة ليس لهم اسم يتسبون إليه سواها؛ فمن الناس: من يتقيد بلباس لا يلبس غيره، أو بجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية لا يمشي غيرها، أو بزي وهيئة لا يخرج عنها، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها، وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره، وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه، فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيدتهم العوائد والرسوم، والأوضاع والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم عنها أبعد منزل، فترى أحدهم يتعبد بالرياضة والخلوة، وتفريغ القلب، ويعد العلم قاطعا له عن الطريق، فإذا ذكر له الموالاة في الله، والمعاداة فيه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: عدّ ذلك فضولا وشرّا، وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك: أخرجوه من بينهم، وعدوه غيراً عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله، وإن كانوا أكثر إشارة والله أعلم) اهـ.

وعن عبد الرحمن بن مهدي العنبري قال: سئل مالك بن أنس عن السنّة، قال: (ما لا اسم له غير السنّة، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾⁽¹⁾).

وسأل رجل الإمام مالك: من أهل السنّة يا أبا عبد الله؟ قال: الذين ليس لهم لقب يعرفون به؛ لا جهمي، ولا رافضي، ولا قدرى⁽²⁾.

(1) أخرجه ابن عبد البر في الانتقاء (ص72)، وذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك (41/2)، والشاطبي في الاعتصام (1/79/ط/ مشهور).

(2) رواه ابن عبد البر في الانتقاء (ص35)، وذكره القاضي عياض في الترتيب (41/1)، وابن عبد الهادي في إرشاد السالك (53/ب/54أ).

قلت: فمن اتخذ لقباً وتسمى به إما باعتبار مؤسس الطائفة، أو باعتبار عمل من أعمال العبودية قد يكون مشروعاً أو مبتدعاً؛ فإنه يكون قد ولج سبيلاً من السبل التي حذر الله =

إنّ الناظر في التكتلات الإسلامية المعاصرة، يجد أنّ كلّ حزب إسلامي أخذ بجزء من الشريعة وعني به على قصور جلي في معرفة فصوله، ثم أخذ منه اسماً له، مُهملاً لباقي أبواب الشريعة الغراء، ضارباً عنها صفحاً، مزهداً فيها، وبعض رؤوس الأحزاب وللأسف الشديد تجده يستهين بالتوحيد والفقه، ويسمي بعض السنن النبوية الشريفة قشوراً، ويغمز في من يجد ويجتهد في تعليم الناس أحكام الطهارة والحيض والنفاس، وهذا الصنيع يزيد الخرق اتساعاً، والخلاف تعقيداً.

قال الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله بعد ما ذمّ الحزبية: (...ولذلك نعتقد جازمين أن كل جماعة لا تقوم قائمتها على هذا الأساس من الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح دراسة واسعة واسعة جداً، محيطة بكل أحكام الإسلام كبيرها وصغيرها، أصولها وفروعها، فليست هذه من الفرقة الناجية من التي تسير على الصراط المستقيم، الذي أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح).

وقال كذلك رحمه الله عن الأحزاب الإسلامية المتناطحة: (...هذه الأحزاب لا نعتقد أنها على الصراط المستقيم، بل نجزم بأنّها على تلك الطرق التي على رأس كل طريق منها شيطان يدعو الناس إليه)⁽¹⁾.

= تعالى منها، فالخوارج سمّوا بهذا اللقب باعتبار الفعل وخروجهم عن جماعة المسلمين، والجهمية سمّوا بهذا اللقب لاتباعهم جهم بن صفوان في بدعه وباطله، وفرقة الأقباش سمّوا بهذا اللقب لاتباعهم عبد الله الهرري الحبشي في أصوله الفاسدة، والقطبية باعتبار اتباع سيد قطب المصري في ضلاله الذي بثه في تفسيره وباقي كتبه، والسرورية من اتباعهم لمحمد سرور في منهجه المزدوج الذي طلّ به على المسلمين، وهكذا.. فاحذر يا عبد الله أن ترغب عن السنة ومنهج أهل الحديث إلى ألقاب حادثة وأفعال باطلة وتسمى بها.

(1) انظر كتاب فتاوى الشيخ الألباني (ص106، 114) تفريغ عكاشة عبد المنان. [وعلى تفريغ عكاشة بعض الملاحظات].

وأختم هذا الباب بذكر بعض مضار الحزبية⁽¹⁾، وما ينجم عنها من مفسد على الأمة، دون بسط أو إسهاب، ولعلها تحرر في موطن آخر بشيء من التوسع كما وعدت سابقا إن شاء الله تعالى.

أولا: إن الحزبية الضيقة تحضر الولاء والبراء في بنود الحزب الاجتهادية، وتضعفه في حق الله، وهذا العمل أدى بأفراد الحزب إلى دعوة الخلق إلى الولوج في مربع الحزب بخطاب إسلامي حديث، لا إلى معرفة الإسلام الحنيف من مفهوم السلف الكرام، قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٦٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝٦٦﴾.

فقد ذكر الله في هذه الآية قيدين عظيمين يجب أن يتحلى بهما ناصر الدين، ونافع الخلق بالحق المبين:

1- قوله تعالى ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ ؛ أي: أن تكون دعوته قائمة على ربط البرية بالله تعالى بإخلاص وصدق، فمن نثر بنوده لربط الخلق بالحزب، أو المنظمة، أو بنفسه كما يعمد إلى ذلك رؤوس التصوف، وأقطاب الروافض، فيكون قد حاد عن القصد المطلوب، ووقع في الشرك المعطوب والعياذ بالله.

= قلت يشير العلامة الألباني رحمه الله إلى حديث جابر بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فخط خطا هكذا أمامه فقال: (هذا سبيل الله عز وجل)، وخط خطا عن يمينه، وخط خطا عن يساره، وقال: (هذه سبل الشيطان)، ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام: ١٥٣. انظر السنة لابن أبي عاصم (1/47 تحقيق الجوابرة).

(1) ينظر كتاب فقه السياسة الشرعية لخالد العنبري (ص222-227/ط: دار المنهاج)، ويُؤخذ على الدكتور العنبري في جزئه أنه نقل عن سيد قطب، وفتحي يكن، وهما من أشد الناس بُعدا عن سياسة الإسلام الشرعية!.

2- وقوله تعالى ﴿يَا ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي أنه يحتاج في دعوته إلى إذنٍ لربط الخلق بالحق، والمراد؛ أنه يربط الناس بالله عن طريق الشرع الحكيم، فمن سلك طريق الكشف أو الذوق أو السياسة الغربية فيكون قد ابتدع في الدين. قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير آية الأحزاب: (أي أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم، ويشوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها، وذلك يستلزم:

استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن ربه له في الدعوة، وأمره وإرادته وقدره⁽¹⁾.

ثانيا: إن الحزبية تعطي المنتسب إلى الحزب حقوقا ليست لغيره من المسلمين، وتربيته تربية على أخوة مبنية على مبادئ الحزب وشعاره، وفي هذا إهدار للأخوة الإسلامية، واستبدالها بتحالفات بدعية، وبطاق حزبية؛ تضيق الصدور، وتوغل القلوب.

ثالثا: إن كثرة الأحزاب في المجتمعات الإسلامية، ألغت البيعة العظمى للإمام العام، أو حاكم المسلمين، وأفرزت بيعات بدعية عددها لا يحصر، وصارت لكل جماعة بيعة لرأس الحزب التي هي منزوية تحت لوائه، وهذا الصنيع أدى كما قلت إلى هدم أصل عظيم وهو عقد البيعة لولي أمر المسلمين على السمع والطاعة بالمعروف، وأتباع هذه الأحزاب يُنفّرون الناس من طاعة الحاكم المسلم، ويبالغون في ذكر مثالبه على رؤوس المنابر، وأوجه مجلاتهم، وفي الوقت نفسه يمجّدون رأس حزبهم ويطنّون

(1) تفسير عبد الرحمن بن الناصر السعدي المسمى بتيسير الكريم الرحمن (ص784).

في ذكر مناقبه وبعضها مزور، وفي كل عام يقيمون حفلا تمجيذا لمآثره!، وإحياء لليلة ولادته أو وفاته!.

رابعا: إن الحزبية تضيق دائرة الإسلام، وتحجّم صراطه المستقيم، فيمسي الناس لا يرون الإسلام إلا من منظور الحزب الفلاني، أو الجماعة العلانية.

خامسا: إن الحزبية المقيّنة كانت نواة للجماعات المسلحة التي تنهج طريق المواجهة المسلحة، والاغتيالات، فأوقعت الأمة في فتن مدلهمة، وشرور كبيرة، وكانت ذريعة للراصدين العداء للإسلام الذي جاء به النبي ﷺ، للطعن فيه، ومحاربته؛ فأقاموا إذاعات، وأنشؤوا جرائد، وجندوا طاقات لتشويه دين الله المنان، وجعله في قفص الاتهام، وأما أعوانهم من العلمانيين والشيوعيين في ديار الإسلام هداهم الله إلى الحق فإنهم استغلوا انحراف بعض الأحزاب الإسلامية عن المسار القويم الذي رسمه النبي محمد ﷺ للبشرية، وشرعوا في تشويه سمعة المسلمين على العموم، متمثلين المثل القائل عصفورين بحجر، ثم انقضوا بعد ذلك على الأبرياء من المتمسكين بأصول هذا الدين وأجهزوا عليهم بالقول والفعل، بحجة محاربة الإرهاب والتطرف، آملين من التقرب من بعض دول الكفر العظمى، عسى أن ينالوا منها شيئا من الدعم للوصول إلى سدة الحكم، أو أن يظفروا من جنابها ببعض الدعم المالي لنشر الديمقراطية المزعومة في أوساط المسلمين، والله المستعان والحافظ من كل شر وهوان.

باب:

المنازعات بين المسلمين واقعة كونا وإن ذمها الله شرعا، وعلاجها بالدعوة إلى الصلح العادل فيما بينهم.

إن الناس في هذه الحياة على اختلاف ألوانهم، وتباين لغاتهم، وتباعدا أقطارهم بعضها عن بعض؛ واقعون في نزاع واختلاف، مما أدبهم إلى انشعابهم إلى شعوب وقبائل، وأحزاب متباينة، وفرق متطاحنة، لأن الطبيعة الغريزية للبشر تحمل كل واحد -إلا من عصم الله- على محبة التغلب والانتصار على منازعه أو خصمه، فإن كانت النفس صالحة فالمرء يريد استيفاء حقه بالمعروف، وإن كانت طالحة فيريد المرء التغلب والانتصار على الخصم وقهره بأي وسيلة يظفر بها، ولذا كثرت الخصومات والمنازعات في العصر الحديث، فتجد المنازعات بين فرد وآخر، وقرية وأخرى، ودولة وأخرى، وبين طائفة خارجة عن ولاء حاكمها المسلم ودولتها، وهكذا... وقد يمتد النزاع إلى أعوام وسنوات، يسوده التأويل الفاسد والأمنيات الخاوية والله تعالى المستعان.

إن من رحمة الله بالخلق أن شرع لهم حلولا ناجعة لرفع أواصر الخلاف والمنازعات من بينهم، ومن تلك الحلول الأمر بالصلح بين المتنازعين لطلس عوامل الكره والبغضاء من القلوب، فقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين أفتتا لولا فاصلا بينهما فأن يفتتا على الأخرى ففتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ (١) ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ وقال تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجوتهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ وقال تعالى في حق الزوجين: ﴿وإن خفتن شقاق بينهما

فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ، وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿١﴾ وقال الرسول ﷺ : (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح⁽¹⁾، وللترمذي (لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) وقال ﷺ : (كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين (تصلح بينهما بالعدل) صدقة) رواه البخاري ومسلم.

فعلى كل مسلم أن يكون دائما مشاركا في هذه الحياة بنفع إخوانه، مسابقا في ميادين الإصلاح والعمل المثمر، مسارعا إلى ما يؤلف القلوب ويرفع عنهم البغضاء والشحناء، مثابرا على رفع مستوى أمته لتكون خير أمة أخرجت للناس، وبذلك يسمو بين الورى بحسن الثناء ويسعد في آخرته عند الله بالأعمال الصالحات، والله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، وصدق الشاعر حين قال:

لا تزهّد الدهر في عرف بدأت به*** كل امرئ سوف يجزى بالذي فعلا

إنّ الثناء ليحيي ذكر صاحبه*** كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا

وعلى المصلح أن يكون الإخلاص هو الدافع له على الصلح وجمع كلمة المسلمين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وأن يكون صلحه سائرا تحت لواء الشريعة الغراء فلا ضرر ولا ضرار، فلا ينفذ صلحا مخالفا للسنة أو قائما على دعائم الظلم والجور، لقوله ﷺ في حديث أم المؤمنين عائشة: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم، فصلح هذا وصفه يكون مردودا على صاحبه، لعدم صحته، وقد ردّ ﷺ الصلح الباطل في قصة العسيف حيث قال ﷺ : (أما

(1) يأتي تخريج أحاديث هذا الفصل في باب فضل الصلح في السنة المطهرة.

الوليذة والغنم) (التي اصطلحتم عليه) فرد عليك، وعلى ابنك جلد مائة
وتغريب عام) رواه البخاري ومسلم.

فيا أيها المسلم الحذق الذي وقع في مشكلة مع أخيه المسلم، أو مع
دولته، أو مع رجل ليس على ملته تمسك بالصّلاح العادل لما فيه من خيرٍ
كثيرٍ، ومن جمع للكلمة، وحقن للدماء، وإرجاع للحقوق، وإغاظة لأعداء
الله، ومن أعظم الأدلة على ذلك قصة صلح الحديبية الذي ظاهره النقص،
والضرر على المسلمين، وفي باطنه ما تجلّى من المنافع العظيمة التي
ظهرت لكل واحد بعد فترة قصيرة من الزمن، وأعظم ذلك فتح مكة، ويأتي
سرد أحاديث صلح الحديبية في باب خاص من هذا الجزء، ولما جاء في
قصة الزبير رضي الله عنه مع خصمه، حيث قال الرسول ﷺ: (اسق يا زبير
ثم أرسل الماء) إلى جارك) مريداً بذلك الصّلاح فلم يوافق الخصم، ويرض
بصلح رسول الله العادل، فقال ﷺ: (اسق) (يعني الزبير) ثم احبس الماء
حتى يبلغ الجدر) رواه البخاري، مستوعبا في ذلك حق الزبير في صريح
الحكم، فلو قبل الخصم صلح رسول الله ﷺ لكان له فيه خير عميم، من
استفاء الحق، وطهارة القلوب من الضغائن.

لقد أمر الله تعالى بالصّلاح ورغب فيه لما يحصل في الخصومات
والمشاهدات من الأضرار العظيمة؛ من سفك الدماء، وذهاب الحقوق،
وتجسم العداوات، ومن آثار الخصومات على الأمة تكدس الأحقاد في
القلوب؛ التي تدعو إلى الهموم، وتكون سببا لمضيعة الوقت على الأمة من
دون جدوى ولا فائدة غالبا، بل ضرر الخلاف والمنازعات على الأمة ظاهر
في اقتصادها وأمنها وسمعتها، ولا يكون للمسلم الخروج من نفق الأحقاد،
ودهاeliz المنازعات إلا بقبول الصّلاح، متسامحا عن بعض حقه ليرتاح من
عناء تحقيقه، وقد يضيع حقه كليا بسبب عدم خوف خصمه من الله،
وخصوصا في هذا الزمان وما فيه من زخرف القول الذي يجعل الباطل حقا

والحق باطلا مما يخالف قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فإن الطاقات التي هدرت في المنازعات، وأزهقت في الفتن، والأموال التي بددت في العالم الإسلامي للقضاء على بؤر الإحـن، ومواقع الخوارج، وفلول الإرهاب لم تؤت ثمارها في الغالب، لكثرة الشبه، وفشو الجهل بمنهج السلف في باب السياسة الشرعية، ولتمسك كل طرف بسرابه الذي يراه حقا ولا يجوز التنازل عنه، ولظهور الظلم في العالم من جانب الدول العظمى، وكان لهذه التوترات والصراعات في فيناء المسلمين جروح عميقة في قلب الأمة، من تشـتت لأبنائها، وضعف لاقتصادها، وذهاب لهيبتها، وظهور لأمراض أخرى لا تقل ضراوة عن صنعة الإرهاب، كالجريمة المنظمة من خطف الأبناء والنساء ثم نزع بعض أعضائهم كالكلى وبيعها للمستشفيات الخاصة، والمتاجرة بالأسلحة والمخدرات، وغيرها من الآفات المخزية، والتي صارت الشغل الشاغل لكثير من الدول، ولكن لو لجأت بعض الدول الإسلامية قبل استعمال القوة في محاربة التطرف وفكر الخوارج، والنزعات الطائفية إلى منطق الحوار، وصوت الحكمة والعلم قبل صوت المدافع، واستعملت وسائلها الصوتية والمرئية في تبديد شبـهات الخارجين عن الشرع والأعراف المحكمة، لو فرت على نفسها وقتا ثمينا وعدة متينة، ويكون ذلك بالاستعانة بالله تعالى ثم بعلماء الأمة الإسلامية الأكفاء، وطلبة العلم النجباء، وحكمائها الصادقين في علاج قضايا أمتهم، فإن الإرهاب الفكري لا يزول إلا بالوحي الذي جاء به النبي ﷺ.

فهذا الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمّا ابتلي بالخوارج، فقبل أن يخرج لقتالهم سعى في تبديد الشبهات التي تعلقوا بها، واستعان على ذلك بنخبة من العلماء على رأسهم حبر الأمة وفقيهها عبد الله

بن عباس رضي الله عنهما؛ فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده⁽¹⁾ بإسناد صحيح، من طريق يحيى بن سليم، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن عبيد الله بن عياض بن عمرو القاري، قال: جاء عبد الله بن شداد فدخل على عائشة رضي الله عنها ونحن عندها مَرَجَعَهُ من العراق ليالي قتل علي؛ فقالت له: يا عبد الله بن شداد هل أنت صادق عَمَّا أسألك عنه؟ تحدّثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليّ، قال: وما لي لا أصدقك، قالت: فحدثني عن قصّتهم. قال: فإنّ عليّاً لمّا كاتب معاوية وحكّم الحكماء، خرج عليه ثمانية آلاف من قرّاء الناس فنزلوا بأرض يقال لها: حروراء، من جانب الكوفة، وأنهم عتبوا عليه، فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله، واسم سمّاك به الله، ثم انطلقت فحكّمت في دين الله، فلا حكم إلّا لله، فلمّا أن بلغ عليّاً ما عتبوا عليه وفارقوه عليه، فأمر فأذن مؤذن: أن لا يدخل على أمير المؤمنين إلّا رجل قد حمل القرآن. فلمّا أن امتلأت الدار من قرّاء الناس، دعا بمصحف إمام عظيم، فوضعه بين يديه فجعل يصكّه بيده، ويقول: أيها المصحف، حدّث الناس! فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه إنّما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما رُوينا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ النساء: ٣٥، فأتمّه محمد ﷺ أعظم دمًا من امرأة ورجل، ونقموا عليّ أن كاتبْتُ معاوية: كتب عليّ بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قريشا، فكتب رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: (كيف نكتب)، فقال: اكتب باسمك اللهم، فقال

(1) (86/1)، انظر البداية والنهاية لابن كثير (10/565/ط/التركي).

رسول الله ﷺ : (فاكتب محمد رسول الله)، فقال: لو علمت أنك رسول الله لم أخالفك، فكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشا.

يقول تعالى في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فبعث إليهم عبد الله بن عباس ؓ فخرجت معه، حتى إذا توسطنا عسكرهم قام ابن الكواء يخطب الناس فقال: يا حملة القرآن، هذا عبد الله بن عباس، فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرفه، هذا ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه، هذا ممن نزل فيه وفي قومه ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، فردّوه إلى أصحابه ولا تواضعوه كتاب الله، فقال بعضهم: والله لنواضعه، فإن جاء بحق نعرفه لتبّعته، وإن جاء بباطل لنبكتنه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكواء، حتى أدخلهم على عليّ الكوفة، فبعث عليّ إلى بقيتهم فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ، بيننا وبينكم أن لا تُسفكوا دماً حراماً، أو تقطعوا سيلاً أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُخَافِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فقالت عائشة: يا ابن شداد فقتلهم؟ فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدماء واستحلوا أهل الذمة، فقالت: آله؟ قال آله الذي لا إله إلا هو لقد كان ذلك...).

وذكر ابن جرير في تاريخه^(١): (أنّ علياً خرج بنفسه إلى بقيتهم، فلم يزل يناظرهم حتى رجعوا معه إلى الكوفة).

مع أنّ حال الخوارج كما قال فيهم ابن كثير في البداية: (وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بني آدم فسبحان من نوع خلقه كما أراد، وسبق

(١) تاريخ الطبري (٩١/٥).

في قدره ذلك⁽¹⁾، فإنّ عليا رضي الله عنه لمّا قاتل بقيتهم كان يمشي بين قتلاهم ويقول: (بؤسا لكم، لقد ضرّكم من غرّكم، فقالوا: يا أمير المؤمنين ومن غرّهم؟ قال: الشيطان، وأنفسُ بالسوء أمارّة، غرّتهم بالأمانى، وزينت لهم المعاصي، ونبتأتهم أنّهم ظاهرون..).

وقد أخرج الطبري في تاريخه⁽²⁾ عن أبيّ بن عمارة العبسي أنّ الخوارج في أيام المغيرة بن شعبة الذي كان واليا على الكوفة زمن معاوية رضي الله عنه فزعوا إلى ثلاثة نفر؛ منهم المستورد بن عُلفة التيمي من تيم الرباب، وإلى حيان بن ظبيان السلمي⁽³⁾، وإلى معاذ بن جوين بن حصين الطائي).

(1) (10/580 ط/ التركي).

(2) (5/208).

(3) حيان بن ظبيان السلمي، بايع المستورد بن عُلفة على الخروج، فحبسه المغيرة بن شعبة، وبعد أن خرج من السجن قام سنة 58هـ بتمرد وخروج على السلطان بقيادة مجموعة من الخوارج فقتلوا جميعا.

موعظة واقتراح لمن يهمه الأمر: إنّ المحبوسين في سجون ديار الإسلام ممن تشرب من فكر الخوارج وصار ضالعا فيه، ويلهج بشبههم على الخلق، فيجب قبل إخلاء سراحه ليندمج في المجتمع على صورة مستقيمة ونافعة تخدم البلاد والعباد أن يُنظف فؤاده من منهج الخوارج والتكفيريين الجدد، حتى لا يعود إليه حين تسنح له الفرصة، ويكون العلاج بعرضه على نخبة من أهل العلم ممن علّم واستفيض عنهم المتانة في فهم منهج القوم، والقوة في جمع أدلة أهل السنة والجماعة في ردّ باطل الخوارج، وعلى قرارهم يكون الحكم، ولهذا أقترح أن تؤسس جهة علمية إصلاحية يترأسها رجال العلم والحكمة تنسق مع جميع الجهات الفاعلة في البلد؛ الأمنية والطبية والاجتماعية لتنظيف المجتمع من الأفكار المخالفة لديننا وقيمنا الاجتماعية كما هو الحال في المملكة العربية السعودية، وبهذه الطريقة السليمة نتمكن من حصر فكر دعاة التمرد والإرهاب، وأما أن يسبب المسجونون مع بقائهم على فكر الخوارج، فالتاريخ والواقع دلّ على أن صنفا منهم ما يلبث أن يعود إلى عهده القديم، ويسلك سبيل حيان بن ظبيان والله المستعان، وهو يعلم المصلح من المفسد.

قلت: وهؤلاء الخوارج يمثلون الامتداد الطبيعي لفكر خوارج النهروان الذين قاتلهم علي رضي الله عنه ، وأن معظمهم ممن عفا عنهم علي رضي الله عنه بعد أن تمكن منهم.

ولما أدرك المغيرة أمرهم لجأ إلى أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وخاصة الذين شاركوا في معركة النهروان من أمثال معقل بن قيس الرياحي الذي كان أحد قادة علي يوم النهروان، وقال له: (يا معقل بن قيس، إنني بعثت معك فرسان أهل مصر، أمرت بهم فانتخبوا انتخاباً، فسر إلى هذه العصاة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا علينا بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول في الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم⁽¹⁾).

(1) تاريخ الطبري (189/5).

وقد كانت للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه سياسةٌ حكيمة في التعامل مع الخوارج والفرق الضالة؛ يجب أن يُقَفَّ عليها بعض ولاة الأمور وأعوانهم في هذا الزمان -الذي كثرت فيه الوشايات بالباطل، والتقارير المزيفة، والتلفيق بين الحق والباطل بعبارات مزخرفة، وانتشرت فيه شبه التكفيريين، ومطاعن غلاة العلمانيين في أبناء الأمة الوطنيين؛ الذين يجهدون أنفسهم في كتابة التقارير المزيفة في حق طلاب العلم النجباء ممن عرفوا بسلامة المنهج ونقاوة الفكر، لتشويه سمعتهم تحت القاعدة المصرية علي وعلى أعدائي والله العاصم من شر أهل الضلال-، قلت: كانت للمغيرة سياسة مستقيمة في التعامل مع الفرق، وأفراد الرعية تظهر فيما يلي:

أولاً: كان مستقيم السيرة في الناس، لا يقبل كل قول يُنقل إليه في الأفراد والجماعات، لكثرة الكذب، والتناحر على المناصب، وانتشار الحسد بين الناس كما هو الحال في هذا الزمان، فقد قال أبي بن عمارة العبسي: (وأحسن في الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى ويقال له: إن فلانا يرى رأي الشيعة، وإن فلانا يرى رأي الخوارج، وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون).

=

= ولهذا يجب أن يزجر كل من يكتب تقريراً مزيفاً بغية الإضرار بالمسلمين، وتضليل العدالة، حتى ينتشر الصدق ويزول التدليس بين الناس.

ثانياً: استعانت به أهل العلم والخبرة في ردّ زحف الخوارج، ولهذا انتخب معقل بن قيس، وانتخب له رجالاً على دراية تامة بفكر الخوارج، يدعونهم إلى التوبة ولزوم جماعة المسلمين قبل أن يقاتلوهم.

ثالثاً: إذا رفض الخوارج الانصياع للحق، والعودة إلى الجادة، وترك المنازعة والمبارزة استحقوا السحق والمحق، حتى تنطفئ بدعتهم، ويرتاح الخلق من شرهم.

طرق سديدة في التعامل مع الخوارج وأشباههم من الإرهابيين؛ الثبت في التعامل مع المخالفين، والاستعانة بالأكفاء من أبناء الأمة في ردّ باطلهم وشبههم، والتوكل على الله في مقاتلة الخوارج والإرهابيين إن رفضوا العودة إلى الجماعة.

ولعلي أسهب في ذكر الطرق الشرعية في التعامل مع الأفكار الدخيلة على الإسلام في ضوء منهج أهل الحديث والأثر في كتابي: (الفرق والطوائف في منظور أهل الحديث والأثر، وسبل عصمة الأمة منها)، وفي كتابي هذا أسعى إلى بيان أخطاء بعض الكتّاب المعاصرين في تعاملهم مع الخلاف الكائن في الساحة، كالأستاذ خالد كبير علّال، وهو أستاذ بجامعة الجزائر في كتابه (الأزمة العقدية بين الأشاعرة وأهل الحديث)، فقد سلك هداه الله منهجاً غريباً في التعامل مع الخلاف القائم بين أهل الحديث والأثر، وبين الأشاعرة، ووظف عبارات وحشية كقوله (الأزمة)، التي من معانيها؛ الشدة، وضيق العيش، ولا يشفع له قصده الذي أعرب عنه في مقدمة كتابه (ص4)، بل عند التدقيق يدان به والله المستعان، ثم نصّب نفسه -هدانا الله وإياه إلى الحق- حكماً على منهج أهل الحديث الساطع بأسلوب أهل الحداثة الهزيل، والأنكى من ذلك أن يقوم طالب علم بإيراد كتاب خالد كبير ضمن المراجع التي تؤهل طالب العلم إلى معرفة الفرق، والله المستعان، وأشنع منه، بل لا وجه للمقارنة ما يسعى إليه ذاك المفكر الجزائري رائد التيار العلماني والحاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السربون سنة 1969 حول: (الإنسية العربية في القرن الرابع الهجري)، ومن مؤلفاته؛ (الفكر العربي)، و(الفكر الإسلامي نقد واجتهاد)، و(تاريخية الفكر العربي الإسلامي)، و(من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي)، الذي يسعى من خلال كتبه السابقة، ومحاضراته إلى فصل الدين عن الحياة بكافة جوانبها، وقد جنى كثيراً على منهج السلف، فهو يتهم منهج أهل الحديث بأنه منهج أسطوري لا تاريخي مغرق في التجريد والمثالية، وأنه وثوقي (دوغمائي) أي: جزمي يُسلم بالشيء =

ومن مآثر الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه فور توليه الخلافة كتب إلى قائد الخوارج - تلك الفرقة التي دوخت الخلفاء من قبله ومن بعده، ولم تنفع معها لغة السيف - ويقال له: بسطام، يقول له: ما أخرجك عليّ؟ فإن كنت خرجت غضباً لله فأنا أحق بذلك منك، ولست أولى بذلك مني، وبينني وبينك كتاب الله، فهل أناظرك، فإن رأيت حقاً اتبعته، وإن أبديت حقاً نظرنا فيه، فما كان من قائدهم بعد أن بغته الخليفة بتلك الحجة، وهو أمر لم يعتد عليه إلا أن أذعن لمقولته، وعقدت المناظرات بين أهل السنة والخوارج، ولذا لم تقم لهم قائمة في خلافته⁽¹⁾.

إنّ للخوارج شبهاً عديدة قديمة وحديثة، زادت بها الاضطرابات التي تشهد لها الكرة الأرضية رسوخاً في قلوب أصحابها، ولهذا إذا أردنا عزل أبنائنا عنها فيجب تكثيف الجهود لنقضها من أصولها، في ندوات علمية، ولقاءات مباشرة مع أبناء الوطن، وذلك باستغلال القنوات المرئية والمسموعة، واستضافة العلماء لنقض أباطيل القوم.

قال الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى بعد أن ذكر أن الله عزّ وجلّ سمّى الحجة العلمية سلطاناً: (والمقصود: أن الله سبحانه سمّى علم الحجة سلطاناً؛ لأنها توجب تسلّط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلية، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنّما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده، وتُذِلّ المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور تحت سلطانها، بل سلطان الجاه:

= دون تمحيص ولا بَيّنة، وهو تعبير مأخوذ من كلمة (*dogmatique*)، لأنه في نظره

القاصر يفرض موقفاً من دون تحليله فكرياً، وتبريره تاريخياً.

قلت: يأتي بيان حال هذا الرجل وغيره في كتابي السابق الذكر بعون الله تعالى وتوفقه،

والموفق من وفقه الله.

(1) انظر البداية والنهاية لابن كثير (196/9).

إن لم يكن معه عِلْمٌ يُسَاسُ به؛ فهو بمنزلة سلطان السباع والأُسود ونحوها، قدرة بلا عِلْمٍ ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنَّه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه؛ فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل، قاهرة له⁽¹⁾.

إنَّ الردَّ على شبه الخوارج والمتمردين بالعلم والقسطاس المستقيم من أعظم الجهاد في سبيل الله، والجهاد الذي يقوم به العلماء، وتلامذتهم النجباء في تحذير الأمة من الأفكار الهدامة، ونشر الفهم الصحيح للإسلام أشدَّ من ضرب السيوف في مفهوم الشرع وعقلاء الأمة.

وقال رحمه الله تعالى (وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله؛ لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدِّين بالعلم والجهاد).

ولهذا كان الجهاد نوعين: جهادٌ باليد والسنان، وهذا المشارِك فيه كثير. والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصَّة من أتباع الرُّسل، وهو جهاد الأئمَّة، وهو أفضل الجهادين، لعظم منفعته، وشدَّة مؤثِّته، وكثرة أعدائه، قال تعالى في سورة الفرقان [51-52] وهي مَكِّيَّة ﴿لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢.

فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإنَّ المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظَّاهر، وربَّما كانوا يقاتلون عدوَّهم معهم، ومع هذا فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۝٧٣﴾ التوبة: ٧٣، ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

(1) مفتاح دار السعادة (1/244-245 تحقيق: الحلبي).

والمقصود: أن سبيل الله هي الجهاد، وطلب العلم، ودعوة الخلق به إلى الله، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه: (عليكم بطلب العلم: فإن تعلمه الله خشية، ومدارسه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد).

ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الحديد: ٢٥ فذكر الكتاب والحديد، إذ بهما قوام الدين، كما قيل:

فما هو إلا الوحي أو حدُّ مُرْهَفٍ*** تُمِيلُ ظِبَاهُ أَخْدَعَنِي كُلَّ مَائِلِ

فهذا شفاء الداء من كل عاقل*** وهذا دواء الداء من كل جاهل

إلى أن قال: (فطلبُ العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل)⁽¹⁾

(1) مفتاح دار السعادة (1/271-272 تحقيق علي حسن الحلبي).

باب:

فضل الصُّلح في كتاب الله تعالى.

يحرص الإسلام الحنيف على تنمية العلاقات الطيبة بين المسلمين، واستثمارها في عمارة الأرض بالعدل والخير، ويجتهد في القضاء على الفرقة، ومنع الخصومات التي تقع بينهم، وإحلال المصالحة والوئام محل المباغضة والخصام، ولهذا تجده يقرن بين التقوى والإصلاح ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال: ١، وجعل الصُّلح أساس الخير.

إنَّ إصلاح ذات البين من قواعد الإسلام الرئيسة، ودعائمه المهمة في بناء المجتمع، والتأليف بين أفراد، وحمايته من العدو الخارجي، والنُّصوص في هذا الأمر أكثر من أن تحصر، أذكر منها ما يهيج المسلمين إلى الدعوة إلى الصُّلح العادل، للقضاء على بؤر الفتن ومنابع الشر.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ البقرة: ١٨٢، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الشورى: ٤٠.

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسير آية الشورى: (وذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها؛ لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكلّ جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، يجزيه أجرا عظيما وثوابا كثيرا، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدلّ ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق بالعفو عنه، وكانت

المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإن في هذه الحالة لا يكون مأمورا به، وفي جعل أجر العافي على الله مما يُهَيِّجُ على العفو، وأن يعامل العبدُ الخلق بما يحب أن يعامله الله به؛ فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليعفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله؛ فليسامحهم، فإنَّ الجزء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾: الذين ينجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته؛ فالزيادة ظلم اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٢٤، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ النساء: ١٢٨.

قال العلامة عبد الرحمن بن الناصر السعدي في تفسير آية النساء: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أنَّ الصلح بين مَنْ بينهما حقٌّ أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خيرٌ من استقصاء كلِّ منهما على كلِّ حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتصاف بصفة السَّماح، وهو جائزٌ في جميع الأشياء؛ إلا إذا أحلَّ حراما أو حرَّم حلالا، فإنه لا يكون صُلحا، وإنما يكون جورا، واعلم أنَّ كلَّ حُكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه؛ فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونَبَّه على أنه خير، والخير كلُّ عاقل يطلبه ويرغبُ فيه، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحثَّ عليه، ازداد المؤمن طلبا له ورغبة فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ النساء: ١٢٨؛ أي جبلت النفوس على الشُّحِّ، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به

ضدّه وهو السماحة، وهو بذل الحقّ الذي عليك، والاعتناع ببعض الحق الذي لك، فمتى وُفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل عليه حينئذ الصّلاح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهّلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشحّ من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصّلاح والموافقة⁽¹⁾، لأنّه لا يرضيه إلا جميع ما له، ولا يرضى أن يؤذي الذي عليه، فإن كان خصمه مثله اشتدّ الأمر اهـ.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال: ١.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم)⁽²⁾.

قال الشيخ السّعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال: ١ أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير بالتوادد والتحاب والتواصل، فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل بسبب التقاطع من التخاصم والتشاجر والتنازع، ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم، فإنّه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير.. اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ

(1) قلت: لقد عسر على بعض الجمعيات النسوية، والتنظيمات الحزبية تصور الصّلاح الذي دعا إليه حاكم البلاد وإخوانه المصلحون، وسعت في رده وتشويهه بالإشارات، والعبارات، والتصريحات الخاطئة، وأحيانا بالاعتصام في الطرقات، وذلك لامتلاء قلوبهم بالشحّ والفكر المادي، وحرصهم على الدنيا الفانية، ولجهلهم بمنفعة الصّلاح في الدنيا والآخرة.

(2) صحيح أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد باب: الإصلاح ذات البين (برقم 392) والبيهقي في شعب الإيمان (20/214 برقم 10573).

وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ الحجرات: ٩ - ١٠.

قال الإمام ابن كثير في تفسير آية الحجرات: (يقول تعالى أمرا بالإصلاح بين الفتنتين الباغيتين بعضهم على بعض: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فسامهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى؛ ويقول: (إن ابني هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)، فكان كما قال صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، والواقعات المهولة..).

وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسير الآية: (هذا متضمن لنهي المؤمنين عن أن يبغى بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضا، وأنه إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين؛ فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك).

وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمُ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة: ٢٢٠.

وقال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء: ١١٤.

قال البيهقي رحمه الله: (إذا مرجوا وفسدت ذات بينهم؛ إمّا لدم أريق فيهم، وإمّا لمال خطير أصيب لبعضهم، وإمّا لتنافس وقع بينهم أو غير ذلك من الأسباب التي تفسد الأخوة وتقطع المودة قال تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُوذِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾⁽¹⁾).

وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين، والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلِإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَتِنَا أَلَيْهَا تَبَغَّىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لابد أن يصلح الله سعيه وعمله، كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله ولا يتم له مقصوده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ اهـ).

وقال تعالى في سورة الأعراف [199]: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وقال تعالى في سورة الحجر [85]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ وقال تعالى في سورة الشورى [43]: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسير آية الشورى: (...﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها، وأكدها وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم وذووا الألباب والبصائر، فإن ترك الانتصار

(1) شعب الإيمان (20/213).

للنفس بالقول أو الفعل من أشقَّ شيءٍ عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرته ومقابلته بالإحسان أشق وأشقَّ، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره؛ تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق والتلذذ فيه⁽¹⁾.

وقال تعالى في سورة آل عمران [103]: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فالله أسأل أن يجمع كلمة المسلمين في الجزائر على البر والتقوى، وأن يعيذهم من شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، وأن يعصمهم من كيد أعدائهم، إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.

(1) قلت: لقد تحلَّى الشعب الجزائري الأبي بالصبر زمن المحنة وأيام الجمر، وتجرع مرارة صناع الإرهاب من غير أن يئن، وقسوة دعاة التغريب من غير أن يهين، وكابد الشر بما استطاع من سبل، لتبقى الجزائر شامخة الرأس؛ حرة طليقة من أيدي أهل الأهواء على اختلاف أشكالهم وألوانهم، ولما أعلن حاكم البلاد عن ميثاق الصلح والمصالحة ناصر مبدأ العفو والصفح في حق من يرغب فيه ويستحقه، وجعله شعارا له، فظهر معدنه الصافي وأنه شعب أبي يحب السلم والسكينة، ويكره الفتنة والضغينة، ويبحث عن العزة والكرامة في ظل حكم راشد وقادر، وأنه رهن إشارة من يسوقه إلى معالي الأمور، ليبنى حضارة تبقى شاهدة عبر الدهور والعصور على نقاوة سلاله هذا الشعب، وبإيجاز كان مدرسة لمن يريد أن يتعلم معنى سعة الصدر، وبعد الأفق، السداد للخروج من المحن.

باب:

فضل الصلح في سنة النبي المصطفى ﷺ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما، والمسلمون على شروطهم، إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراما)⁽¹⁾.

(1) إسناده حسن أخرجه أبو داود (برقم 3594 كتاب الأفضية باب: الصلح)، والدارقطني (27/3)، والحاكم (49/2) من طريق عبد الله بن وهب، وأخرجه ابن حبان (برقم 5091) من طريق مروان بن محمد الطاطري ؛ كلاهما: عن سليمان بن بلال، عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة به.

زادوا في أوله غير ابن حبان: (المسلمون على شروطهم)، وزاد ابن حبان وحده في آخره (إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا).

قال الذهبي: لم يصححه، وكثير ضعفه النسائي ومشاه غيره.

قلت: كثير بن زيد الأسلمي أبو محمد المدني ابن مافئه تنوعت فيه كلمة الحفاظ، والأقرب أنه صدوق حسن الحديث كما قال ابن عدي رحمه الله: ولم أرى به بأسا، وأرجو أنه لا بأس به.

والوليد بن رباح المدني صدوق، وباقي رجال الحديث ثقات.

وأخرجه الإمام أحمد (366/2)، والبيهقي (107/6 برقم 11350) من طريق منصور بن سلمة أبو سلمة الخزاعي، قال: أخبرنا سليمان بن بلال به.

وأخرجه أبو داود (برقم 3594) ومن طريقه البيهقي (197/7 برقم 11351) من طريق مروان بن محمد، ثنا سليمان بن بلال، أو عبد العزيز بن محمد، قال أبو داود: شك الشيخ [وهو أحمد بن عبد الواحد الدمشقي]، عن كثير بن زيد به، وزاد فيه: (إلا صلحا...).

وأخرجه ابن الجارود (برقم 638) من طريق سفيان بن حمزة، وأخرجه ابن عدي في الكامل (2088/6)، والدارقطني (27/3)، والبيهقي (105/6 برقم 11344) من طريق عبد العزيز بن أبي حازم، وأخرجه الحاكم (101/4) من طريق عبد العزيز بن محمد؛ ثلاثتهم عن كثير بن زيد، عن الوليد بن رباح، عن أبي هريرة به.

قال الذهبي: ذا منكر.

=

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ سُلَامِي
مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ
صَدَقَةٌ...) (1).

قال المنذري: (يعدل بين الاثنيين)، أي: يصلح بينهما بالعدل.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ
بَأَفْضَلِ مَنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟) قالوا: بلى، قال ﷺ: (إِصْلَاحُ ذَاتِ
الْبَيْنِ، فَإِنْ فَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ) (2).

= وأخرجه الدارقطني (27/3)، والحاكم (50/2) من طريق عبد الله بن الحسين المصيصي، عن
عفان، عن حماد بن زيد، عن ثابت، عن أبي رافع، عن أبي هريرة.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وهو معروف بعبد الله بن الحسين المصيصي، وهو ثقة.
تعقبه الذهبي بقوله: قلت: قال ابن حبان يسرق الحديث.
قلت: وعبارة ابن حبان في المجروحين (46/2) ولفظها: يقلب الأخبار، ويسرقها، لا يجوز
الاحتجاج به إذا انفرد.

وشهد له حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده.
أخرجه ابن ماجه (برقم 2353)، والترمذي (1352)، والطبراني في الكبير (30/17)، والدارقطني
(27/3)، والحاكم (101/4)، والبيهقي (107/6) برقم 11352.
وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: كثير بن عبد الله ركن من أركان الكذب كما قال الإمام الشافعي وأبو داود، ولهذا تعقب
الذهبي الترمذي في تصحيحه في الميزان (406/3 الترجمة 6943) فقال: وأما الترمذي فروى
من حديثه: الصلح جائز بين المسلمين، وصححه، فلهذا لا يعتمد العلماء على تصحيح الترمذي.
وقال ابن كثير في إرشاده: وقد نوقش أبو عيسى في تصحيحه هذا الحديث وما شاكه.
قلت: لعل الإمام الترمذي صحح الحديث باعتبار طريقه والله أعلم.

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم 2707 باب: فضل الصلح بين الناس والعدل بينهم)، ومسلم (برقم
1009) من طريق معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة.

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (برقم 391)، وفي التاريخ الكبير (56/1/1) وأبو داود
(برقم 4919)، والترمذي (برقم 2509)، والإمام أحمد (445/6)، وابن حبان (5092)،
والطبراني في مكارم الأخلاق (برقم 75)، والبيهقي في الآداب (برقم 120)، وفي شعب

= الإيمان (220/20 برقم 10578)، والبغوي في شرح السنة (برقم 3538) من طرق
عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مَرْة، عن سالم، عن أبي الجعد، عن أمّ
الدرداء، عن أبي الدرداء به.

وهذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين، وعمرو بن مَرْة: هو ابن عبد الله بن
طارق الجملي.

وقد اختلف فيه على الأعمش:

فرواه محمد بن فضيل بن غزوان عن الأعمش، عن سالم، عن أبي الدرداء موقوفا. ولم
يذكر عمرو بن مرة وأم الدرداء.

قال البيهقي في الشعب (220/20): خالفه محمد بن فضيل، فرواه عن الأعمش، عن
سالم، عن أبي الدرداء قوله.

قلت: وأبو معاوية محمد بن خازم الضرير الكوفي من أثبت الناس في الأعمش، انظر
شرح علل الترمذي لابن رجب (715/2 ط: مكتبة الرشد).

ورواه أبو إدريس الخولاني، واختلف عليه فيه:

فرواه الزهري فيما أخرجه البيهقي في الشعب (220/20 برقم 10579)، والبخاري في
التاريخ الكبير (63/1)، ومكحول فيما ذكره البيهقي في الشعب (221/20)، والبخاري في
التاريخ الكبير (63/1)؛ كلاهما عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء موقوفا.

ورواه يونس بن ميسرة بن حلبس، عن أبي إدريس الخولاني؛ واختلف عليه فيه:

فرواه أبو المعلى صخر بن جندل البيروتي، كما عند ابن المبارك في الزهد (580/1)
برقم 690 ط/ أحمد فريد، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس الخولاني قال: سمعت
أبا الدرداء يحلف وأيم الله ما سمعته يحلف قبلها: (ما عمل آدمي عملا خيرا من مشي
إلى صلاة، ومن خلق جائز، ومن صلاح ذات البين).

ورواه محمد بن الحجاج القرشي الدمشقي، كما أخرج البيهقي في الشعب (برقم
10580)، والبخاري في التاريخ الكبير (63/1 برقم 139)، عن يونس بن ميسرة، عن أبي
إدريس، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (ما عمل ابن آدم...).

قال ابن أبي الحاتم في الجرح والتعديل (235/7 برقم 1281): (روى عنه إسماعيل ابن
عياش، وبقيّة، وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، والهيثم بن خارجة، سمعت أبي يقول
ذلك، وسألته عنه فقال: شيخ).

قال الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (برقم 1448): (إسناده حسن إن شاء الله تعالى).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :
(أفضل الصدقة إصلاح ذات البين)⁽¹⁾.

وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها؛ أن النبي ﷺ قال: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرا، أو يقول خيرا)⁽²⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (ما عمل شيء أفضل من الصلاة، وإصلاح ذات البين، وخلق جائر بين المسلمين)⁽³⁾.

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (برقم 10581)، والبخاري في التاريخ الكبير (3/295 برقم 1007)، والبزار في مسنده (2/441 كشف الأستار)، من طريق عبد الرحمن بن زياد، عن راشد بن عبد الله المعافري، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو به. قلت: عبد الرحمن بن زياد هو ابن أنعم الإفريقي ضعيف. وراشد بن عبد الله المعافري أبو يحيى المصري، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: يعتبر بحديثه من غير حديث الإفريقي.

قال المناوي في فيض القدير (2/39): قال العراقي: فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وهو ضعيف. وقال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني والبزار، وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وحديثه هذا حسن لحديث أبي الدرداء المتقدم.

قلت: قد ضعفه العلامة محمد ناصر الدين الألباني في ضعيف الجامع (برقم 1012)، وأحال رحمه الله على الضعيفة (برقم 2839) ولم أعثر عليه في الإحالة المشار إليها، ثم رأيت الشيخ رحمه الله صحح الحديث لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (3/71 برقم 2817 ط: مكتبة المعارف). ثم والله الحمد والمنة قد عثرت على الحديث في الصحيحة (برقم 2639)، وهناك تكلم الشيخ عن الحديث بشيء من التوسع فراجع.

(2) أخرج الإمام البخاري (برقم 2692 باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس)، ومسلم (برقم 2605) من طريق ابن شهاب، أن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة به. قال ابن شهاب كما عند مسلم: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها).

(3) حسن إسناده العلامة الألباني في الصحيحة (برقم 1448)، وقد مرّ تخريج الحديث.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ : (ألا أدلك على صدقة يحب الله موضعها؟) (تصلح بين الناس؛ فإنها صدقة يحب الله موضعها)⁽¹⁾.

(1) قال الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (برقم 2644): (أخرجه الأصبهاني في الترغيب (ص 50)، من طريق أبي أمية: نا كثير ابن هشام عن أبي (كذا) المسعودي عن أبي جناب عن رجل عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه مرفوعا.

2- ثم رواه من طريق ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن عثمان العجلي: نا خالد بن مخلد، عن عبد الله بن عمر، عن عمر مولى غفرة، عن أبي أيوب الأنصاري به نحوه.

3- ومن طريقه أيضا: نا إسحاق بن إسماعيل، نا جرير عن يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ : فذكره مرسلًا) انتهى كلام الشيخ رحمه الله.

قلت: قد أعلّ الشيخ الطريقتين الأولين وقال عن الثالث: (رجالهم ثقات رجال مسلم؛ غير إسحاق بن إسماعيل وهو الطالقاني وهو ثقة، فهو إسناد صحيح، ولكنه مرسل). ثم قال الشيخ الألباني: (وله طريق رابعة، أخرجه الطبراني في الكبير (1/196) من طريق موسى بن عبيدة عن عباد بن عمير بن عباد بن عوف قال: قال لي أبو أيوب: قال لي رسول الله ﷺ فذكره بلفظ ((يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا)، والباقي مثله.

وإسناده ضعيف أيضا؛ عباد بن عمير لم أجد من ترجم له، وموسى بن عبيد ضعيف، إلا أن الحديث عندي يرتقي إلى مرتبة الحسن على الأقل، بمجموع هذه الطرق، لا سيما وفيها ذلك المرسل الصحيح، والله أعلم) اهـ.

قلت: وقد أخرج الحديث البيهقي في الشعب (20/223 برقم 10582) من طريق علي بن ثابت الجزري، عن الوازع، عن أبي سلمة، عن أبي أيوب قال: قال لي رسول الله ﷺ : (يا أبا أيوب ألا أخبرك بما يعظم الله به الأجر ويمحو به الذنوب؟ تمشي في إصلاح الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا، فإنها صدقة يحب الله موضعها).

قال البيهقي: تفرد به الوازع عن أبي سلمة، وروى من وجه آخر عن أبي أيوب.

قلت: يأتي ذكره فيما بعد.

قلت: الوازع بن نافع العقيلي الجزري قال فيه البخاري منكر الحديث، وقال النسائي متروك الحديث، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال الإمام أحمد: ليس حديثه بشيء. =

وعن السائب بن مهبان من أهل الشام من أهل إيلياء، وكان قد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ: لما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام حمد الله وأثنى عليه، ووعظ وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قام فينا خطيباً كقيامي فيكم، فأمر بتقوى الله، وصلة الرحم، وصلاح ذات البين، وقال: (عليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان مع الواحد، وهو من الإثنين أبعد...) (1).

وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا رسول الله! إن قومًا نتساءل أموالنا، قال ﷺ: (يتساءل الرجل في الجائحة، أو الفتق ليصلح به بين قومه، فإذا بلغ أو كُرب استعف) (2).

قال أبو عبيد: الفتق؛ الحرب تكون بين الفريقين، فتقع بينهما الدماء والجراحات، فيتحملها رجل ليصلح بذلك، فيسأل فيها حتى يؤديها إليهم.

= ورواه البيهقي في الشعب (برقم 10583)، والطياشي في مسنده (برقم 598) من طريق

أبي صالح الشامي، عن عبد العزيز الشامي، عن أبيه، عن أبي أيوب أن النبي ﷺ به.

قال الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (300/6 القسم الأول): (وهذا إسناد مظلم، من دون أبي أيوب لم أعرف أحدا منهم).

قلت: وللحديث شاهد من حديث أنس بن مالك أخرجه البزار (441/2 برقم 2060)، ومن حديث أبي أمامة عند الطبراني (برقم 7999) وفي إسنادهما ضعف.

قلت: وقد أورد الشيخ الألباني الحديث في صحيح الترغيب والترهيب (71/3) حاكما عليه بالصحة، والله تعالى أعلم.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب (برقم 10574) وإسناده لا بأس به إن شاء الله.

(2) إسناده حسن: أخرجه الإمام أحمد (33-35/5)، والبيهقي في الكبرى (34/7) برقم

13195، وفي الشعب (برقم 10575-10576) وأبو عبيد في الأموال (برقم 563)،

والبغوي في شرح السنة (برقم 1628)، وعبد الرزاق في المصنف (برقم 20018)، وابن

زنجويه في الأموال (برقم 819)، والطبراني في الكبير (19 برقم 965)، وابن عدي في

الكامل (716/2) من طرق عن بهز بن حكيم به.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله عند حديثه عن الفتن وما يتولد عنها من قتل، ووجوب السعي في الإصلاح بين الطائفتين المتنازعتين بالعدل الذي أمر الله به، وأنه إن ثبت على إحدى الطائفتين أنها اعتدت على الأخرى بإتلاف شيء من الأنفس، والأموال، كان عليها ضمان ما أتلفتته، ثم قال: (وإن تعذر أن تضمن واحدة للأخرى⁽¹⁾)، فيجوز أن يتحمل الرجل حمالة يؤديها لصالح ذات البين، وله أن يأخذها بعد ذلك من زكاة المسلمين، ويسأل الناس في إعانتته على هذه الحالة وإن كان غنيا، قال النبي ﷺ لقبیصة بن مخارق الهلالي: (يا قبیصة إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فيسأل حتى يجد سدادا من عيش، ثم يمسك، ورجل أصابته فاقة، فإنه يقوم ثلاثة من ذوي الحجي من قومه، فيقولون: قد أصابت فلانا فاقة، فيسأل حتى يجد قواما من عيش ثم يمسك، ورجل يحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته، ثم يمسك)، والواجب على كل مسلم قادر أن يسعى في الإصلاح بينهم، ويأمرهم بما أمر الله به مهما أمكن⁽²⁾.

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية وجعل الجنة مثواه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: (تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا

(1) قلت: كما هو الحال في قضية الجزائر، فإن الأمور اشتبكت، والدماء امتزجت، ولا يمكن أن يحتمل طرف عبء كل ما حدث لأهل الجزائر دون طرف، ولهذا اللجوء إلى الصلح والفداء أقرب مسلك لحل قضية الجزائر، وقد قلت فيما سبق: إن الشعب الجزائري الأبي ابتلي بفريقين عاتيين؛ فريق استتصالي باسم الدين والعدالة واسترجاع الحقوق الضائعة والقضاء على الكفر كما صوّر له مُنظِّروه، وفريق إقصائي باسم الوطنية، والدفاع عن الثوابت المكتسبة، وحماية الجزائر من الأصولية على منظورهم الهلامي، وشاء الله العليم أن التقى الفريقان في ساحة الوغى فسحقا بأرجلهما أبرياء مساكين، بعضهم منذ أن خرجت فرنسا المحتلة من أرض الوطن إلى ساعة محقه يعيش في بيت من طين، يضئ به فانوس من سائل الغاز!

(2) مجموع الفتاوى (80/35-81).

رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا،
أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا⁽¹⁾.

(1) أخرجه الإمام مسلم (برقم 2565).

باب:

صُور من صَلَح النبي ﷺ .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (7/162 كتاب الصلح طبعة حاكم دبي محمد بن راشد): (والصلح أقسام: صلح المسلم مع الكافر، والصلح بين الزوجين، والصلح بين الفئة الباغية والعادلة، والصلح بين المتغاضبين كالزوجين، والصلح في الجراح كالعفو على المال، والصلح لقطع الخصومة إذا وقعت المزاخمة إما في الأملاك أو المشتركات كالشوارع..).

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: (أن أناساً من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يُصلح بينهم)⁽¹⁾.

وفي رواية عند البخاري (برقم 2693): (أن أهل قُباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: اذهبوا بنا نصلح بينهم).

وعن عبد الله بن كعب؛ أن كعب بن مالك ﷺ أخبره أنه تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج رسول الله ﷺ إليهما حتى كشف سِجف حُجرته فنادى كعب بن مالك ﷺ فقال: (يا كعب) فقال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشَّطر، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله، فقال رسول الله: قُمْ فاقضه)⁽²⁾.

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم 2690 باب: ما جاء في الإصلاح بين الناس)، ومسلم (برقم 421).

(2) أخرجه البخاري (برقم 2705-2710)، ومسلم (برقم 1558).

بَوَّبَ لَهُ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ، [هَلْ يَشِيرُ الْإِمَامُ بِالصَّلَحِ] وَفِي مَوْطِنٍ آخَرَ،
بِ[الصَّلَحِ بِالْدِّينِ وَالْعَيْنِ].

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ يَخْتَصِمَانِ إِلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فِي مَوَارِيثَ بَيْنَهُمَا قَدْ دَرَسَتْ، لَيْسَ بَيْنَهُمَا بَيِّنَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
(إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ، -أَوْ قَالَ:
لِحُجَّتِهِ- مِنْ بَعْضٍ، فَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ
مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْطِطَامًا
فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لِأَخِي،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَمَّا إِذَا قُلْتُمَا، فَادْهَبَا فَاقْتَسِمَا، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ، ثُمَّ
اسْتَهِمَا، ثُمَّ لِيُحْلَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ) ⁽¹⁾.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: تَوَفَّى أَبِي وَعَلَيْهِ دِينَ،
فَعَرَضْتُ عَلَى غَرَمَائِهِ أَنْ يَأْخُذُوا التَّمْرَ بِمَا عَلَيْهِ فَأَبَوْا، وَلَمْ يَرَوْا أَنْ فِيهِ وَفَاءً،
فَأْتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: (إِذَا جَدَّدْتَهُ فَوَضَعْتَهُ فِي الْمَرِيدِ آذَنْتَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَدَعَا بِالْبَرَكَةِ ثُمَّ قَالَ:
(ادْعُ غَرَمَاءَكَ فَأَوْفِهِمْ) فَمَا تَرَكْتُ أَحَدًا لَهُ عَلَى أَبِي دِينَ إِلَّا قَضَيْتُهُ، وَفَضَلَ
ثَلَاثَةَ عَشْرَ وَسَقًا: سَبْعَةَ عَجُوزٍ، وَسِتَّةَ لُؤْنٍ، أَوْ سِتَّةَ عَجُوزٍ، وَسَبْعَةَ لُؤْنٍ، فَوَافَيْتُ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَغْرِبَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَضَحِكَ فَقَالَ: (أَنْتَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ
فَأَخْبِرْهُمَا)، فَقَالَا: لَقَدْ عَلِمْنَا إِذَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَنْعًا أَنْ سَيَكُونُ ذَلِكَ) ⁽²⁾.

(1) إسناده حسن من أجل أسامة بن زيد، أخرجه أبو داود في سننه (برقم 3584-3585)،
والإمام أحمد (320/6)، وابن أبي شيبة (233/7-234)، وابن الجارود (برقم 1000)،
وأبو يعلى (برقم 6897-7027)، والطحاوي في شرح المعاني (4/154)، والبيهقي في
السنن (66/6)، (260/10) والطبراني في الكبير (23 برقم 663)، والدارقطني (4/238)،
والحاكم (95/4) من طرق عن أسامة بن زيد، عن عبد الله بن رافع به.
(2) وأخرج الإمام البخاري في صحيحه (برقم 2709).

وعن حميد أن أنسا حدّثهم: أنّ الرُّبِيعَ، وهي ابنةُ النَّضر كسرت ثِيَّةَ جارية، فطلبوا الأرش وطلبوا العفو فأبوا، فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن مالك: أتكسر ثنية الرُّبِيع يا رسول الله؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيته، فقال: (يا أنس؛ كتاب الله القصاص)، فرضي القوم وعفوا، فقال النبي ﷺ: (إنّ من عباد الله، من لو أقسم على الله لأبره) ⁽¹⁾.

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه ⁽²⁾ قال: حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني عروة بن الزبير أنّ الزبير رضي الله عنه كان يحدث: أنّه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا إلى رسول الله ﷺ في شِراج الحرة، كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: (اسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك) فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله؛ أن كان ابن عمّتك؟ فتلّون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: (اسق، ثم احبس حتّى يبلغ الجدر) فاستوعى رسول الله ﷺ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له وللأنصاري، فلمّا أحفظ الأنصاري رسول الله ﷺ، استوعى للزبير حقه في صريح العبارة، قال عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلّا في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء 65].

قال ابن قيّم الجوزية رحمه الله في الإعلام (200/2 طبعة مشهور): (وقال عطاء، عن ابن عباس: إنّّه كان لا يرى بأسا بالمخامرة، يعني: الصِّلح على الميراث، ووصلحت امرأة عبد الرحمن بن عوف من نصيبها من ربع الثمن على ثمانين ألفا، وقد روى مسعر عن أزهري عن محارب قال: قال عمر: (ردّوا الخصوم حتّى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يحدث بين القوم

(1) أخرج الإمام البخاري (برقم 2703 باب: الصِّلح في الدِّيّة)، ومسلم (برقم 1675).

(2) (برقم: 2708، كتاب الصِّلح، باب: إذا أشار الإمام بالصِّلح فأبى). يراجع كلام الحافظ عن إسناد الحديث في (كتاب الشرب والمساقاة، باب: سكر الأنهار برقم 2360).

الضَّغائن)، وقال عمر أيضا: (ردّوا الخصوم لعلهم أن يصطلحوا، فإنه أثر للصدق، وأقل للخيانة) وقال عمر أيضا: (ردّوا الخصوم إذا كانت بينهم قرابة، فإن فصل الخطاب يورث بينهم الشَّتان).

باب :

حِرْصُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى الصَّلَاحِ.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه (برقم 6073) قال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، قال: حدثني عوف بن مالك بن الطفيل، وهو ابن الحارث، وهو ابن أخي عائشة زوج النبي ﷺ لأمها: أَنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَدَّثَتْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّيْبِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فِي بَيْعٍ، أَوْ عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَاللَّهِ لَتَنْتَهَيْنَ عَائِشَةُ أَوْ لَأَحْجُرَنَّ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: أَهْوَا قَالَ هَذَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَتْ: هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ، أَنْ لَا أَكَلِّمَ ابْنَ الزَّيْبِرِ أَبَدًا. فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزَّيْبِرِ إِلَيْهَا، حِينَ طَالَتِ الْهَجْرَةُ، فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ لَا أَشْفَعُ فِيهِ أَبَدًا، وَلَا أَتَحَنُّ إِلَى نَذْرِي، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى ابْنِ الزَّيْبِرِ، كَلَّمَ الْمَسُورَ بْنَ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثٍ، وَهُمَا مِنْ بَنِي زَهْرَةَ، وَقَالَ لَهُمَا: أَنْشِدْكُمَا بِاللَّهِ لَمَّا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ، فَإِنَّهَا لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي، فَأَقْبَلَ بِهِ الْمَسُورُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُشْتَمِلِينَ بِأَرْدِيَّتَهُمَا، حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ أَنْدَخِلْ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ادْخُلُوا، قَالُوا: كُلُّنَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، ادْخُلُوا كُلُّكُمْ، وَلَا تَعْلَمَنَّ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزَّيْبِرِ، فَلَمَّا دَخَلُوا، دَخَلَ ابْنُ الزَّيْبِرِ الْحِجَابَ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ، وَطَفِقَ يَنَاشِدُهَا وَيَبْكِي، وَطَفِقَ الْمَسُورُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ يَنَاشِدَانِهَا إِلَّا كَلِمَتَهُ، وَقَبِلَتْ مِنْهُ، وَيَقُولَانِ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا عَلِمْتَ مِنَ الْهَجْرَةِ، فَإِنَّهُ: (لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ) فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِيرِ وَالتَّحْرِيجِ، طَفَقَتْ تَذْكُرُهُمَا وَتَبْكِي وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ، وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلَّمْتُ ابْنَ الزَّيْبِرِ، وَأَعْتَقْتُ فِي نَذْرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا).

باب:

صُلح الحديبية وما نجم عنه من فتح وخير، وما حوى من فوائد جليلة.

روى الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (برقم 2731-2732)⁽¹⁾ قال: حدّثني عبد الله بن محمد: حدثنا عبد الرزاق: أخبرنا الزّهري قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن مسور بن مخرمة ومروان، يصدق كلّ واحد منهما حديث صاحبه، قالوا: خرج رسول الله ﷺ [من المدينة] زمن الحديبية، [في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما كان بذي الحُلَيْفَةِ قَلَد الهدي، وأشعره وأحرم منها]، [بعمره، وبعث عينا له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط⁽²⁾، أتاه عينه، قال: إن قريشا جمعوا لك جموعا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت ومانعوك، فقال: (أشيروا أيها الناس عليّ⁽³⁾)، أترون أن أميل إلى عيالهم وذرائي هؤلاء الذين يريدون أن يصدّونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله قد قطع عينا من المشركين، وإلا تركناهم مَخْرُوبِينَ⁽⁴⁾.

(1) انظر لزاما مختصر صحيح البخاري (229/2 ط: مكتبة المعارف) للعلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله.

(2) موضع قريب من عسفان كما في رواية الإمام أحمد (328/4)، والأحابيش جمع من النَّاس ليسوا من قبيلة واحدة.

(3) فيه استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه، استخراجا لوجه الرأي، واستطابة لنفوسهم، وأمنّا لعبتهم، وتعرفا لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض، وامتنالا لأمر الربّ تعالى ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وقد مدح سبحانه وتعالى عباده بقوله ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾. قاله ابن قيم الجوزية في الزاد.

(4) أي مسلّوبين منهوبين، ولفظ الإمام أحمد: (تكن عنقا قطعها الله)، قال الحافظ رحمه الله: (والمراد أنه ﷺ استشار أصحابه هل يخالف الذين نصرّوا قريشا إلى مواضعهم، فيسبي=

قال أبو بكر: يا رسول الله! خرجتَ عامدا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحدٍ، فتوجّه له، فمن صدنا عنه قاتلناه.

قال: (امضوا على اسم الله)، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: (إنَّ خالدَ بنَ وليدٍ بالغَميمِ، في خيلٍ لقريشٍ طليعةٌ، فخذوا ذاتَ اليمينِ)، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيرا لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يُهبطُ عليهم منها، بَرَكَتْ به راحلته، فقال النَّاسُ: حلَّ حلٌّ، فألَحَّتْ، فقالوا خلأتِ القُصواءُ، خلأتِ القُصواءُ، فقال النبي ﷺ: (ما خلأتِ القُصواءُ، وما ذاكَ لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسَهَا حَابِسُ الفيل⁽¹⁾)، ثم قال: (والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يعظمون فيها حرَمَاتِ الله إلا أعطيتُهم إِيَّاهَا⁽²⁾). ثم زجرها فوثبت، قال:

= أهلكم، فإن جاؤوا إلى نصرهم اشتغلوا بهم، وانفرد هو وأصحابه بقريش، وذلك المراد بقوله: (تكن عنقا قطعها الله)، فأشار عليه أبو بكر بترك القتال).

(1) أي حبسها الله عزَّ وجلَّ عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها، ومناسبة ذكرها أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة وصدّتهم قريش عن ذلك، لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، كما لو قدر دخول الفيل وأصحابه مكة، لكن سبق في علم الله تعالى في الموضعين أنه سيدخل في الإسلام خلق منهم، وسيخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون، وكان بمكة في الحديبية جمع كثير مؤمنون من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فلو طرق الصحابة مكة لما أمِن أن يصاب ناس منهم بغير عمد، كما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال الخطابي: (معنى تعظيم حرَمَاتِ الله في هذه القصة؛ ترك القتال في الحرم، والجنوح إلى المسالمة والكف عن إراقة الدماء) نقله الحافظ.

(2) إنَّ المشركين، وأهل البدع والفجور، والبغاة الظلمة، إذا طلبوا أمرا يُعْظَمون فيه حرمةً من حرَمَاتِ الله تعالى، أجيئوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرَمَاتِ الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكلٌّ من التمس المعاونة على محبوب الله تعالى مُرضٍ له، أوجب إلى ذلك كائنا من كان، ما لم =

فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحَدِيثِ عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يَلْبَثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحَوْهُ.

وَشَكَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَطَشَ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرَّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيِّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خَزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةً⁽¹⁾ نَصَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةٍ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَمَعَهُمُ الْعَوْدُ الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكُ وَصَادُّوكُ عَنِ الْبَيْتِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنْ قَرِيشًا قَدْ نَهَكَتْهُمْ الْحَرْبُ، وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ⁽²⁾)، فَإِنْ شَاءُوا مَا دَذَنْتُهُمْ مَدَّةً وَيُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ⁽³⁾)، فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ

= يَتَرْتَّبُ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ مَبْغُوضُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَصْعَبِهَا، وَأَشَقَّهَا عَلَى النَّفْسِ... قَالَ ابْنُ قَيْمٍ الْجُوزِيَّةِ.

قُلْتُ: وَمَوَازِرَتِي لِلصَّلَاحِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ حَاكِمُ الْبِلَادِ هُوَ تَعْظِيمُ لِحَرَمَةِ مَنْ حَرَّمَاتِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ لِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَمْعُ لِكَلِمَتِهِمْ.

(1) أَيِ مَوْضِعٍ سَرَّهَ وَأَمَاتَهُ، قَالَ الزَّهْرِيُّ: وَكَانَتْ خَزَاعَةُ عَيْبَةً نَصَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ مُسْلِمُهَا وَمَشْرُكُهَا، لَا يَخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِمَكَّةَ.

وَالْعَوْدُ: جَمْعُ عَائِذٍ، أَيِ: النَّوْقِ الْحَدِيثَاتِ النَّتَاجِ ذَاتِ اللَّبَنِ، وَالْمَطَافِيلُ: الْأَمْهَاتُ الَّتِي مَعَهَا أَطْفَالُهَا.

(2) كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْرُصُ عَلَى الْإِسْتِبْقَاءِ عَلَى حَيَاةِ قَرِيشٍ، آمَلًا فِي إِسْلَامِهِمْ، وَإِفَادَةِ الدَّعْوَةِ مِنْهُمْ، فَالنَّاسُ مُعَادِنٌ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا، وَقَرِيشٌ مِنْ أَكْثَرِ الْعَرَبِ فَصَاحَةٌ وَذَكَاءٌ وَخَبْرَةٌ وَمَكَانَةٌ، وَاسْتِبْقَاؤُهَا لِلْإِسْلَامِ فِيهِ خَيْرٌ عَظِيمٌ لِلدَّوْلَةِ وَالدَّعْوَةِ، قَارَنَ هَذَا مَعَ صَنِيعِ الْفِرْقِ الضَّالَّةِ الَّتِي تَأْتِي إِلَى مَعْقَلِ الْإِسْلَامِ وَمِهْدِ الْوَحْيِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَتَسْعَى فِي بَثِّ الْفِتْنَةِ وَزَرْعِ الْخَرَابِ وَالْإِغْوَاءِ لِأَعْدَاءِ الدِّينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

(3) فِيهِ جَوَازُ ابْتِدَاءِ الْإِمَامِ بِطَلَبِ صَلَاحِ الْعَدُوِّ إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ ابْتِدَاءُ الطَّلَبِ مِنْهُمْ

فعلوا، وإلا فقد جُمُوا⁽¹⁾، وإنهم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره).

فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

قال: فانطلق حتى أتى قريشا، قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم⁽²⁾: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ. فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: أستم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ، فلمّا بلّحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ هذا قد عرض لكم خطة رشيد، اقبلوها ودعوني آتية، قالوا: آتته.

فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: نحوا من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمّد، رأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك⁽³⁾، وإن تكن الأخرى، فإنّي والله لا أرى وجوهاً، وإنّي لأرى أشوابا⁽⁴⁾ من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال له

(1) أي استراحوا من جهد القتال، وجاء في رواية أخرى: (وإن ظهر الناس عليّ، فذلك الذي يبعون)، وقوله ﷺ: (حتى تنفرد سالفتي) أي: حتى تنفصل رقبتني عن بدني.

(2) وهما عكرمة بن أبي جهل، والحكم بن أبي العاص، وما أكثر أمثالهما في هذا الزمان، وهذا الصنف لا يصلح أن يدير مشروع صلح بين الخلق.

(3) اجتاح: أهلك أصله بالكلية، وما يفعله دعاة الدمار من تفجيرات جماعية لإهلاك أصلهم بالكلية مردود حتى عند العرب في الجاهلية.

(4) بتقديم المعجمة على الواو كذا للأكثر، ووقع لأبي ذر عن الكشميهني (أوشابا)، بتقديم الواو، والأشواب الأخلاط من أنواع شتى، والأوباش الأخلاط من السفلة، فالأوباش أخص من الأشواب، قاله الحافظ في الفتح.

أبو بكر: امصص ببظر اللات، أ نحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك.

قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف وعليه المغفرة، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أي عُدر، أَلستُ أسعى في عُدرَتِكَ⁽¹⁾.

وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: (أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)⁽²⁾.

(1) وأخرج ابن أبي شيبة أن عروة قال: (من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة)، وقول عروة: أَلستُ أسعى في عُدرَتِكَ: أي أَلستُ أسعى في دفع شرِّ عُدرَتِكَ؟ أشار عروة بهذا إلى ما وقع للمغيرة قبل إسلامه أنه خرج مع ثلاثة عشر نفرا من ثقيف من بني مالك زائرين المقوقس بمصر، فأحسن إليهم وأعطاهم، وقصر بالمغيرة، فحصلت له الغيرة منهم، فلما كانوا بالطريق شربوا الخمر، فلما سكروا وناموا وثب عليهم المغيرة فقتلهم، وأخذ أموالهم ولحق بالمدينة فأسلم.

(2) أي لا أتعرض له لكونه أخذه غدرا، ويستفاد منه أنه لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدرا، لأن الرفقة يصطحبون على الأمانة، والأمانة تؤدي إلى أهلها مسلما كان أو كافرا، وأن أموال الكفار تحل بالمحاربة والمغالبة. قاله الحافظ في الفتح.

قال ابن المنذر رحمه الله في الأوسط (314/11 م 1972): (ومن ذلك أن أموال أهل الشرك، وإن كانت مباحة للمسلمين، مغنومة إذا أخذوا ذلك منهم قهرا، فإنها ممنوعة بالأمان لهم عليها، مردودة إلى أربابها، إذا أخذوا ذلك في حال الأمان لهم، يدل على ذلك قول النبي ﷺ: (أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء)، وإتاما حرم ذلك على المغيرة لأنهم لما صحبوه، وقد أمّن كلّ منهم صاحبه على نفسه، وماله، فكان سفكه دما ثمهم، وأخذه أموالهم في ذلك الوقت غدرا منه بهم، والغدر غير جائز، والأمانات مؤداة إلى الأبرار، والفجار، والمؤمنين، والمشرّكين) اهـ.

=

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده⁽¹⁾، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون إليه النظر تعظيماً له.

= قلت: وأما الذي يفعله بعض الجهلة التكفيريين الساكنين بديار الكفر من اختلاس ونهب لبعض المحلات التجارية، تحت مفهوم أخذ غنائم الكفار مخالف قطعاً لهدي النبي ﷺ، بل هو في ميزان شريعة الرحمن غدر وخيانة، وتشويه لجمال الديانة.

(1) في الحديث جواز التبرك بذاته ﷺ وآثاره الحسية المنفصلة عنه، ولا يجوز أن يقاس عليه غيره من الصالحين، وأما الذي ذهب إليه الحافظ في الفتح فغير متين.

ثم إن الجواز لا يُسوّغ الإعتماد على آثار الأنبياء في القرب من الله، فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه أن أضيافاً من البحرين نزلوا بالنبي ﷺ، فدعا بوضوئه فتوضأ، فبادروا إلى وضوئه فشربوا ما أدركوا منه، وما نصب منه في الأرض فمسحوا به وجوههم ورؤوسهم وصدورهم، فقال لهم النبي ﷺ: ما دعاكم إلى ذلك؟ حباً لك، لعل الله يحبنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: (إن كنتم تحبون أن يحبكم الله ورسوله؛ فحافظوا على ثلاث خصال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الجوار)، أخرجه العلامة محمد ناصر الدين الالباني في الصحيحة (6/1264 برقم 2998) وقال: الحديث روي جله من وجوه أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً ثابتاً.

وقد أنكر السلف على من تبرك بأثار الصالحين، وذكرى ابن أبي يعلى في ترجمة علي بن عبد الله الطيالسي أنه قال: مسحت يدي على أحمد بن حنبل ثم مسحت يدي على بدني وهو ينظر، فغضب غضباً شديداً، وجعل ينفذ نفسه ويقول: عمن أخذتم هذا، وأنكره انكاراً شديداً. انظر طبقات الحنابلة (1/228)، والمنهج الأحمد (1/428).

وفي صنع الصحابة يوم الحديبية فائدة أخرى؛ وهي أنهم أرادوا أن يقولوا بلسان حالهم: من يحب إمامه هذه المحبة وينزله منزلته التي تليق به كيف يظن به أنه يفر عنه، ويسلمه للعدو، ومن هذا الصنيع المحكم يجب على المسلمين أن يلتفتوا حول حكاهم المسلمين، ويناصرونهم بالمعروف قهراً لأعداء الله من اليهود والنصارى الذين يفرحون حين يلمسون الفتنة مشتعلة في ديارهم، ودماءهم تزهق بأيديهم.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يُعْظِمُهُ أصحابُهُ ما يُعْظِمُ أصحابُ محمدٍ ﷺ محمداً، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطّة رُشدٍ فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتية، فقالوا آتته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: (هذا فلان، وهو من قومٍ يُعْظَمون البُدن، فابعثوها له).

فَبَعِثَتْ له، واستَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله!، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت، فلما رَجَعَ إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدن قد قُلِدَتْ وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يصدُّوا عن البيت.

فقام رجلٌ منهم، يقال له: مِكَرَزُ بن حَفْصٍ، فقال: دعوني آتية، فقالوا آتته، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: (هذا مِكَرَز، وهو رجلٌ فاجِرٌ)⁽¹⁾.

فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

قال معمر: فأخبرني أيوب، عن عكرمة: أنّه لمّا جاء سهيل بن عمرو: قال النبي ﷺ: (لقد سهل لكم من أمركم)⁽²⁾.

(1) أي موصوفاً بالغدر. ومن كان هذا وصفه فلا يجوز أن تبرم معه صفقات الصلح، لأنه ما يفتأ أن ينقضها ويأتي بخلافها كما هو شأن اليهود في فلسطين، وبعض رؤوس الخوارج في ديار المسلمين.

(2) فيه استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطيرة المكروهة، وقد جاء في الصحيحين من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: (لا طيرة، وخيرها الفأل الحسن)، قالوا وما الفأل الحسن يا رسول الله ﷺ؟ قال: (الكلمة الصالحة يسمعونها أحذكم).

قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: (اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم).

قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: (اكتب باسمك اللهم)، ثم قال: (هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله).

فقال سهيل: والله لو كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِمَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: (والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني، اكتب محمد بن عبد الله).

قال الزهري: وذلك لقوله: (لا يسألوني خطة يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرَمَاتُ اللَّهِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا). فقال له النبي ﷺ: (على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به)، فقال سهيل: والله لا تتحدثُ العربُ أَنَا أُخْدِنَا ضَغْطَةً، ولكن من العام المقبل، فكتب، وعلى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِّنَّا رَجُلٌ -وإن كان على دينك- إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا، [وخليت بيننا وبينه، فكره المسلمون ذلك، وامتنعوا منه]، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وقد جاء مسلماً؟ [وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك]، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد! أول ما أقاضيك عليه أن تَرُدَّهُ إِلَيَّ، فقال النبي ﷺ: (إنَّا لم نقض الكتاب بعد)، قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا، قال النبي ﷺ: (فأجزه لي)، قال: ما أنا بمجيزه

= والفأل لسان الزمان، والطيرة عنوان الحَدَثَانِ كما قال ابن الرومي، وقال غيره: الفأل إبانة، والتطير استدلال.

لك، قال: (بلى: فافعل)، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال: أبو جندل: أي معشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابا شديدا في الله، [فردّ يومئذ أبا جندل⁽¹⁾ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأت أحد من الرجال إلا ردّه في تلك المدة وإن كان مسلما]، فقال عمر بن الخطاب: فأنت نبي الله ﷺ، فقلت: ألسنت نبي الله حقا، قال: (بلى).

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: (بلى)، قلت: فلما نعطي الدنية في ديننا إذا؟! قال: (إني رسول الله ﷺ)، ولست أعصيه، وهو ناصري). قلت: وأليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: (بلى؛ فأخبرت أنك أنا نأتيه العام؟)، قال: قلت: لا، قال: (فإنك آتية، ومُطَوَّفٌ به)، قال: فأنت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلما نعطي الدنية في ديننا إذا؟، قال: أيها الرجل! إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربّه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك ستأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتية ومُطَوَّفٌ به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا⁽²⁾.

(1) أخرج الإمام أحمد في مسنده (325/4) بإسناد حسن، ومحمد بن إسحاق وإن كان مدلسا فقد صرح بالتحديث؛ أن النبي ﷺ قال: (يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله عز وجل جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه عهدا، وإنا لن نغدر بهم).

(2) وأخرج الإمام أحمد (325/4) بإسناد حسن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (ما زلت أصوم وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن أكون خيرا).

قال: فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (قوموا فانحروا ثم احلقوا). قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُذْنَكَ، وتدعو حالقك، فيحلقك، فخرج، فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحرَ بذنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً....).

بعض فوائد صلح الحديبية التي تخص بحثنا.

1- أخرج الإمام البخاري⁽¹⁾ بإسناده إلى البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: (تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية...).

قال الحافظ في الفتح عند قول البراء (ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان): (يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وهذا موضع وقع فيه اختلاف قديم، والتحقيق أنه يختلف ذلك باختلاف المراد من الآيات، فقوله تعالى

= وكان الفاروق رضي الله عنه يراجع النبي ﷺ ليقف على الحكمة من موافقته على شروط الصلح، وكان رضي الله عنه يرغب في إذلال الكفار، فجميع ما صدر منه كان معذورا فيه، بل هو مأجور لأنه كان مجتهدا فيه قاله الحافظ في الفتح، قارن استنباط الحافظ مع تعبير بعض الجهلة من وصفهم لموقف الفاروق بأنه ناجم عن عقل بشري جهول والله المستعان.

ولما بدى لعمر أن الذي ارتضاه النبي ﷺ وحي لا مكان للرأي معه سلّم رضي الله عنه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾، رضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعن باقي الصحب الأبرار.

(1) صحيح البخاري (برقم 4150).

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ المراد بالفتح هنا الحديبية، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن ورفع الحرب، وتمكن من يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك؛ كما وقع لخالد بن الوليد وعمر بن عاص وغيرهما، ثم تبعت الأسباب بعضها بعضا إلى أن كمل الفتح).

وقال أنس بن مالك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئا مريئا فما لنا؟ فأنزل: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

قال الإمام الزهري⁽¹⁾ رحمه الله: (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلمّا كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا، والتّقوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد في الإسلام -يعقل شيئا- إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك الستين مثل ما دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر).

قال ابن هشام مؤيدا كلام الزهري: (والدليل على ما قاله الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل في قول جابر، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين في عشرة آلاف).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وسورة الفتح الذي فيها ذلك أنزلها الله قبل أن تفتح مكة؛ بل قبل أن يعتمر النبي ﷺ، وكان قد بايع أصحابه تحت الشجرة عام الحديبية سنة ست من الهجرة، وصالح المشركين صلح الحديبية المشهور، وبذلك الصلح حصل من الفتح ما لا يعلمه إلا الله؛ مع أنه قد كرهه خلق من المسلمين، ولم يعلموا ما فيه من حسن العاقبة، حتى قال سهل بن حنيف: (أيها الناس! اتهموا الرأي، فقد

(1) سيرة ابن هشام (322/2)، والبداية والنهاية لابن كثير (221/6 ط/ دار هجر).

رأيتني يوم أبي جندل ولو استطعت أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت) رواه البخاري وغيره⁽¹⁾.

2- ومن ثمر صلح الحديبية أن المسلمين تفرغوا لليهود خير آخر معاقل يهود، التي استغلت للتحريض على المسلمين في الخندق وما بعدها، وكان نخيل خير من بركات صلح الحديبية.

روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي كما قال الحافظ في قوله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾؛ قال: صلح الحديبية، وغفر له ما تقدم وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وظهر الروم على فارس وفرح المسلمون بنصر الله).

وأخرج الإمام البخاري⁽²⁾ بإسناده إلى زيد بن أسلم عن أبيه قال: (خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صبية صغارا، والله ما يُنضجون كراعا، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضبع، وأنا بنت خُفاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ. فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحبا بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعيرٍ ظهيرٍ كان مربوطا في الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاما، وحمل بينهما نفقة وثيابا، ثم ناولها بخطامه ثم قال: اقتاديه، فلن يَفْنَى حتى يأتيكم الله بخير. فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها. قال عمر: ثكلتك أمك، والله إنني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنا زمانا فافتتحاه، ثم أصبحنا نستفيءُ سُهْمَانَهُمَا فيه).

(1) مجموع الفتاوى (60/35).

(2) صحيح البخاري (برقم 4160 باب غزوة الحديبية).

باب :

الصّٰلِح بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان رضوان الله عليهم جميعا ،
وما جاء فيه من عضات وفوائد⁽¹⁾ .

إنّ دراسة التاريخ دراسةً متأنيةً وعلى منهج المحدثين، لها أهمية كبيرة في تقويم حياة المسلمين، واستنباط القيم والعضات منها، التي توظف في تصحيح المسار، واجتناب الأخطار، ولهذا اخترت في هذا الباب أن أسرد الوقائع التاريخية الخاصة بالصّٰلِح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما من مصادرها الأصيلة، مع النظر في سند كل حادثة ضعفا وصحة، لأتجنب ما حشاه أهل البدع في كتب التاريخ والسير والطبقات من أكاذيب مختلقة، تخدم معتقداتهم الباطلة، وتشين منهج من يرونهم خصومهم، وجائر الكذب عليهم، كما هو صنيع الرافضة الأنجاس، ودعاة التغريب وتزييف الحقائق، ثم أختتم الوقائع بما وقفت عليه من عضات وحكم استخلصها أهل العلم من الصّٰلِح الذي جرى بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان رضوان الله تعالى عليهم جميعا.

وقد اخترت تقسيم الحديث عن الصّٰلِح الذي أبرم بين الحسن بن علي ومعاوية رضوان الله عليهم جميعا إلى مراحل متسلسلة، ليسهل استيعاب الوقائع، واستنباط العضات، كما صنع صاحب كتاب مرويات خلافة معاوية رضي الله عنه في تاريخ الطبري.

(1) لقد استفدت كثيرا من كتاب مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري للدكتور خالد بن محمد الغيث، مع العودة إلى المراجع التي استقى منها بحثه، وزيادة ما رأيته يخدم الموضوع من مصادر أخرى عالجت الحادثة بإنصاف.

المرحلة الأولى: الحديث عن تاريخ بيعة المسلمين للحسن بن علي رضي الله عنهما، وما جاء فيها من تمهيد للصالح.

كانت بيعة الحسن بن علي رضي الله عنهما في شهر رمضان من سنة 40 للهجرة، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يدي الخارجي عبد الله بن ملجم عليه من الله ما يستحق.

أخرج ابن سعد في الطبقات⁽¹⁾ بأسانيد يقوي بعضها بعضها قال: أخبرنا وكيع بن الجراح، عن يحيى بن مسلم أبي الضحاك، عن عاصم بن كليب، عن أبيه.

وقال: أخبرنا عبد الله بن نمير، عن عبد السلام رجل من بني مُسلية، عن بيان، عن عامر الشعبي قال: "إنَّ الحسن بن علي صلى على علي بن أبي طالب، فكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن علي بالكوفة عند مسجد الجماعة في الرحبة، مما يلي أبواب كندة⁽²⁾ قبل أن ينصرف النَّاس من صلاة الفجر، ثم انصرف الحسن بن علي من دفنه، فدعا النَّاس إلى بيعته فبايعوه".

وروى ابن سعد في الطبقات⁽³⁾ بإسناد حسن إلى ميمون بن مهران قال: "إنَّ الحسن بن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد عليّ على بيعتين؛ بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضي به".

وروى ابن سعد في الطبقات⁽⁴⁾ بإسناد لا بأس به إلى خالد بن مضرب قال: "سمعت الحسن بن علي يقول: والله لا أباعكم إلاّ على ما أقول لكم.

قالوا: ما هو؟

(1) (36/3 ط: مكتبة الخانجي).

(2) وهناك أقوال أخرى في تحديد مكان دفن علي رضي الله عنه انظرها في البداية والنهاية (20/11-127 ط: دار هجر).

(3) (379/6 ط: مكتبة الخانجي).

(4) (370/6 ط: مكتبة الخانجي).

قال: تُسالمون من سالمتم، وتحاربون من حاربتم".⁽¹⁾

المرحلة الثانية: محاولة اغتيال الحسن ومعاوية لجنوحهما إلى السلم والمصالحة.

إنَّ القائم بالصلح بين المسلمين يمثل خطراً مباشراً لأعداء الملة والسلام، ولهذا يسعى دعاة الظلام، والمتاجرة بأشلاء المسلمين لحساب الطائفية الضيقة، والحزبية المقيتة لنسف كل جهد وعمل فيه خير للمسلمين من جمع لكلماتهم وحقن لدمائهم، وقد لاق الحسن بن علي ومعاوية شيئاً من ذلك، بل وكُلُّ مُصلح وإلاَّ وهو في مرمى مصاصي الدماء، يتربصون به الدوائر، ويتنظرون الفرصة السانحة للإجهاض عليه، والله العاصم من كيد الأشرار.

روى ابن سعد في الطبقات⁽²⁾ بإسناده إلى ميسرة بن يعقوب الطهوي الكوفي أبي جميلة: "أن الحسن بن علي لما استخلف حين قُتل علي، بينما هو يصلي وثب عليه رجل فطعنه بخنجر -وزعم حصين بن عبد الرحمن السلمي أنه بلغه أنَّ الذي طعنه رجل من بني أسد- وحسن ساجدٌ، قال حصين: وعَمِي أدرك ذلك، قال: فيزعمون أنَّ الطعنة وقعت في وركه، فمرض منها شهراً ثم برئ، فقعد على المنبر فقال: يا أهل العراق؛ اتقوا الله فينا، فإننا أمراؤكم وضيغانكم، أهل البيت الذي قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الأحزاب: ٣٣، قال: فما زال يقول ذلك حتى ما رؤى أحدٌ من أهل المسجد إلاَّ وهو يخن بكاء".

(1) والمتأمل في الرواية الثانية والثالثة يجد أن الحسن بن علي ﷺ كان يُمهّد للصلح، وجمع كلمة المسلمين التي شتتها الفتن، آملاً أن يحقن دماء أصحاب الملة الواحدة التي أزهقت بالتأويل الفاسد، وكانت سبباً في ضعف المسلمين، ووقف الفتحات الإسلامية، ولعل ما كان يمهد له الحسن هو تحقيق لنبوة النبي ﷺ.

(2) (382/6 ط: الخانجي)، وله طريق آخر أخرجه ابن سعد (380/6) من طريق العوام بن حوشب، عن هلال بن يساف.

وأما معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فقد أصيب إصابة بليغة من جراء محاولة الاغتيال التي تعرض لها على يد الخارجي البُرك بن عبد الله التميمي، حين خرج معاوية لصلاة الفجر، وهي المحاولة نفسها التي نفذت في نفس اليوم الذي اغتيل فيه علي بن أبي طالب، وهو فجر يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة 40 على الصحيح المشهور من أقوال أهل العلم⁽¹⁾.

أخرج الخلال من طريق عباس بن محمد الدوري، قال: ثنا قراد، ثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن الهلال، عن جندب بن عبد الله البجلي قال: "كنا مع سعد بن أبي وقاص في ركب، فنزل سعد ونزلت واغتنمت نزوله، قال: فجعلت أمشي إلى جنبه، فحمدت الله، وأثنت عليه، وقلت: إنّ معاوية طعن طعنا بيننا لا أراه إلا قاتلته، وإنّ الناس⁽²⁾ قاتلون أصحاب الشورى، وبقية أصحاب رسول الله ﷺ، فأنشدك الله إن وليت شيئاً من أمرهم، أو تشق عصاهم، وأن تفرق جمعهم، أو تدعهم إلى أمر هلكة، فحمد سعد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فوالله لا أشق عصاهم، ولا أفرق جمعهم، ولا أدعهم إلى أمر هلكة حتى يأتوني بسيف يقول: يا سعد! هذا مؤمن فدعه، وهذا كافر فاقتله.

قال جندب: فعلمت أنه لا يدخل في شيء مما غير⁽³⁾.

المرحلة الثالثة: تبادل الرُّسل بين الحسن ومعاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه⁽⁴⁾ قال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، قال: سمعت الحسن يقول: استقبلَ والله

(1) انظر البداية والنهاية (19/11 ط: دار هجر).

(2) يقصد الخوارج الأشرار.

(3) السنة للخلال (474/2 برقم 749).

(4) صحيح البخاري (كتاب الصلح برقم 2704).

الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فقال له معاوية -وكان والله خير الرّجلين-: أي عمرو، إن قتل هؤلاء هؤلاء، من لي بأموار الناس، من لي بنسائهم، من لي بضيعتهم⁽¹⁾، فبعث إليه رجلين من قريش، من بني عبد شمس، عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز، فقال: اذهبوا إلى هذا الرجل، فأعرضا عليه⁽²⁾، وقولا له⁽³⁾، واطلبا إليه⁽⁴⁾، فأتياه فدخلا عليه، فتكلّما، وقالوا له، فطلبنا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنّنا بنو عبد المطلب، قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها⁽⁵⁾، قالوا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لي بهذا، قالوا: نحن لك به، فما سألهما شيئا إلا قالوا: نحن لك به، فصالحه، فقال الحسن: ولقد سمعت أبا بكره يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرّة، وعليه أخرى، ويقول: (إنّ ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)".

وأخرج ابن سعد في الطبقات⁽⁶⁾ من طريق عمرو بن دينار قال: (إنّ معاوية كان يعلم أنّ الحسن أكره الناس للفتنة، فلما توفي عليّ بعث إلى

-
- (1) عبارات لو يعرف الرافضون للصّالح قيمتها، لأسرعوا لوضع أيديهم في أيدي إخوانهم المصلحين الذين يجاهدون لجمع كلمة المسلمين بالحكمة، والموعظة الحسنة.
- (2) أي ما شاء من الأموال قاله الحافظ. قلت: لا ضير أن يبذل السلطان أو الرئيس ما استطاع من الأموال لحقن دماء المسلمين، وتعويض المتضررين من الفتن.
- (3) أي في حقن دماء المسلمين بالصّالح قاله الحافظ في الفتح.
- (4) أي خلع نفسه من الخلافة، وتسليم الأمر لمعاوية، وابدلا له في مقابل ذلك ما شاء.
- (5) أي قتل بعضها بعضاً، فلا يكفون عن ذلك إلا بالصّفح منهم، والتألف بالمال، وأراد الحسن بذلك كله تسكين الفتنة، وتفرقة المال على من لا يرضيه إلا المال. قاله الحافظ رحمه الله.
- (6) (385-384/6).

الحسن فأصلح الذي بينه وبينه سرا، وأعطاه معاوية عهداً إن حدث به حدث، والحسن حيّ لیسَينِه⁽¹⁾، وليجعلنّ هذا الأمر إليه.

فلما توثّق منه الحسن، قال [عبد الله] بن جعفر رضي الله عنه: والله إنّي لجالس عند الحسن إذ أخذت لقوم فجذب ثوبي، وقال: اقعد يا هناه، اجلس، فجلست، قال: إنّي قد رأيت رأياً، وأحب أن تتابعني عليه، قال: قلت: ما هو؟ قال: قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزّلها، وأخلي بين معاوية وبين هذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسقطت فيها الدماء، وقطعت فيها الأرحام، وقطعت السبل، وعطّلت الفروج -يعني الثغور-، فقال ابن جعفر: جزاك الله عن أمة محمد، فأنا معك على هذا الحديث.

فقال الحسن: ادع لي الحسين، فبعثت إلى الحسين فأتاه، فقال: يا أخي إنّي قد رأيت رأياً، وإنّي أحب أن تتابعني عليه.

قال: ما هو؟

قال: فقضّ عليه الذي قال لابن جعفر.

قال الحسين: أعيذك بالله أن تُكذّب عليّ في قبره، وتصدق معاوية.

قال الحسن: والله ما أردت أمراً قط إلاّ خالفتني إلى غيره، والله لقد هممت أن أفذّلك في بيت فأطينه عليك حتى أقضي أمري.

قال: فلما رأى الحسين غضبه قال: أنت أكبر ولد علي، وأنت خليفته، وأمرنا لأمرك تبع، فافعل ما بدا لك).

إنّ الرغبة في الصّلاح كانت موجودة من الطرفين، فقد سعى الحسن إلى الصّلاح وخطط له، ثم جاء معاوية وأكمل ما بدأه الحسن.

المرحلة الرابعة: إخبار الحسن لأتباعه أنه قبل الصّلاح مع معاوية.

(1) أي يرشحه للخلافة بعده.

أخرج ابن سعد في الطبقات⁽¹⁾ من طريق هلال بن خباب قال: "جمع الحسن بن علي رؤوس أصحابه في قصر المدائن، فقال: يا أهل العراق، لو لم تذهل نفسي عنكم إلا لثلاث خصال لذهلت: مقتلكم أبي، ومطعنكم بغلتي، وانتهابكم ثقلي، أو قال: ردائي عن عاتقي.

وإنكم بايعتموني أن تسالموا من سالمته، وتحاربوا من حاربت، وإنني قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا، قال: ثم نزل ودخل القصر".

(1) (382/6).

الفوائد المستخلصة من الصّح.

لقد أخبر النبي ﷺ عن الحسن رضي الله عنه أنه سيّد، وأنّه سيصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وهذه منقبة عظيمة نالها الحسن، كيف لا وقد سعى رضي الله عنه لطوي أيام الفتن أعادنا الله منها، وجمع كلمة المسلمين.

قال الحافظ رحمه الله في الفتح⁽¹⁾: (وفي هذه القصة من الفوائد:

- علم من أعلام النبوة.

- ومنقبة للحسن بن علي، فإنه ترك الملك لا لقلّة، ولا لذلة، ولا لعلّة، بل رغبة فيما عند الله، لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين، ومصلحة الأمة.

- وفيها ردّ على الخوارج الذين كانوا يكفرون عليا ومن معه، ومعاوية ومن معه، بشهادة النبي ﷺ للطائفتين بأنهم من المسلمين.

- وفيه فضيلة الإصلاح بين الناس، ولا سيما في حقن دماء المسلمين،

- ودلالة على رافة معاوية بالرعية، وشفقته على المسلمين، وقوة نظره في تدبير الملك، ونظره في العواقب.

- وفيه جواز خلع الخليفة نفسه إذا رأى في ذلك صلاحا للمسلمين، والنزول عن الوظائف الدينية والدنيوية بالمال، وجواز أخذ المال على ذلك وإعطائه، بعد استفتاء شرائطه، بأن يكون المنزول له أولى من النازل، وأن يكون المبدول من مال البازل، فإن كان في ولاية عامة، وكان المبدول من بيت المال، اشترط أن تكون المصلحة في ذلك عامة).

(1) (13/83-84 ط: دار الفحاء).

باب:

تعريف الصِّلح⁽¹⁾.

الصِّلح: اسم مصدر، صالحه يُصالحه صلحا ومصالحة وصلاح بكسر الصاد، وقد اصطلح وتصلحا واصالحا، مشددة الصاد، واصطلاح، والصِّلح يذكر ويؤنث كما قال الجوهري، وصِّلح الشيء إذا كُمل وحُسِّن، وهو خلاف الفساد.

والصِّلح معناه: قطع المنازعة، والدعوة إلى السِّلَم.

وقال علي بن مجد الدين البسطامي الشهير بمُصنِّفك (م: 875):
(والصِّلح: اسم من المصالحة، وهي المسالمة بعد المحاربة، وأصله من الصِّلح؛ وهو استقامة الحال)⁽²⁾.

وأما حقيقته الشرعية: فهو معاقدة يتوصل بها إلى إصلاح بين متخاصمين.

وقال ابن عرفة: (انتقال عن حق أو دعوى بعوض لرفع نزاع أو خوف وقوعه)⁽³⁾.
وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، ويكون في الأموال والقصاص وغيرها، وهو من أكبر العقود فائدة، ولذلك جاز فيه الكذب.

قال الشيخ عبد الله البسام (م1423هـ) في نيل المآرب: (الصِّلح من أعمِّ الأمور وأوسعها، فدائره واسعة، وفوائده كثيرة، وفضائله كبيرة، ولذا فإنَّ الله تعالى قال عنه: ﴿وَالصِّلْحُ خَيْرٌ﴾ النساء: ١٢٨، فهو يقع في أمور هامة منها:

(1) انظر القاموس المحيط كلمة (الصِّلح)، والصحاح للجوهري.

(2) الحدود والأحكام الفقهية (ص: 89).

(3) شرح حدود ابن عرفة (ص314).

- 1- يكون بين المسلمين، وبين الكفار المحاربين، فيحصل به راحة المسلمين وإجماعهم، واجتماعهم لقتال عدوهم في الفرصة المناسبة.
- 2- يكون بين أهل العدل، وبين أهل الظلم والبغي، فيُكف به شرّ كبير، وقد يحصل به خير كثير.
- 3- يكون بين الناس في الدماء والشّجاج والجروح، فيحصل به العفو عن الحقوق، وإطفاء نار الفتنة⁽¹⁾.

(1) وهذا هو المقصد من مشروع الصّلاح الذي دعا إليه حاكمُ البلاد وأعوانه المخلصون من أبناء الوطن، وهو عمل صالح يسعى أصحاب الفطر السليمة، والعقول المتينة إلى تجسيده إلى خلق ثابت في حياة المسلمين.

ولكن العجيب في الأمر أن يقوم بعضُ النَّاس هداهم الله تعالى ممن فسدت فطرتهم، ومرجت عهودهم، وكان لهم النصيب الأوفر في تأجج نار الفتنة في الجزائر باسم قيامة دولة إسلامية برّد مشروع الصّلاح، وبذل الجهد في إفشاله بشتى الدعاوى الباطلة، والتي منها: إن الأزمة التي عصفت بأبناء الجزائر لها صبغة سياسية محضة، فلا تناقش ولا تطرح على مائدة الحوار إلا هي موشحة بلباس سياسي صرف!.

فقلت: ليت شعري أي سياسة يريدون حلّ الأزمة بها بعد أن خطف الظواهري حاملي السلاح والمختبئين في الكهوف والمغارات من بين أيديهم وهم ينظرون، وبعد أن فقدوا السيطرة عليهم، ولم تعد لهم عليهم سلطة سياسية ولا شرعية، وأي سياسة يريدون تجفيف منابع العنف بها وقد كوّنت جماعات قتالية ووحشية، كل يوم تتخذ لونا جديدا من القتال، واسما محدثا تدلس به على الخلق، وأي سياسة هذه التي يمنون العباد بها بعد أن أريق دماء غزيرة، وحرقت مدارس ومصانع عديدة، وهدمت بيوت ورملت نساء، ويَتِم ولدان؟ وهل يتصور القوم العودة إلى النقطة التي توقف عندها المسار الانتخابي، ثم الشروع في نقاش حارٍ حول مائدة مستديرة بعد أن مضى على التقريع عهد ليس بالهين، جرف في طياته خلقا كثيرا؟.

ولماذا لم يتحل القوم بالصّبر حين ظلموا، وبالحكمة السياسة كما زعموا، واستحضروا هدي النبي ﷺ في مثل هذه المواقف، ثم بعد ذلك نهجوا القنوات السياسية التي يؤمنون بها، ويرونها كفيلة في استرجاع حقهم المسلوب.

=

4- يكون بين الأصحاب المتهاجرين المتنافرين، فتصفو القلوب، وتقرّ الأنفس، وتهذأ الأحوال، وتعود المودة والإخاء.

5- يكون بين الزوجين عند المشاقّة والمخاصمة، فيحصل به جمع الشمل وعمارة البيوت، واجتماع الأسر وحسن العشرة.

6- يكون بين الناس في الأموال والمعاملات، حينما يقع الاختلاف والإشكال فيها، فيتحقق به الرضا، والتسامح وقطع الخصومات.

= لقد صدق في القوم ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه حين أسرى النبي ﷺ أعرابيا فقال بعد الإسر: يا محمد إني مسلم فقال النبي ﷺ: (لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح)، وهكذا لو عالج القوم الأمر قبل أن يتعفن بالاستعانة بالله ثم بكبار العلماء والمخلصين من الحكماء لأفلحوا كل الفلاح، أما وأنهم هرعوا إلى السيف، واستوطنوا الجبال، وكوّنوا جماعات قتالية، وكانوا سببا في فتنة صماء أتت على الأخضر واليابس، فليس لهم أن يتظاهروا بالحنكة السياسية، وبعيد النظر، والقدرة على تحقيق المصالح ودرء المفاسد بعد ما ظهر فشلهم الذريع في ترتيب البيت من الداخل، وتجلّى عداؤهم المكشوف للشعب الذي أزروهم وأوصلهم إلى سدة الحكم، وبان فساد مشروعاتهم الخيالي الذي كانوا يمتنون الأمة به، فبعد هذه الفتن التي اختلط فيها الحابل بالنابل، فالسبيل الأمثل للخروج من نفق الخلاف والافتتال يا دعاة السياسة زعموا يكون بالعودة إلى الصلح والوئام والسماحة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (154/28): (فالحاجة إلى السماحة والصبر عامة لجميع بني آدم، لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلا به). وعليهم أن يجتهدوا في نشر مبادئ التعايش بالتراحم في ظل حكم عادل، وخال من الظلم والجبروت، ويسعوا في تعليم الناس المناهج السديدة في التعامل مع الفتن حين الأزمات، ويبدلوا الجهد في تربية أبناء الأمة تربية سالمة من الآفات، بدءاً من تحسين المنظومة التربوية، واستغلال الإعلام في بث روح الشريعة في أنفس أبناء الوطن، وتحسين مهام المسجد في تبصير رواده بالحق وتحذيرهم من الباطل، إلى تكوين الجمعيات الخيرية والثقافية الموازية لمؤسسات الدولة لتكميل النقص الذي يعتري المؤسسات الرسمية، وبهذا المنهج إن شاء الله نسير قدما نحو مستقبل أفضل، وخال من الفتن، والله تعالى يتولى الصالحين من عباده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وكل صلح؛ فهو جائز بين المسلمين إلاّ صلحا أحلّ حراما، أو حرّم حلالا، فإنه مخالف لمراد الله تعالى فلا يجوز، والصلح ثابت بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهو من محاسن الشرائع الربانية التي جاءت بكل ما يحقق الخير، ويبعد الشرّ، والله ولي التوفيق⁽¹⁾.

(1) نيل المآرب شرح عمدة الطالب ومعه الاختيارات الجليلة في المسائل الخلافية للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام رحمه الله (3/199-200 ط/دار الميمان)، وينظر حاشية الروض المربع للشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي رحمه الله (5/128).

باب:

الحقوق على الجملة ضربان، حق الله تعالى وحق العباد⁽¹⁾.

إنَّ الحقوق نوعان: حقُّ لله تعالى، وحقُّ للآدمي، فحق الله لا مدخل للصِّلح فيه؛ كالحدود والزكوات والكفارات ونحوها⁽²⁾، وإنما الصِّلح بين العبد وبين ربِّه في إقامتها وتحقيقها، لا في إهمالها وإهدارها، أو تأويلها على غير مراد الله تعالى، كما يفعل أهل الأهواء ودعاة التجديد، ولهذا لا تقبل الشفاعة في الحدود، وإذا بلغت السلطان فلعن الله الشافع والمشفَّع.

ومن حقوق الله تعالى تحقيق التوحيد له جلَّ وعزَّ لحديث معاذ بن جبل في الصحيحين (حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)، فلا صلح في إقرار الشرك في الأرض، وبناء معابد الوثنية، ومغارات الصّد عن سبيل الله. وأما حقوق الآدميين فهي التي تقبل الصِّلح والإسقاط والمعاوضة عليها.

والصلح العادل هو الذي أمر الله به ورسوله ﷺ، كما قال تعالى ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ الحجرات: ٩، وهذا الصِّلح لا يعرف فروعه وأحكامه إلا المتشبعون من وحي الشريعة وروحها.

(1) هذا الباب استفدت فصوله من كتاب إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (2/202 طبعة مشهور حسن)، مع شيء من التوضيح والإضافة.

(2) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (176/34): (والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه، فمتى أمكن من أمير لم يحتج إلى اثنين، ومتى لم يقم إلا بعدد ومن غير سلطان أقيمت إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضعافها، فإنها من (باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فإن كان في ذلك من فساد ولاية الأمور أو الرعية ما يزيد على إضعافها لم يدفع فساد بأفسد منه، والله أعلم).

والصلح الجائر هو الظلم بعينه، وكثير من الناس لا يعتمد العدل في الصلح، بل يصلح صلحا ظالما جائرا، فيصالح بين الغريمين دون الطفيف من حق أحدهما، والنبي ﷺ صالح بين كعب وغريمه، وصالح أعدل الصلح، فأمره أن يأخذ الشطر ويدع الشطر، وكذلك لما عزم على طلاق سودة رضيت بأن تهب له ليلتها وتبقي على حقها من النفقة والكسوة، فهذا أعدل الصلح، فإن الله سبحانه أباح للرجل أن يطلق زوجته ويستبدل بها غيرها، فإذا رضيت بترك بعض حقها وأخذ بعضه وأن يمسكها كان هذا من الصلح العادل، وكذلك أرشد الخصمين اللذين كانت بينهما المواريث بأن يتوخيا الحق بحسب الإمكان ثم يحلل كل منهما صاحبه، وقد أمر الله بالإصلاح بين الطائفتين المقتلتين أولا، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحيثذ أمر بقتال الباغية لا بالصلح فإنها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحق الطائفة المظلومة، وكثير من الظلمة المصلحين يصلح بين القادر الظالم، والخصم الضعيف المظلوم، بما يرضى به القادر رضى لصاحب الجاه، ويكون له في الحظ، ويكون الإغماص والحيث فيه على الضعيف، ويظن أنه قد أصلح، ولا يتمكن المظلوم من أخذ حقه، وهذا ظلم، بل يُمكن المظلوم من استفاء حقه، ثم يطلب إليه برضاه أن يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه، ولا يشتهه بالإكراه للآخر بالمحاباة ونحوها.

وقال القرافي في الذخيرة: (قاعدة: الحقوق ثلاثة أقسام: حق الله فقط: وهو ما لا يتمكن العبد من إسقاطه، وحق للعبد: وهو ما يتمكن من إسقاطه. وحق مختلف فيه، هل هو حق الله أو للعبد؟ كحدّ القذف، وعليه ينبنى قبول العفو فيه، وحقوق الله تعالى أو أمره ونواهيه، وحقوق العبد مصلحه، وما من حق للعبد إلا وفيه حق لله تعالى، وهو أمر الله تعالى بإيصال الحق إلى مستحقه، ثم حقوق العبد قد يحجر الله تعالى على العبد فيها لنفسها فتصير

حقاً لله، كبيع الربا، فإن الزيادة من مال المُرابي وهو محجور عليه فيها، وكذلك السرف وإفساد النفوس والأعضاء من هذا القبيل⁽¹⁾.

(1) الذخيرة (341/5).

باب :

الصِّلح إما مردود وإما جائز نافذ وأساسه العلم والعدل.

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما قالا: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله أقض بيننا بكتاب الله، فقام خصمه فقال: صدق، أقض بيننا بكتاب الله، فقال الأعرابي: إنَّ ابني كان عسيفاً على هذا فزني بامرأته، فقالوا لي: على ابنك الرجم، ففديت ابني منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سألت أهل العلم فقالوا: إنما على ابنك جلدُ مائة وتغريب عام، فقال ﷺ: (لأقضيَنَّ بينكما بكتاب الله، أما الوليدة والغنم فردُّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأما أنت يا أنيس -لرجلٍ- فاغد على امرأة هذا فرجمها، فغدا عليها أنيس فرجمها)⁽¹⁾.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)⁽²⁾.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في الإعلام: (والصِّلح الذي يُحل الحرام، ويحرم الحلال كالصِّلح الذي يتضمن تحريم بُضعٍ حلال، أو حل [إحلال] بُضعٍ حرام، أو إرقاق حُرٍّ، أو نقل نسب أو ولاء عن محلٍ إلى محل، أو أكل ربا، أو إسقاط واجب، أو تعطيل حد، أو ظلم ثالث، وما أشبه ذلك؛ فكل هذا صلح جائز مردود).

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم 2695-2696 كتاب الصِّلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود)، ومسلم (برقم 1697-1698).
(2) أخرجه الإمام البخاري (برقم 2697)، ومسلم (برقم 1718).

فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضى الله سبحانه، ورضى الخصمين؛ فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالما بالوقائع، عارفا بالواجب، قاصدا للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم، كما قال النبي ﷺ: (ألا أدلكم بأفضل من درجة الصائم القائم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين؛ فإفساد ذات البين هي الحالقة، أما إنني لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)، وقد جاء في الأثر [ولكن في سنده عباد بن شيبه ضعيف، وشيخه سعيد بن أنس لا يعرف] (أصلحوا بين الناس، فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة)، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحجرات: ١٠

باب :

طرق الإصلاح كما بيّنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله لما سئل عن قوم من المسلمين سلكوا سبيل أهل الجاهلية من اقتتال ومطالبة بالثأر مع أن كل طائفة تدعي الحق: (الحمد لله: قتال هاتين الطائفتين حرام بالكتاب والسنة والإجماع، حتى قال ﷺ: (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه)، وقال ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)، وقال ﷺ: (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا لبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع).

والواجب في مثل هذا ما أمر الله به ورسوله، حيث قال: ﴿وَلَا يَفْنَىٰ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَنَّنَا لَهَا الَّتِي بَغَتْ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ الحجرات: ٩ - ١٠ فيجب الإصلاح بين هاتين الطائفتين، كما أمر الله.

والإصلاح له طرق:

منها: أن تُجمع أموال الزكوات⁽¹⁾ وغيرها حتى يدفع في مثل ذلك، فإن الغرم لإصلاح ذات البين يبيح لصاحبه أن يأخذ من الزكاة بقدر ما غرم، كما ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما....

- ومن طرق الصلح: أن تعفو إحدى الطائفتين أو كلاهما عن بعض مالها عند الأخرى من الدماء والأموال ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾⁽²⁾.

(1) وبإمكان ولي أمر المسلمين أن يوظف صندوق الزكاة في جبر الكسر الذي أصاب أبناء الجزائر، بتعويض المتضررين من الفريقين، وجعل المفقود من أبناء الجزائر الغراء كالمعلوم، فيعطي عصبته حق الهالك، تطيباً لخاطرهم، وجبراً لكسرهم.

(2) اختلف العلماء في الرجل يقتل عمداً ويثبت القصاص، فهل إذا عفا واحد منهم سقط القتل، وتعين حق الباقي من الورثة في الدية سواء كان العافي رجلاً أو امرأة؟ للعلماء في ذلك أقوال؛ والراجح أنه إن عفا واحد سقط القود، فقد روى البيهقي في السنن (برقم 16072) من طريق يعلى بن عبيد، ثنا الأعمش، عن زيد بن وهب قال: وجد رجل عند امرأته رجلاً فقتلها، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوجد عليها [أظنه عليه] بعض إخوتها فتصدق عليه بنصيبه فأمر عمر رضي الله عنه لسائرهم بالدية) وإسناده صحيح. ومن طريق جرير بن حازم عن الأعمش: (أن رجلاً قتل امرأته، استعدى ثلاثة إخوة لها عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعفا أحدهم، فقال عمر رضي الله عنه للباقيين: خذا ثلثي الدية فإنه لا سبيل إلى قتله).

وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (برقم 18188): من معمر عن الأعمش عن زيد أن عمر بن الخطاب رفع إليه رجل قتل رجلاً، فأراد أولياء المقتول قتله، فقالت أخت المقتول -وهي امرأة القاتل- قد عفوت عن حصّتي من زوجي فقال عمر: عتق الرجل من القتل.=

- ومن طرق الصلح: أن يحكم بينهما بالعدل، فينظر ما أتلفته كل طائفة من الأخرى من النفوس والأموال فيتقاصان⁽¹⁾، ﴿الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ وإذا فضل لأحدهما على الآخر شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان، فإن كان يجهل عدد القتلى، أو مقدار المال: جعل المجهول كالمعدوم، وإذا ادعت إحداهما على الأخرى بزيادة: فإما أن تحلفا على نفي ذلك، وإما أن تقيم البيّنة، وإما تمتنع عن اليمين فيقضي برد اليمين أو النكول..

- وإن تعذر أن تضمن واحدة للأخرى⁽²⁾، فيجوز أن يتحمل الرجل حمالة يؤديها لصلاح ذات البين، وله أن يأخذها بعد ذلك من زكاة المسلمين، ويسأل الناس في إعائته على هذه الحالة وإن كان غنيا، قال

= وأخرج الإمام أبو داود في السنن (برقم 4526 ط/عوامة) وغيره من طريق الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، سمع حصنا، أنه سمع سلمة يخبر عن عائشة، عن رسول الله ﷺ قال: (على المقتتلين أن ينحجزوا الأول فالأول، وإن كانت امرأة). قال أبو داود: ينحجزوا، يعني: يكفوا عن القود. قلت: تابع بشر بن بكر الوليد عند البيهقي (8/105)، وحسن هو ابن عبد الرحمن التراغمي الدمشقي قال عنه الحافظ: مقبول. قلت: يشهد له ما سبق.

ولما قام أفراد الشعب الجزائري وأيدوا ميثاق الصلح والمصالحة، ورضوا بالتعويض، فليس للبقية أن يقفوا في وجه الصلح، وخاصة أن بعض المناوئين للمصالحة لم يصبهم من لهيب الفتنة شيء.

(1) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (34/176) كما نقلت سابقا: (والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين، ومتى لم يقم إلا بعدد ومن غير سلطان أقيمت إذا لم يكن في إقامتها فساد يزيد على إضاعتها، فإنها من باب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، فإن كان في ذلك من فساد ولاية الأمر أو الرعية ما يزيد على إضاعتها لم يدفع فساد بأفسد منه).

(2) كما هو الوضع في الجزائر، وقد قامت الدولة وتحملت عبء تعويض المتضررين من المحنة، وإن وقع في التعويض بعض الأخطاء، وهمش بعض الناس بغير حجة!.

النبي ﷺ لقبیصة بن مخارق الهلالي: (يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فيسأل حتى يجد سدادا من عيش، ثم يمسك، ورجل أصابته فاقة، فإنه يقوم ثلاثة من ذوي الحجة من قومه، فيقولون: قد أصابت فلانا فاقة، فيسأل حتى يجد قواما من عيش ثم يمسك، ورجل يحمل حمالة فيسأل حتى يجد حمالته، ثم يمسك)، والواجب على كل مسلم قادر أن يسعى في الإصلاح بينهم، ويأمرهم بما أمر الله به مهما أمكن، ومن كان من الطائفتين يظن أنه مظلوم مبغي عليه فإذا صبر وعفا؛ أعزه الله ونصر؛ كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله، ولا نقصت صدقة من مال)، وقال تعالى: ﴿وَجَزَّوْاْ سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤١) وَلَمْ يَصْبِرْ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿ فالباغي الظالم ينتقم الله منه في الدنيا والآخرة، فإن البغي مصرعه، قال ابن مسعود: ولو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً.

ومن حكمة الشعر:

قضى الله أن البغي يصرع أهله*** وإن على الباغي تدور الدوائر) اهـ⁽¹⁾.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله في قاعدة نافعة: (المقصود من القضاء: وصول الحقوق إلى أهلها، وقطع المخاصمة، فوصول الحقوق هو المصلحة، وقطع المخاصمة إزالة المفسدة، فالمقصود هو جلب تلك المصلحة وإزالة هذه المفسدة، ووصول الحقوق هو من العدل الذي تقوم به السماء والأرض، وقطع الخصومة هو من باب دفع الظلم والضرر، وكلاهما ينقسم إلى إبقاء موجود ودفع مفقود. ففي وصول الحقوق إلى

(1) مجموع الفتاوى (80/35-81-84-8586).

مستحقها يحفظ موجودها ويحصل مقصودها، وفي الخصومة يقطع موجودها، ويدفع مفقودها، فإذا حصل الصلح زالت الخصومة التي هي إحدى المقصودين.

وأما الحقوق؛ فإما أن تكون وصلت معه، أو رضي صاحب الحق بتركه وهو جائز، وإذا انفصلت الحقوق بحكم وشهادة ونحو ذلك فقد يكون في فصلها جرح الحاكم والشهود ونحو ذلك، وهو من المفسد التي لا يصار إليها إلا للضرورة، كالمخاصمة، فإنه قد يكون في الفصل الأمر صعباً بين المتخاصمين وغيرهما.

فالأقسام أربعة: إما فصل بصلح، فهذا هو الغاية، لأنه حصل المقاصد الثلاث على التمام، وإما فصل بحكمٍ مرٍ، فقد حصل معه وصول الحق، وقطع الخصومة، ولم يحصل معه صلاح ذات البين، وإما صلح على ترك بعض ما يدعي أنه حق، فهذا أيضاً حصل مقصود الصلح وقطع النزاع، ولم يحصل مقصد وصول الحق؛ لكن ما يقوم مقامه من الترك، ومن هنا يتبين أن الحكم بالصلح أحسن من الحكم بالفصل المر، لأنهما اشتركا في دفع الخصومة وامتاز بصلاح ذات البين مع ترك أحدهما لحقه؛ وامتاز الآخر بأخذ المستحق حقه مع ضغائن، فتلك المصلحة أكمل، لاسيما إن كان الحق إنما هو في الظاهر، وقد يكون الباطن بخلافه، وأما لا فضل ولا صلح فهذا لا يصلح، يحصل به مفسدة ترك القضاء⁽¹⁾.

(1) مجموع الفتاوى (355/35-356).

باب :

السلطان يأمر رعيته بالعفو في الدماء.

عن أنس بن مالك قال: ما رأيت النبي ﷺ رُفِعَ إليه شيء فيه قصاص إلا أمر بالعفو⁽¹⁾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (...ومن قتل له قتيل؛ فهو بخير النظرين: إما أن يعقل وإما أن يُفدى)⁽²⁾.

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : (من قتل له قتيل عمدا، دفع إلى أولياء المقتول، وإن شاءوا أخذوا الدية...) ⁽³⁾.

وعن أنس بن مالك قال: أتى رجل بقاتل وليه إلى رسول الله ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : (اعفُ)، فأبى، فقال: (خُذْ أَرْشَكَ)، فأبى، قال: (اذهب فاقتله فإنك مثله)، قال: فلحق به، فقتل له: إن رسول الله ﷺ قد قال: (اقتله فإنك مثله)، فخلى سبيله. قال: فرئي يجر نسعته ذاهبا إلى أهله، قال: كأنه قد كان أوثقه⁽⁴⁾.

وعن أنس: أن الربيع عمته كسرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الإرش فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ وأبوا إلا القصاص، فأمر رسول

(1) صحيح أخرجه الإمام أبو داود (برقم 4497)، وابن ماجه (برقم 2692)، والإمام أحمد (252-213/3).

(2) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 6880/باب: من قتل له قتيل فهو بخير النظرين)، ومسلم (4/110-111)، وأبو داود (برقم 4505)، والترمذي (برقم 1405 - 2667) وغيرهم.

(3) حسن: أخرجه ابن ماجه (برقم 2626)، وأبو داود (برقم 4506)، والإمام أحمد (2/178-182 - 224-215)، والترمذي (برقم 1387) وغيرهم.

(4) صحيح: أخرجه ابن ماجه (برقم 2691)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (برقم 942).

الله ﷻ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله؛ أتكسر ثيئة الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثيئتها، فقال رسول الله ﷺ: (يا أنس، كتاب الله القصاص)، فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)⁽¹⁾.

قال شيخ الإسلام رحم الله: ((من توهم أنه بالعفو يسقط حقه أو ينقص؛ غلط، جاهل، ضال، بل بالعفو يكون أجره أعظم، فكذلك من توهم أنه بالعفو يحصل له ذل، ويحصل للظالم عز واستطالة عليه، فهو غلط في ذلك، كما ثبت في الصحيح وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: (ثلاث إن كنت لحالفا عليهن: ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما نقصت صدقة من مال، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)، فبين الصادق المصدق: أن الله لا يزيد العبد بالعفو إلا عزا، وأنه لا تنقص صدقة من مال، وأنه ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله، وهذا رد لما يظنه من يتبع الظن، وما تهوى الأنفس من أن العفو يذله، والصدقة تنقص ماله، والتواضع يخفضه)⁽²⁾.

قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن مَعْمَر رحمه الله رادا على نصراني زعم أن دينهم جاء بالأمر بالإحسان والصبر على المبغض لهم، بخلاف الإسلام فقد أمر أتباعه بالقصاص وأخذ الثأر: (الجواب وبالله التوفيق: إن الذي شرعه الله للمسلمين في هذا الباب أكمل وأجل مما عند غيرهم؛ فإنه تعالى أذن لهم في القصاص من المعتدي، وجعله حقا واجبا للمظلوم، وشرع التمكين له من أخذ حقه، ولم يوجب ذلك عليه، بل ندبه إلى الفضل والصبر.

(1) أخرجه الإمام البخاري (برقم 2703-4500)، ومسلم (برقم 1675) مع شيء من الاختلاف.

(2) مجموع الفتاوى (368/30).

فقال تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ١٣٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ ﴿النحل: ١٢٦ - ١٢٧﴾، وقال تعالى : ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣﴾ الشورى: ٤٠ - ٤٣.

فشرع تعالى العدل، وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، ووعد عليه الأجر، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ؛ أي: لا يضيع ذلك عنده.

وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور: ٢٢.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا)^(١)، في أحاديث كثيرة في الترغيب في العفو والحث عليه.

وكان ﷺ أول متصف بهذا الوصف الجميل، ولا خفاء عند نقلة أخباره بما يؤثر من حلمه واحتماله وعفوه.

كما عفا ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل ليقتلوه، فلما قدر عليهم عفا عنهم مع قدرته على الانتقام^(٢).

وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث، الذي أراد الفتك به حين اختلط سيفه وهو نائم، فاستيقظ ﷺ وهو في يده سلطا فقال: من يمنعك مني؟ قال ﷺ: الله. فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ، فقال: ومن يمنعك

(١) أخرج الإمام مسلم في صحيحه (برقم 2588 كتاب البر والصلة، باب: استحباب العفو والتواضع) من طريق إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة به.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (برقم 1807 كتاب الجهاد والسير، باب: قوله تعالى: ﴿وَمُؤَالَفَى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾) من طريق يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك به.

مني؟ فقال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فأتى قومه وقال: جئكم من عند خير الناس⁽¹⁾.

وعفا أيضا عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحره، ولم يعرض له، ولا عاتبة مع قدرته عليه⁽²⁾.

وكذلك عفوه عن المرأة اليهودية، وهي زينب أخت مرحب اليهودي التي سمّت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ فقالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرّك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك⁽³⁾.

ولكن لما مات بشر بن البراء من أكله تلك الشاة المسمومة قتلها به. والأخبار بحلمه واحتماله وعفوه كثيرة جدا⁽⁴⁾.

قال الشوكاني رحمه الله النيل (30/7): (والترغيب في العفو ثابت بالأحاديث الصحيحة، ونصوص القرآن الكريم، ولا خلاف في مشروعية العفو في الجملة).

(1) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (برقم 4135 كتاب المغازي) من طريق الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إنّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقضت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فهذا جالس) ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ. وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه (برقم 843).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه (برقم 5763).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه (برقم 3169 كتاب الجزية).

(4) منحة القريب المجيب في الردّ على عبّاد الصليب (665/2-666).

باب:

مفاهيم خاطئة في القصاص يصححها شيخ الإسلام رحمه الله.

(وأما قول القائل: إن الله أوجب علينا طلب الثأر، فهو كذب على الله ورسوله؛ فإن الله لم يوجب على من له على أخيه المسلم المؤمن مظلمة من دم أو مال أو عرض أن يستوفي ذلك، بل لم يذكر حقوق الأدميين في القرآن إلا ندب فيها إلى العفو، فقال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ المائدة: ٤٥، وقال تعالى: ﴿فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عِقْدَةُ الرِّكَاحِ﴾ البقرة: ٢٣٧.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المائدة: ٤٥، فهذا مع أنه مكتوب على بني إسرائيل، وإن كان حكمنا كحكمهم مما لم ينسخ من الشرائع، فالمراد بذلك التسوية في الدماء بين المؤمنين، كما قال النبي ﷺ: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم)، (فالنفس بالنفس) وإن كان القاتل رئيسا مطاعا من قبيلة شريفة، والمقتول سوقي طارف، وكذلك إن كان كبيرا وهذا صغيرا، أو هذا غنيا وهذا فقيرا، وهذا عربيا وهذا عجميا، أو هذا هاشميا وهذا قرشيا، وهذا ردُّ لما كان عليه أهل الجاهلية من أنه إذا قتل كبير من القبيلة قتلوا به عددا من القبيلة الأخرى غير قبيلة القاتل، وإذا قتل ضعيف من القبيلة لم يقتلوا قاتله؛ إذا كان رئيسا مطاعا، فأبطل الله ذلك بقوله: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ فالمكتوب عليهم هو العدل، وهو كون النفس بالنفس؛ إذ الظلم حرام. وأما استيفاء

الحق فهو إلى المستحق، وهذا مثل قوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾⁽¹⁾.

قلت: وروى عبد الرزاق من طريق معمر عن عمرو بن دينار، أو ابن أبي نجيح أو كليهما، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال تعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قال: فالعفو أن يقبل في العمد الدية، ﴿فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يتبع الطالب بمعروف ويؤدي إليه القاتل بإحسان ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ مما كتب على من كان قبلكم⁽²⁾.

(1) مجموع الفتاوى (87/35-88).

(2) مصنف عبد الرزاق (85/10 برقم 18450). وأخرجه الإمام البخاري (برقم 6881) من طريق قتيبة بن سعيد، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس به.

باب:

حُكْم من عاد إلى الجريمة وصُنعة الإرهاب بعد العفو، والإصلاح،
والمعاهدة والمعاقدة.

قال تعالى في سورة البقرة [178]: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ
بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾.

وقال تعالى في سورة البقرة [204]: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ
لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾.

وقال تعالى في سورة الأعراف [56]: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير آية الأعراف: (ينهى تعالى
عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح!، فإنه إذا كانت الأمور
ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك؛ كان أضر ما يكون على العباد،
فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه)⁽¹⁾.

وقال القرطبي: (فيه مسألة واحدة: وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد
قلّ أو كثر بعد صلاح قلّ أو كثر، فهو على العموم على الصحيح من
الأقوال)⁽²⁾.

(1) تفسير ابن كثير (324/6 ط: أولاد الشيخ).

(2) الجامع لأحكام القرآن (203/7).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فمن قتل بعد العفو أو أخذ الدية، فهو أعظم جرماً ممن قتل ابتداءً، حتى قال بعض العلماء: إنه يجب قتله حداً، ولا يكون أمره إلى أولياء المقتول)⁽¹⁾.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (وأما من قتل أحداً بعد الإصلاح، أو بعد المعاهدة والمعاقدة: فهذا يستحق القتل، حتى قالت طائفة من العلماء: إنه يقتل حداً، ولا يجوز العفو عنه لأولياء المقتول، وقال الأكثرون: بل قتله قصاص، والخيار فيه إلى أولياء المقتول).

وإن كان الباغي طائفة فإنهم يستحقون العقوبة، وإن لم يمكن كف صنيعهم إلا بقتالهم قوتلوا، وإن أمكن بما دون ذلك عوقبوا بما يمنعهم من البغي والعدوان ونقض العهد والميثاق، قال ﷺ: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدريته، فيقال: هذه غدرة فلان)، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاغُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قالت طائفة من العلماء: المعتدي هو القاتل بعد العفو، فهذا يقتل حتماً، وقال آخرون: بل يعذب بما يمنعه من الاعتداء، والله أعلم)⁽²⁾.

(1) مجموع الفتاوى (374/28).

(2) مجموع الفتاوى (89-88/35).

الخاتمة

هذا ما يَسّر الله لي جمعه في الجزء الأول من سلسلة إصلاح الفرد والمجتمع، ويليه الجزء الثاني بعونه تعالى مفتتحاً بأحكام البغاة في الفقه الإسلامي، والله أسأل أن أكون وفقت في هذا الجزء إلى التنسيق بين عباراته، وتقريب معانيه، وبثّ تربية الإصلاح بين أفراد المجتمع، راجياً من الله جلّ وعزّ الصواب والسداد، إنّه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله ربّ العالمين.

وكتبه في الجزائر الغراء

أبو عبد الباري عبد الحميد أحمد العربي الجزائري

كان الله في عونته.

2008 ميلادية

الفهرس الإجمالي للموضوعات وتحت كل باب نكت وفوائد.

- 4 تقریض فضيلة الشيخ:علي بن حسن الحلبي الأثري
5 -مقدمة الكتاب
6 توضیح لابد منه، وفيه ردّ على من شوّش على الكتاب
6 سبب تأليف الكتاب
9 مدخل في حبّ المسلم لوطنه المسلم
10 الحزبية شوشت عقول البشرية، وبذرت فيهم الفرقة
11 علاج الغلو والتطرف يكون بالطرق الشرعية والقوانين المرعية
14 ما هي الوطنية؟
14 توجيهات من المؤلف إلى شرائح المجتمع
15 حاجة أهل الحديث في الجزائر إلى مجلة علمية، يجمعون فيها بحوثهم،
ويعالجون من خلالها بعض القضايا الشائكة
18 باب: نعمة سلامة الفطرة ووجوب وقايتها من الأفكار الهدامة، والمذاهب
الضالة، كفكر الخوارج ودعاة الإرهاب على مصطلح العصر، وفكر رواد
التغريب وأهل الشرور من الشيوعيين والعلمانيين
30 باب: عظم دم المسلم عند الله تعالى، وحرمة إراقته بالباطل، وعصمة دماء
المعاهدين والمستأمنين
33 عقوبة من قتل مؤمنا مغتبطا بقتله كما هو حال الإرهابيين في الدّيار الإسلامية
34 توضیح لا بد منه
40 تأصيل عظیم لشيخ الإسلام ابن تیمیة رحمه الله، وأن قتل الكافر الأصلي
ليس لكفره، بل لمقاتلته

- 41 أهل الذمة والمعاهدين داخلون فيمن أمر الله بدعوتهم، لا بقتلهم
42 نقد بعض شبه الخوارج
45 فوائد الشورى
49 مبارزة العدو لا تكون إلا بإذن السلطان
51 إبطال بعض مزاعم الخوارج
53 باب: الإسلام دين الرحمة والتسامح والعفو عن الناس
57 ضيق صدر دعاة التغريب
60 الغاية من الجهاد رحمةُ الخلق، ودعوتهم إلى التوحيد
66 باب: المكان يفضل غيره بتوحيد الله والأمن فيه
69 الصلح الذي دعا إليه حاكم البلاد مشروع بلا ريب أو نزاع، والردّ على
من شكك في نجاعته (مهم)
72 من مزايا الصلح الذي دعا إليه حاكم البلاد
73 الذكاء والسياسة وحدهما لا يسعفان المرء على معرفة الحق
75 الأعمال التي يتباهى بها المغرر بهم لا يقرهم عليها العلماء
76 طعن المغرر بهم في علماء السنة والردّ عليهم
79 أفعال الخوارج والإرهابيين استفادت منها الأصولية النصرانية
88 الفتن تفسد المعيشة وتورث الاستئصال
88 قضايا الإرهاب لا تعالج عبر الأفلام الساخرة
90 نعمة الأمن تقابل بالشكر والحمد لا بالغناء والرقص
91 إذا غاب العلم الشرعي ظهر الشر والفتن
92 هل إقامة الدولة الإسلامية يكون بالجري في الشوارع والمسيرات الصاخبة؟
94 باب: بعض الأركان التي تحقق الأمن في الأوطان
95 أولا: تحقيق توحيد الله في الأرض سبب عظيم لانتشار الأمن في ربوع الأمة

- 103 ثانيا: من ركائز الأمن انتشار العمل الصالح في أوساط الأمة
- 106 ثالثا: من ركائز بقاء الأمن إكرام العلماء تقديمهم للنظر في قضايا الأمة النازلة
- 113 رابعا: من ركائز الأمن إقامة الحكم الراشد على أساس العدل والحكمة
والرحمة والعفو
- 118 المسائل التي تقوي العلاقة بين الحاكم والمحكوم
- 119 خامسا: من ركائز الأمن طاعة السلطان أو الرئيس بالمعروف وحفظ حقه
وعدم الخروج عليه
- 120 ما هو المناخ في ثبوت إمامة الحاكم؟
- 125 النصوص الآمرة بطاعة الحاكم المسلم بالمعروف، والتي غيبتها الخوارج،
أو أولوها بعقولهم القاصرة والملوثة
- 127 كلام السلف في طاعة السلطان بالمعروف
- 137 سادسا: من ركائز الأمن توقيف السلطان ومؤازرته وعدم التشهير بعيوبه على العامة
- 139 ذكر النصوص الواردة في توقيف الحاكم المسلم
- 143 سابعاً: من ركائز الأمن إصلاح فكر الخلق وخواطرهم، وإبعادهم عن
مخالطة أهل الفكر المنحرف والفساد، وعصمتهم من بعض القنوات
الفضائية التي تبث الرفض في قالب المقاومة والصمود
- 145 ثامنا: من ركائز الأمن المحافظة على العهود والمواثيق، وإعطاء
لمستأمنين حقهم من الأمان في الأنفس والأموال والأعراض، وتحريم
الغدر بكل وُره، والكفّ عن قتل الرسل؛ الذين هم سفراء الدول الكافرة
في ديار المسلمين
- 153 تعريف الأمان وممن يصلح ودليله من الكتاب والسنة
- 158 تعريف الهدنة ودليلها من الكتاب والسنة
- 159 دليل الوفاء بالعهد والهدنة من الكتاب والسنة

- 167 تحريم الاعتداء على سفراء الدول الكافرة والقائمين على أعمال دولهم في
ديار المسلمين
- 172 باب: ذكر بعض الأسباب السالبة للأمن من المجتمعات
- 174 السبب الأول: ظهور الشرك والبدع والمعاصي في الأمة
- 179 السبب الثاني: انتشار فكر الخوارج ودعاة التكفير بالكبيرة والصغيرة في الأمة
- 180 ما معنى مصطلح الإرهاب؟
- 184 النصوص النبوية الواردة في التحذير من الخوارج
- 185 صفات الخوارج الأشرار في السنة المطهرة
- 201 السبب الثالث: ظهور الطائفية والحزبية الضيقة في المجتمعات الإسلامية
- 201 ما هي الطائفية؟
- 202 ما معنى التحزب؟
- 206 ما هو أول واجب على من سلك طريق الدعوة إلى الله؟
- 207 صورتان لمعنى الحزبية. أولاً: عقد الولاء والبراء على موافقة شخص
بعينه والتعصب له دون الرسول محمد ﷺ
- 217 ثانياً: التقيد بعمل واحد من أعمال العبودية والتسمي به
- 218 ذكر بعض مضار الحزبية على الأمة الإسلامية
- 219 باب: المنازعات بين المسلمين واقعة كونا وإن ذمها الله شرعاً، وعلاجها
بالعلم والدعوة إلى الصلح العادل فيما بينهم
- 222 الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه سعى في تبديد الشبهات
التي تعلق بها الخوارج قبل قتالهم
- 225 يجب قبل إخلاء سراح المسجونين ممن يحملون فكر الخوارج تطهير
عقولهم من الشبه التي أوصلتهم إلى الفساد والدمار، وذلك بإنشاء مؤسسة
إصلاحية علمية يترأسها أهل العلم والحكمة

- 226 سياسة حكيمة سلكها المغيرة بن شعبة مع الخوارج يجب أن يقف عليها
ولاية أمور المسلمين للاستفادة منها
- 231 باب: فضل الصلح في كتاب الله تعالى
- 236 الشعب الجزائري الأبّي تحلى بالصبر في مواجهة دعاة الإرهاب، وصناع
فكر التغريب فكان له النصر والكرامة بعون الله تعالى
- 237 باب: فضل الصلح في السنة المطهرة
- 245 باب: صور من صلح النبي ﷺ
- 249 باب: حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الصلح
- 250 باب: صلح الحديبية وما نجم عنه من خير
- 259 بعض فوائد صلح الحديبية
- 262 باب: الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية وما جاء فيه من عبر، وفوائد مليحة
- 269 الفوائد المستخلصة من هذا الصلح
- 270 باب: تعريف الصلح
- 271 الهدف من المصالحة الوطنية هي إطفاء نار الفتنة
- 274 باب: الحقوق على الجملة ضربان
- 277 باب: الصلح إما مردود وإما جائز نافذ
- 279 باب: طرق الصلح كما يراها شيخ الإسلام
- 280 تسخير صندوق الزكاة لإنجاح مشروع الصلح بين المسلمين
- 284 باب: السلطان يأمر رعيته بالعفو في الدماء
- 288 باب: مفاهيم خاطئة في أحكام القصاص يصححها شيخ الإسلام ابن تيمية
- 290 باب: حكم من اعتدى وعاد إلى صنعة الإرهاب بعد الصلح والمعاهدة والمعاقدة
- 292 خاتمة الكتاب